الآداب الأجنبية، العدد
91/ صيف 1997
السنة الثالثة والعشرون
عدد خاص بأدب قباردا- بلقاريا.

# قباردا- بلقاريا والعالم العربي

■ إعداد: غسان نوح شورهي ■

القفقاس أو القوقاز هي المنطقة الجغرافية الواقعة بين البحر الأسود وبحر أزوف من الغرب، وبحر قزوين (الخزر) من الشرق، وتمتد شمالاً حتى حوض مانيتش ونهر القوما، وجنوباً حتى السفوح الشمالية لهضبة أرمينيا بين دائرتي عرض (40–45) شمالاً، وبين خطي طول (37–49) شرق غرينتش. وهي صلة الوصل بين قارتي آسيا وأوربا، وتقسمها سلسلة جبال القفقاس الممتدة من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي بطول 1200كم إلى قسمين شمال القفقاس، وتضم عدة جمهوريات إتحادية، تتبع جمهورية روسيا الإتحادية، وتدين معظم شعوبها بالإسلام، أما القسم الجنوبي فتوجد فيها ثلاث جمهوريات هي أزربيجان وجورجيا وأرمينيا التي انفصلت عن الإتحاد السوفياتي وهي دول مستقلة الآن.

جبال ووهاد، سهول وحقول، بحار وشواطىء، غابات ومروج، ينابيع وأنهار، ثروات وخيرات، طرق وحضارات، شعوب ولغات، حرب وسلام، إن هذا التنوع في التضاريس، والغنى في الغطاء النباتي، والاعتدال في المناخ، والغزارة في الأمطار والثلوج، والثراء في الينابيع والأنهار، وهب القفقاس (وخاصة الشمال الغربي منها) أجمل المناظر الطبيعية، حتى اعتبرت جنة الله على الأرض، وعشيقة الشعراء والأدباء ومكاناً للراحة والاطمئنان للناس أجمعين.. فهنا على سواحل البحر الأسود ورماله الذهبية، تنتشر مدن غاغرا وبتسوندا وسوتشي وداغوميس، تستطيع أن تنعم بالشمس الدافئة، ومياه البحر الصافية، وإذا نظرت إلى الخلف تجد الغابة العذراء تحتضن الشاطىء بحنان وعذوبة، وتملأ صدرك بشذى الأزهار البرية العبقة، وإذا رفعت رأسك قليلاً إلى الأعلى رأيت هامات القفقاس العظيم موشحة بالثلج الأبيض كالشيخ المهيب، يرنو إلى بنيه بعطف وحنان، وكأنه يقول خُلقت لأسعد بني الإنسان ولينعم بالسلم والاطمئنان، فلماذا الظلم والطغيان لأخيك الإنسان.

هناعلى السواحل الشرقية للبحر الأسود، وعلى ضفاف نهر الكوبان والترك، ومنذ آلاف السنين نشأت حضارات ودول (الميوؤت، السند، الزيخ) أجداد الشراكسة القدماء، ومن هنامرت شعوب وقبائل، باحثة عن ملاذ آمن مدفوعة بجيوش الإمبراطوريات العظمى قديماً (الإغريق، والرومان، والفرس، والاسكيت، والتتار والمغول والهون) ونشأت علاقات حضارية مثمرة بين مملكة البسقورس الإغريقية التي نشأت في القرم وشعوب سواحل البحر الأسود ومن هنا أيضاً مرت جيوش جنكيزخان 1222م، وقوات تيمورلنك 1395م ناشرة فيها الخراب والدمار، محدثة تغيرات كبيرة في مواطن الشعوب والقبائل التي كانت تعيش فيها.

وفي العصر الحديث وبعد أن نشأت الإمبرطورية العثمانية، وصراعها مع الدولة الإيرانية للهيمنة على العالم الإسلامي، وبعد أن استولى العثمانيون علىالقسطنطينية عام 1453م وتوسعهم في شرق أوربا،واستيلائهم على شبه جزيرة القرم عام 1475، ومحاولاتهم الحثيثة للوصول إلى مواطن الشعوب الطورانية في آسيا الوسطى عبر القفقاس، اصطدمت مع روسيا القيصرية، التي كانت تبني امبراطوريتها الاستعمارية، وتسعى للوصول إلى المياه الدافئة عبر القفقاس، والدول الأوربية وخاصة انكلترا التي كانت تسعى لتحقيق حلمها بالسيطرة على القفقاس الشمالي، لتأمين ممر بري نحو الشرق الأقصى، وبالوقت نفسه تسعى لاحتدام الصراع بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية، لاضعافهما وإبعادهما عن أوروبا.

وهكذا وقعت منطقة القفقاس في دائرة الصراع بين الدول الكبرى، ومطامعها الاستعمارية، وعانت شعوبها المآسي والويلات، كما عانت الشعوب العربية بالضبط، وفي هذه المرحلة التاريخية، لم تكن القبائل الشركسية، موحدة تحت قيادة واحدة، بل كانت كل قبيلة تنظم أمورها وحدها، وعندما تتعرض للأخطار الخارجية، تتحالف لصد هجمات الغزاة. فقبيلة القبردي كانت تعيش في سهول وسط القفقاس بين نهري السونج والكوبان ضمن نظام اجتماعي طبقي، وإلى الغرب منها تقطن (قبائل البسلنيّ والأبازه والكمركوي والأبزاخ والأدميّ والبجدوغ والحتقويّ والماقلغ) على ضفاف نهر الكوبان وروافده وسفوح القفقاس، وعلى سواحل البحر الأسود تعيش قبائل (الناتخوج والشابسغ والأوبيخ والأنجاز )، وهذه القبائل تتكلم لغة واحدة، ولكن بلهجات مختلفة أشبه ما تكون باللهجات العربية العامية، وهي كانت حيئنذٍ منهكة نتيجة غزوات المغول والتتار التي دمرت بلادها ووحدتها.

بدأ تتار القرم بمساعدة الدولة العثمانية منذ عام 1545م يغيرون على القبائل الشركسية واحدة بعد الأخرى، وينشرون الدمار والخراب، ويستولون على الأرزاق

والأنعام، ويأخذون الأطفال كرهائن لضمان ولائهم، حيث يباعون في أسواق النخاسة في الدولة العثمانية.. وأمام هذا البلاء الذي خيم عليها فتشت عن حليف، فوجدت ضالتها في روسيا القيصرية، التي كانت هي نفسها تعاني من هجمات التتار، فعقدت القبائل التي لم تقع تحت نفوذ تتار القرم بزعامة (تيمروقه) أمير القبردي حلفاً مع إيفان الرابع قيصر روسيا ضد التتار عام 1557، واستمرت المعارك بين الطرفين سجالاً، وكثفت الدولة العثمانية هجماتها على القفقاس، واحتدت المعارك بين العثمانيين وروسيا في البلقان. وبموجب معاهدة بلغراد التي وقعت بين روسيا والدولة العثمانية عام 1739 اعترف الطرفان باستقلال منطقة القبردي حيث كانت تبلغ مساحتها (44) ألف كم2 وعدد سكانها (400) ألف نسمة تقريباً إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً، ففي عام 1774 عقدت معاهدة قينارجه في أعقاب حرب القرم وانتصار الروس على العثمانيين، سُلخت بموجبها منطقة القرم من الدولة العثمانية وأعطيت منطقة القبردي لروسيا، دون أن يكون لشعب القبردي أي علم بذلك.. حينئذٍ هب الشعب القبردي ليدافع عن استقلاله، وبدأ يغير على حصون وقلاع الجيش الروسي، الذي كان قد هيأ نفسه للاستيلاء على منطقة القبردي، وبذلك يفصل شمال القفقاس إلى نصفين ليضعف وحدة القفقاس الشمالي، ولكي يتصل مع حليفه الجديد دولة جورجيا التي أعلنت ولاءها لروسيا القيصرية.

وكان الهجوم الروسي الكبير في (29 أيلول عام 1779) الذي قامت به قوات الجنرال ياكوبي على منطقة بيتا غورس (بسه هوابه) حيث دمرت عشرات القرى، وهجّرت ألوف الأسر إلى الغابات والأودية، وإلى منطقة نهر اللابا، واعتبرت روسيا حدودها مع القبردي نهر البالق. وبدأت تقيم الحصون والمواقع الحربية، لتنطلق منها في متابعة هجماتها، ولفصل منطقة القبردي عن بقية القبائل الشركسية في الغرب، لمنع وصول النجدات إليها، واستمرت المعارك.. من موقع إلى آخر، إلى أن قامت قوات الجنرال غلازينب بتاريخ 4 أيار 1804م بهجوم واسع النطاق، حيث دمرت 80 قرية، وفي نيسان عام 1810 قامت القوات الروسية بقيادة الجنرال بولغاكوف بهجوم كاسح دمرت 200 قرية وأحرقت (9085) بيتاً و (110) مسجداً، إلى جانب الاستيلاء على المؤن والمواشي، وانتشر مرض الطاعون بين الشعب القبرديني يحصد الشيوخ والنساء والأطفال الذين كانوا قد لجؤوا إلى الغابات والأودية الجبلية على سفوح القفقاس، ومع ذلك استمر الشعب في المقاومة. وبتعيين الجنرال يرملوف

الذي عُرف بقسوته ودمويته قائداً للقوات الروسية في القفقاس، بعد انتصاره على نابليون، شهدت القفقاس كلها أياماً عصيبة، حيث أمر بإحكام الحصار على شعب القبردي لمدة أربعة سنوات مستخدماً سياسية الأرض المحروقة مدمراً كل شيء يمكن أن يستفيد منه الشعب، واستطاع أن يحقق حلمه عام 1822 بالسيطرة على منطقة القبردي، وإخلائها من السكان ليمنحها للقوزان حيث كتب يرمولوف لأسياده قائلاً: (كان الطاعون، حليفاً لنا ضد القبردي، بحيث قضى على كل سكان قباردا الصغرى (شرق نهر التيرك) وساهم في إفراغ قباردا الكبرى، وأضعفهم إلى حد أنهم، لم يستطيعوا، كما كان من قبل، التجمع في مجموعات كبيرة ). وبدأ بإنشاء المستعمرات لإسكان القوزان فيها، وتحصين مواقعه في عموم شمال القفقاس. وبعد توقيع معاهدة أدرنه عام (1829) التي اعترفت بموجبها الدولة العثمانية، بسيطرة الروس على شمال القفقاس. اتجه الجهد الرئيسي للقوات الروسية، نحو الشرق لحسم المعارك في الداغستان والشيشان، وبنفس الوقت نحو الغرب في منطقة شراكسة الكوبان، وهبت شعوب تلك المناطق لمقاومة الغزاة بكل زخم وقوة، في الشرق بزعامة الشيخ شامل والحاج مراد وخاصة بعد عام 1837وفي الغرب حيث اتحدت قبائل الأديغه (الشركس) بزعامة محمد أمين والحاج جراندوقه، وقد استطاعت هذه القوات الاستمرار في مواجهة الزحف الروسي، سنوات وسنوات وسطرت أعظم ملاحم البطولة والفداء، دون أن تتلقى ما وعدت به الدولة العثمانية والفرنسيون والإنكليز الذين زعموا أنهم حلفاؤهم، وخاصة عملاء انكلترا (دافيد اوركهارت– وجيمس بيل) اللذان كانا يتقنان اللغة الشركسية، ولكن دورهما كان كدور لورنس وجرترودبيل في منطقة الشرق الأوسط، وانسحب هؤلاء من المعارك بتوقيعهم معاهدة باريس 1856 مع الدولة الروسية، وتركوا شعوب منطقة القفقاس تواجه روسيا القيصرية وحدها.

مما اضطر الشيخ شامل إلى الاستسلام في 25 آب 1859. أما في الغرب فقد استمر القتال، حيث كان الجنرال يفديكموف يدك القرى بالمدفعية، ويدفع بسكانها نحوالبحر الأسود حتى (21 آذار 1864) حيث توقفت المعارك.. وبدأ فصل جديد من مأساة الشعب الشركسي، وشعوب القفقاس الشمالي، أشد هولاً وقسوة من المعارك، ألا وهي مأساة التهجير. حينما اتحدت الإرادتان الروسية والعثمانية، والأعداء الألداء بالأمس جمعتهم المصلحة المشتركة الآن، الروس الذين يريدون القفقاس بدون سكانها، والعثمانيون الذين لم يستطيعوا السيطرة على القفقاس بسكانها، فعلى الأقل القبول بسكانها لحل مشاكلهم في مناطق أخرى من امبراطوريتهم المتداعية، وتحالف معهم الأشرار من كل صنف ولون.. وتم اقتلاع مئات الألوف من بيوتهم وقراهم، وسيقت إلى المجهول.. وهكذا كان مصير شعوب القفقاس، احتلال أوطانهم، وتهجير

ثلثي السكان الذين نجوا من الحروب إلى الدولة العثمانية.. وهم يعيشون اليوم في (24) دولة، معظمهم في تركية والأردن وسورية ويوغسلافيا والولايات المتحدة الأمريكية، والذين يقدر عددهم بثلاثة ملايين نسمة، أما من بقي منهم في القفقاس الشمالي، وخاصة القسم الشمالي الغربي منها، والتي أصبحت شبه خالية، خضعت للإستعمار الروسي الاستيطاني حيث حدثت هجرة واسعة من الروس والقوميات الأخرى إليها، وأصبح سكانها الأصليون أقلية في بلادهم بعد أن فقدوا ثلثي عددهم في الحروب والتهجير... ففي منطقة القبردي لم يبق عام 1868 سوى (5200) أسرة فقط بعد أن كان عددهم يبلغ عام 1739 (400000) نسمة ولم يبق من قبيلة الأربيخ أحد وهكذا بقية القبائل.وفي أعقاب الثورة الاشتراكية في روسيا عام 1917 تشكلت جمهورية القفقاس الجبلية، التي تضم جميع شعوب القفقاس الشمالي ما عدا داغستان كإحدى جمهوريات الإتحاد السوفياتي. ولكن بعد فترة قصيرة في عام 1921 قسمت إلى عدة جمهوريات ذات استقلال ذاتي، ومقاطعات ودوائر قومية، أُتبعت إلى جمهورية روسيا الاتحادية، حشرت فيها قوميات أخرى إلى جانب سكانها الأصليين، مع التصرف الكامل، بحدود هذه الجمهوريات، دون الرجوع إلى إرادة شعبها.. ومنذ عام 1936 أصبح الشعب الشركسي مجزءاً في أربعة جمهوريات هي (قباردا- بلقاريا، قرشاي - تشركيسيا ، الأديغييه، وأبخازيا) وحتى القبيلة الواحدة أصبحت مجزأة فمثلاً في جمهورية قباردا- بلقاريا يعيش إلى جانب القبردي شعب البلقار الذين ينتمون إلى العرق الطوراني ويتكلمون لغتهم القريبة من لغة الأتراك وبلغ عددهم عام 1990 (70) ألف نسمة وكذلك يعيش فيها الروس والأستين والكوريين، بينما يعيش شعب القبردي في جمهورية قرشاي تشركيسيا، وفي جمهورية أوسيتيا الشمالية في منطقة مزدوك، وتوجد ثلاث قرى قرب مدينة أرماميز (بكمرزي- شحشهوج-كورغي )، وأيضاً في جمهورية الأديغييه (هودز- ولابه وكواشه حبله- ويلاشه بسنه) وهم بقايا القبردي الذين هجّروا من منطقة بيتا غورس عام 1779 ورغم كل ذلك تحققت للشعب الشركسي، في هذه الفترة، جملة من الإنجازات الإيجابية وخاصة على الصعيد الثقافي والاقتصادي والاجتماعي، وعاش حياة مستقرة فترة لابأس بها، ساعدت على استعادة أنفاسه، رغم خسائره الكبيرة في الحرب العالمية الثانية التي بلغت (38) ألف نسمة من سكان قباردا- بلقاريا. التي كان يبلغ عدد سكانها حينئذٍ (400 ألف) نسمة..

إن جمهورية قباردا- بلقاريا التي تبلغ مساحتها (12500)كم2 والتي بلغ عدد سكانها (800) ألف نسمة عام 1990 تطورت تطوراً ملموساً بعد الحرب العالمية الثانية في شتى المجالات ففي مجال الزراعة تنتج الذرة والقمح ودوار الشمس والدخن والشمندر السكري والأرز وتنتشر فيها مزارع الأشجار المثمرة وخاصة التفاحيات واللوزيات. وتربى فيها قطعان كبيرة من الأغنام والأبقار وخيول (كابردين) المشهورة في أنحاء العالم بقوة تحملها، كما تنتج العسل والأسماك. ويستثمر من مناجمها التنغستين والغاناديوم والولغرام والماس والبترول. وانتشرت فيها المنشآت الصناعية الضخمة التي تقوم بإنتاج الأنواع العديدة من الآلات والتجهيزات الالكترونية والمنتجات الجلدية والموبيليا والألبان وبضائع الاستهلاك الشعبي..

وتعتبر الجمهورية منطقة سياحية من الدرجة الأولى، لجمال مناظرها الطبيعية واعتدال مناخها صيفاً، وغناها بالمياه المعدنية، ووجود الثلوج الأبدية على سفوح جبال إلبروز التي ترتفع 5642م حيث يؤمها المتزلجون وتنتشر فيها المصحات والفنادق ودور الاستراحة التي تتسع لـ260 ألف سائح وتعتبر مدينة نالتشك عاصمة الجمهورية، ويبلغ عدد سكانها (250) ألف نسمة، وتعتبر مدينة مصحات ومركزاً علمياً وثقافياً للمنطقة. حيث توجد فيها جامعة نالتشك التي تأسست عام 1932، والمعهد العالي للزراعة، ومركز أبحاث المناطق العالية بالإضافة إلى ثمانية معاهد بحث علمي، وأكاديمية العلوم الشركسية التي أنشئت حديثاً، ويرأسها العالم الشهير في الفيزياء / آدم تهوش/ ، أحد علماء الإتحاد السوفياتي في مجال الصواريخ.

وتصدر في المدينة (4) جرائد على مستوى الجمهورية باللغات (القبردينية- والبلقارية والروسية) و(5) مجلات متخصصة. كما يوجد فيها خمسة مسارح حكومية، وفرقتا رقص شعبي، وثمان دور للسينما، و(33) مكتبة إضافة إلى (50) دار ومقر للثقافة وثلاث مدارس موسيقية، ومدرسة فنية، ويوجد فيها العديد من القاعات والملاعب الرياضية، وتزهو مدينة نالتشك بحديقتها العامة للثقافة والراحة، وتبلغ مساحتها 5كم2 وتحتوي على (156) نوع من الأشجار من مختلف قارات العالم، ومسرحاً مكشوفاً وساحات لألعاب الأطفال ومسابح طبيعية تغذيها مياه نهر نالتشك، وتنتهي حدودها لتندمج مع غابات جبل سوسروقه التي يمكن الوصول إليها بواسطة التلفريك.

وفي أعقاب التغيرات الأخيرة في الإتحاد السوفياتي، أصبحت جمهورية قباردا- بلقاريا جمهورية اتحادية، في قوام جمهورية روسيا الاتحادية. وهي بموجب

الدستور الجديد تتمتع بحرية كاملة في مجال إنشاء العلاقات الثقافية والاقتصادية مع البلدان الأخرى. وهي تسعى لجعل منطقة القفقاس، واحة سلام ومحبة وتعاون بين جميع الشعوب التي تعيش فيها، وحل الخلافات التي قد تنشب بينها بالطرق السلمية والديمقراطية، كما تسعى إلى إقامة علاقات تعاون وأخوة مع الشعوب الأخرى، وترنو إلى المستقبل دون حقد أو ضغينة على أحد، متمنية الخير والسعادة للجميع.

***العلاقات العربية القبردينية (الشركسية ):***

لقد بدأت هذه العلاقات منذ آلاف السنين، حينما أقام أجداد الشراكسة (الأديغة والأبخاز) علاقات تجارية وثقافية مع مراكز الحضارة في العالم (اليونان والفينيقيين، والحثيين) ويقول: د. عمر شابوغ مترجم كتاب (فك رموز الكتابات القديمة في القفقاس) لمؤلفه غ.ف تورتشايفنوف بأن الكتابة الآشورية (الشركسية قديماً) لها علاقة بأشكال ورسوم الكتابة الفينيقية الأولى، وبأن علاقة حميمية، ربطت أهالي شمال القفقاس (قدماء الشراكسة0 الأديغة) منذ أوائل الألف الثاني قبل الميلاد مع أهالي فينقيا (جبيل) واستمرت هذه العلاقة أربعة آلاف سنة، وقام الرحالة العرب بزيارة منقطة القفقاس حيث ذكرها المسعودي في كتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر) وتحدث مطولاً عن الشراكسة (أمة الكشك) وذكرها ياقوت الحموي. في معجم البلدان باسم جبل (القبق ). ومنذ أن وصل العرب المسلمون بقيادة سراقة ابن عمر الأنصاري منطقة القفقاس، واقتحموا مدينة دربند على بحر الخزر عام 22هـ 737م، بدأ الإسلام ينتشر في الداغستان والشيشان، وامتدت أخبار العرب والإسلام نحو الغرب في قباردا وشراكسة الكوبان، ولكنها لم تنتشر فيها إلا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وخاصة في عهد حكم الأخوة ميسوست (حاتو ظوقه– وتيمروقه– وعادل جري) حينما آمنوا بالعقيدة الإسلامية، وعملوا على نشرها في منطقة قباردا، وعندما استلم حكم القبردي الأمير عادل جري الذي كان قد تعلم العربية وحج إلى مكة، طبق الشريعة الإسلامية في البلاد بمساعدة المولى (أبو قوه اسحاق) منذ عام 1790، وفي هذه الفترة بدأ طلاب العلم يفدون من قباردا إلى استانبول والقاهرة ودمشق لدراسة العلوم الإسلامية وعندما يعودون إلى بلادهم، يقومون بتدرس هذه العلوم في المساجد، ويقول يلبد حسن بأنه هونفسه درس عند (34) مولى (الأدب، والفقه، واللغة العربية، والتاريخ والحساب والمنطق) ومن أبرز هؤلاء في القرن التاسع عشر (حج بارا، ودشك نائب، شرلوقوه ناوتوقه وشورا نوغمو

الذي كان يتقن اللغة العربية والتركية والفارسية والروسية وكان له تأثير كبير في توجيه الجيل الجديد نحو العلم والمعرفة) وكانت لكل من هؤلاء محاولات لوضع أبجدية للغة القبردينيه بالأحرف العربية لتسهيل عملية التدريس. وفي بداية القرن العشرين عندما عاد عدد من الدارسين إلى قباردا اجتمعوا وقرروا فتح المدارس التي تعلم العلوم باللغة الشركسية بالأبجدية العربية، التي وضعها فنزي مجيد، ومن أبرز هؤلاء الذين سموا عصبة باخسان (تساغو نوري الذي درس في استانبول وزار دمشق، ودم أدم الذي درس في القاهرة ، ويلبد حسن الذي درس في دمشق، وشوغونتسوك علي الذي درس في استانبول.. وغيرهم) حيث استوردوا مطبعة بالأحرف العربية من استانبول لطباعة الكتب المدرسية، وطباعة الجريدة التي أصدروها باسم (صوت الأديغة) وكان كل واحد من هؤلاء (12) يعلم أبناء قريته، لأن المدارس الرسمية حينئذٍ كانت تعلم باللغة الروسية، وأبناء الأمراء والنبلاء والأغنياء فقط، وفي هذه المرحلة انتشرت الثقافة العربية الإسلامية في منطقة القبردي. وعندما وصل الشراكسة المهجرون إلى سورية والأردن والعراق، استقبلوا هنا كإخوة أحباء واقتسموا مع العرب الخبز والماء، والمأوى الآمن، وكانت الحياة المشتركة في السراء والضراء، وكان ذلك أصدق تعبير عن عظمة إنسانية الحضارة العربية وسيذكر الشعب الشركسي ذلك إلى أبد الدهر بأسمى آيات المحبة والولاء والعرفان بالجميل. وحديثاً حينما توطدت العلاقات بين الإتحاد السوفياتي وسورية العربية في الستينات، بدأت تصل الوفود السياحية القبردينية إلى سورية، وكذلك زارتها بعض الشخصيات الرسمية ضمن وفود الإتحاد السوفياتي مثل (رئيس جمهورية قباردا بلقاريا حينذاك ملباخو ونائبه (محمد شكه حشأه )، ورئيس وزرائها( ميخائيل مامكغ )، و( عليم كوشوقه) الأديب الكبير الذي كان رئيساً لإتحاد كتاب روسيا، الذي نظم القصائد الرائعة متغنياً بدمشق والحضارة العربية، كما زارت سورية في عام 1977 فرقة كبردينكا، برئاسة وزير الثقافة (جلاخستان أفندي) وقدمت عروضها على مسرح معرض دمشق الدولي، حيث أنشدت المطربة الكبيرة (نتاشا غساشا) أناشيد البطولة والفرح باللغة العربية (سورية يا حبيبتي...).

وهؤلاء جميعاً عبروا عن إعجابهم وتقديرهم وحبهم العميق، للشعب العربي السوري، وقيادته الحكيمة. وفي هذه الفترة، ظهرت على الساحة الأدبية في سورية، ترجمات للأدب القبرديني ( الشركسي) باللغة العربية، حيث أصدر الأستاذ ممدوح قوموق رواية (بانتظار الفجر) للأديب عليم كوشوقه ومسرحية (ترغه تاوه) للأديب أوتيج بوريس، وملاحم النارتين، وقصة ستناي، كما أصدر الأستاذ وديع بشكور رواية (الأم الثانية) للأديب تيونه حكيم، والدكتور محي الدين سليق أصدر رواية

(آخر الراحلين) للأديب الأبخازي الكبير باغرات شنكو به.

وبدأ الطلاب العرب، يفدون إلى جامعة نالتشك منذ عام 1966، التي قدمت لهم المنح الدراسية لدراسة مختلف العلوم وخاصة الطب والهندسة والزراعة، حيث تخرج منها حتى الآن (322) طالباً عربياً وما زال يدرس في جامعة نالتشك ومعاهدها العلمية (174) طالباً عربياً.

وفي أعقاب التغيرات الدراماتيكية التي جرت في الإتحاد السوفياتي، انفتحت أمام الشعب القبرديني، آفاق رحبة، وبرزت مهام جديدة، وتوفرت الظروف لتعزيز الوشائج الروحية والثقافية مع الشعب العربي، ومد جسور التواصل والتفاعل معها.

وبرزت هذه المشاعر والأفكار والآمال واضحة وعميقة، في الكلمة التي ألقاها رئيس جمهورية قبردينا- بلقاريا (الشركسية) فاليري كؤكؤه في المؤتمر الشركسي العالمي الذي عقد في مدينة نالتشك 19 أيار 1991 حينما قال (.. أيها الأخوة إن هذا اللقاء اليوم يذكرنا بالتاريخ المشبع بالذكريات الجميلة، والأحداث المريرة، وأعتقد بأن التفكير في مهمات هذا اللقاء، والأمنيات المعقودة عليه، ولكي تكون أمور الأديغة (الشركس) في المستقبل أفضل، يجب علينا أن نتذكر الماضي، وأن لا ننسى أبداً تلك الشعوب التي مدت يد العون لأكثرية شعبنا الذي أصبح بلا مأوى، أولئك الناس الذين قدموا الخبز والماء والمأوى لأجدادنا، نعم الذين أنقذوا أجدادكم من الموت المحقق، وأخص بالذكر الشعب العربي. ولولا مساعداتهم لأصبحت أمور إخوتنا أسوأ بكثير عما هي عليه الآن، لذا أتوجه إليكم أنتم ممثلي شعبنا في البلدان المختلفة المضيفة لأجدادكم ولكم وأرجوكم أن تنقلوا إلى تلك الشعوب التي تعيشون معها كإخوة أعزاء بأننا لم ننس... ولن ننسى.. أبداً تلك الأعمال الطيبة التي قاموا بها تجاه أجدادنا في تلك الأيام.. وشاركوهم في حياتهم، ورحبوا بهم في بلادهم، إن شعبنا سيذكر هذا دائماً وأبداً بكل المحبة والعرفان بالجميل.. لذا أدعوكم للمساهمة في ترسيخ وتعزيز علاقات المحبة والتعاون (اقتصادياً وثقافياً) بين الشعوب لتصبح هذه الدنيا أكثر جمالاً ولتزدهر حياة شعبنا مع الشعوب الأخرى، إننا لا نريد أن نسيء لأحد كائناً من كان، وخاصة الدولة والشعوب التي تعيش فيها أخوتنا الشراكسة (الأديغة) بل تحترم كل قوانينها، وكل مانريده هو تعزيز الأخوة الاحترام المتبادل بين شعوبنا، وسنكون أمناء لتقاليد شعبنا القديمة، قدم الدهر في الوفاء والعرفان بالجميل

والاحترام المتبادل بين الشعوب ).

ومنذ عام 1992 بدأت الوفود الطلابية تصل إلى سورية والبلاد العربية لدراسة العلوم الدينية واللغة العربية، كما نشطت الحركة السياحية والتجارية بين البلدين حتى بلغت عدة رحلات جوية أسبوعياً، وتواترت أخبار الأدب والأدباء العرب في الصحافة الأدبية القبردينيه، حيث أصدر الكاتب والصحفي (محمد خضره) كتابين تحدث فيهما، عن زياراته إلى سورية والبلاد العربية والحركة الثقافية وترجم بعض نتاجات الأدباء والشعراء إلى اللغة الشركسية. كما ترجم الكاتب يلغركاشف القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة إلى اللغة القبردينية عن الروسية.

وفي صيف عام 1993 زارت فرقة كبردينكا للرقص الشعبي سورية، لتقديم عروضها على مسرح معرض دمشق الدولي وبصرى، ووقعت الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة السورية والسيد رسلان فيرا وزير الثقافة القبرديني اتفاقية للتعاون الثقافي بين البلدين. وجرى لقاءبين وزير الثقافة رسلان فيرا رئيس نادي الفروسية في قباردا– بلقاريا والفارس الذهبي باسل الأسد الذي وجه دعوة لفرسان قبردينا للمشاركة في مهرجان الفروسية الذي يقام في مدينة اللاذقية وعندما وقعت الفاجعة... عم الحزن والأسى قلوب الشعب الشركسي في القفقاس، على فقيد الأمة والفروسية الفارس الذهبي باسل الأسد. وانطلاقاً من الأخوة الأبدية بين الشعب العربي والشعب الشركسي وتعبيراً عن مشاعر الحزن والأسى في جمهورية قباردا– بلقاريا شعباً وحكومة، انطلقت كوكبة من فرسان قبردينا من ستاد مدينة نالتشك يوم 1994/5/21 حيث كان الشعب القبرديني يحيّ ذكرى شهدائه، لزيارة مثوى الشهيد الباسل في مدينة القرداحة قاطعة الجبال والوهاد والسهول عبر آلاف الكيلومترات، لتقديم واجب العزاء إلى الشعب السوري، ولسيادة الرئيس حافظ الأسد، باسم شعب وقيادة جمهورية قباردا– بلقاريا، ووصلت كوكبة فرسان قبردينا إلى مدينة القرداحة صباح 1994/6/25 وزارت ضريح الفارس الذهبي، وقرأت الفاتحة على روحه الطاهرة، وتقبل الدكتور بشار الأسد أحر التعازي بفقيد الوطن والأمة، وأثنى على الجهود الكبيرة التي بذلها فرسان قبردينا للوصول إلى سورية على خيولهم، فقطعوا مسافات شاسعة برحلة الوفاء للفارس الذهبي، بعد ذلك قدم السيد وزير الثقافة القبرديني جواداً أصيلاً من نوع (كبردين) والذي تجري في عروقه دماء الحصان العربي القديم، هدية إلى نادي باسل الأسد للرماية والفروسية، وذلك تعبيراً عن وفاء فرسان قبردينا للفقيد الفارس الباسل، وعربون صداقة ومحبة للشعب العربي السوري، كما قدم الدكتور بشار الأسد إلى الوزير الضيف، هدية تذكارية هي عبارة عن سيف دمشقي، نقش على نصله عبارات للسيد الرئيس حافظ الأسد عن الخيل والفروسية.

وفي 1994/10/5 زار وفد إتحاد الكتاب العرب في سورية برئاسة الدكتور علي عقلة عرسان رئيس الإتحاد وعضوية الدكتورة ناديا خوست والأديب ميخائيل عيد مدينة نالتشك عاصمة جمهورية قبردينا– بلقاريا، تلبية للدعوة التي وجهت لهم للمشاركة في الاحتفال الكبير بذكرى مرور 200 عام على ميلاد الكاتب المفكر الشركسي الكبير شورا نوغمو، حيث ألقى الدكتور علي عقلة عرسان كلمة هامة تحدث فيها عن أهمية التواصل والتفاعل الثقافي بين الشعوب ودور الأدب والأدباء في تعزيز وتطوير علاقات الصداقة والمحبة بين الشعوب، كما وقعت هناك اتفاقية للتعاون بين إتحاد الكتاب القبرديني وإتحاد الكتاب في سورية، وزار الوفد أيضاً جمهورية أبخازيا ووقعت اتفاقية للتعاون بين الإتحادين.

وفي 1995/11/20 قام بزيارة سورية وزير العلاقات الاقتصادية الخارجية في جمهورية قبردينا– بلقاريا حيث أجرى العديد من اللقاءات مع المسؤولين السوريين والفعاليات الاقتصادية، لتعزيز أواصر الصداقة وتطوير العلاقات الاقتصادية والثقافية بين البلدين.

وفي 1996/4/15 قام وفد من إتحاد كتاب قبردينا– بلقاريا بزيارة سورية، بدعوة من اتحاد الكتاب العرب في سورية وضم الوفد الدكتور لقمان ليبه المستشار الثقافي لرئيس مجلس الوزراء والكاتب الكبير نالو أحمد خان والشاعر حسن حزبل رئيس اتحاد الكتاب حيث تجول في ربوع سورية وأجرى عدداً من اللقاءات الأدبية والرسمية.

وفي أيار 1996 سافر وفد من إتحاد الكتاب العرب في سورية الأديبان (صبحي الجابي– وليد الحافظ) إلى مدينة نالتشك، بدعوة من إتحاد كتاب جمهورية قبردينا– بلقاريا وأقاما في ربوعها لمدة أسبوع. وفي آذار 1997 زار سورية الدكتور بارسبي قره مرزه رئيس جامعة نالتشك والسيد أناتولي قوزوقوه مدير العلاقات العامة والتقى الوفد مع الدكتور عبد الغني ماء البارد رئيس جامعة دمشق والدكتور حامد خليل عميد كلية الآداب، كذلك التقى الوفد مع الدكتور محمد علي حورية رئيس جامعة حلب، وجرى حوار ودي بين الطرفين وعبرا عن رغبتهما في إقامة علاقات صداقة وتعاون بين جامعة دمشق وجامعة نالتشك.

إن هذه العلاقات الثقافية التي بدأت تتعزز بين دمشق ونالتشك في أجواء

الصداقة التاريخية ودفء مشاعر المحبة والاحترام المتبادل، تعتبر جسراً حضارياً هاماً، يمكن أن تتجذر وتتعزز في المستقبل، لتعبر عليها أفضل العلاقات الثقافية والاقتصادية بين الشعبين، وستكون كذلك لمصلحة كافة شعوب شمال القفقاس والعالم العربي.

❑❑

***مراجع البحث***


1-تاريخ القبردي: مجموعة من المؤلفين 1959 بالقبردينيه.

2- موجز تاريخ الشركس (الأديغه): تأليف شورا بكموزا نوغمو، ترجمه إلى الألمانية أدولف برجة عام 1866، تعريب الدكتور شوكت المفتي.

3- المهاجرون: تأليف الكاتب الأبخازي زازاريا بالروسية.

4- الجذور والأغصان: تأليف نالوزاور بالقبردينيه.

5- المغتربون : تأليف الدكتور حسن دومان بالقبردينيه

6- العادات الشركسية وهذا الزمان: تأليف مجيّ ميخائيل بالقبردينيه.

10-المماليك الأديغة : تأليف محمد خضرة بالقبردينيه .

11- الجبليون: تأليف شورتن اسكربي بالقبردينيه.

12- مجلة (أواشحه ماهو): بالقبردينيه /عدة أعداد /مجلة ثقافية دورية تصدر في مدينة نالتشك.

13- تاريخ شعب القبردي: تأليف قوداش فلاديمير 1913 بالروسية، نشرت في القبردينية في مجلة أواشحه ماهو.

14- جريدة (شن غوازه) بالقبردينية تصدر في مدينة نالتشك (دورية).

15- جريدة (أديغه بسّاله): بالقبردينية تصدر في مدينة نالتشك.

16- مروج الذهب ومعادن الجوهر: المسعودي.

17- يوميات جيمس بيل في القفقاس: أعوام 1837-1839 بالإنكليزية.

18- أصل الشراكس: تأليف أيتك نامتوق تعريب د. فؤاد يحي توغوج.

19- احتلال الروس للقوقاز: تأليف جون بدلي ترجم عن الإنكليزية.

20- إبادة الشراكسة: تأليف علي حسن قاسوم وحسن علي قاسوم ترجمة د. عمر شابغ.

21- فك رموز الكتابات القديمة في القفقاس: تأليف غ.ن تورتشا نينوف. ترجمة الدكتور عمر شابغ.

22- تهجير الشراكسة: تأليف نهاد برزج ، ترجمة عصام الحسن حتق.


❑❑❑

# البلد الجاثم عند سفوح ايلبروس، وأدبه

بقلم: عضو اتحاد كتاب روسيا

الـــدكتور: فـــي علـــوم اللغـــة والأدب آدم غوتوف

■ ترجمه: عن الروسية: عدنان جاموس ■

**أيها القارئ العربي الكريم! نضع بين يديك منتخبات من أعمال أدبية لكتاب من بلد ليس لك به معرفة واسعة هو "كاباردا" آملين أن تثير لديك هذه الأشعار والقصص، وكذلك هذا الحديث الموجز الذي يسبقها، الاهتمام بشعبنا غير الكبير عددياً، وعساها أن تكون مصدر متعة لك أيضاً.**

**إن فكرة إقامة علاقات بين منظمتي الكتاب في سورية وكاباردا تعود لرئيس اتحاد الكتاب العرب في سورية السيد علي عقلة عرسان المحترم، ويسرنا أن نغتنم هذه الفرصة كي نعبر له عن أخلص آيات العرفان آملين أن تعود مبادرته النبيلة بالخير على كلا الجانبين.**

***

الكاباردينيون هم فرع إثني من الأديغيين أو الشركس كما يسمونهم في أغلب الأحيان. وكلمة "أديغ" هي الاسم الذاتي الذي يطلقه شعبنا على نفسه، أما الشعوب المجاورة والبعيدة فيسموننا (الشركس) . وقد سكن أسلافنا منذ أقدم العصور هذه البقعة المعطاء الواقعة في شمالي وشمال- غربي القفقاس. ويفترض العلماء، بدلالة اللغة وكثير من عناصر الثقافة، أن ثمة صلة تربط بين الشركس والشعب الحثي القديم الذي كان يسكن آسيا الصغرى. ويدل على هذا كلٌ من المعطيات اللغوية ونتائج التنقيبات الأثرية.

تقع كاباردا في الجزء الشرقي من منطقة شركاسيا التاريخية، وتعتبر المركز الجغرافي لشمالي القفقاس، وهي تشكل مع الشعب البلكاري القليل العدد الذي تنتمي لغته إلى مجموعة اللغات التوركية جمهورية (كاباردينو- بالقاريا)، وهي إحدى الوحدات الإدارية- القومية في الإتحاد الروسي (روسيا الإتحادية) وتبلغ مساحة الجمهورية (12500) كم2، ويقارب عدد سكانها (800) ألف نسمة

نصفهم تقريباً من الكاباردييين، ومنهم (82) ألفاً من البلكاريين، والباقون من الروس والأوسيتيين وقوميات أخرى. وتقع ضمن أراضي هذه الجمهورية أعلى قمم جبال القفقاس، وبينها أعلى قمة في أوربا وهي قمة جبل ايلبروس التي يبلغ ارتفاعها 5641 م فوق سطح البحر. وبالإضافة إلى نالتشيك عاصمة الجمهورية ("250" ألف نسمة) هناك ست مدن غير كبيرة، وعشر بلدات من النموذج المديني وبضع عشرات من القرى. ويعمل سكان الريف تقليدياً في الزراعة وتربية الماشية. وهم يزرعون أنواعاً عديدة من الحبوب (القمح، والذرة، والدخن الخ..) ومن الأشجار المثمرة (التفاح، والكمثرى، والخوخ، والكرز وسواها) وتشتهر الخيول الكاباردية في العالم أجمع. ويربي السكان الضأن والماعز في المروج الألبية الملائمة لذلك ، كما تجد الخيول والأبقار في هذه المروج مرتعاً خصباً لها في موسم الصيف.

أما في المدن فقد تطورت فروع الصناعات الغذائية والخفيفة وصناعة آلات الورشات والآليات وأجهزة اللاسلكي والالكترونيات. وتطور التصنيع السياحي إلى حد بعيد: فالجبال ذات المناظر الخلابة والمناخ الصحي، والأماكن الملائمة للاستجمام تجتذب آلاف السياح. وقد خُصص جزء من مدينة نالتشيك ليكون منطقة للمنتجعات والمصحات. وتزخر المناطق الجبلية والبقاع القريبة منها بينابيع المياه المعدنية، كما توجد في البلاد أماكن مخصصة للاستشفاء بالوحول العلاجية. أما عالم الحيوان هنا فهو غني ومتنوع: إذ يمكنك أن تجد هنا الذئب والثعلب والدب والقط البري وابن آوى والوشق، ويعيش بين صخور الجبال الشاهقة بعيداً عن أعين الناس ،الماعز الجبلي ذو البنية المتناسقة الرشيقة، والقرون البديعة الرائعة، وفي الأعالي تحوم العقبان فوق القمم المغطاة بالثلوج الدائمة.

تقول الأسطورة إن الخالق كان قد اختار القفقاس لنفسه كأحب مكان إليه، ولكن بما أن الشركس أعجبوه جداً فقد وهبهم إياه. وكان من شأن الأرض الخصبة، والمناخ الصحي، والغابات الرائعة التي تغطي سفوح الجبال، والسهول الرحبة أن تجتذب إليها منذ القدم أنظار العديد من البشر. وقد شهدت هذه البقعة في مختلف العصور كثيراً من العهود التي سيطرت فيها أقوام مختلفة مثل: السكيف، والهون، واليونان، والفرس، والتتر- المغول. وجحافل أتيلا، وبايكان خان، وتيمورلنك. وانتهت المنافسة الطويلة الأمد بين الإمبراطوريتين العثمانية والروسية في القرن التاسع عشر إلى تثبيت أركان الحكم الروسي في القفقاس نهائياً. وكان قد سبق ذلك احتدام حرب دموية طويلة الأمد خاضها الشركس وشعوب القفقاس الأخرى في سبيل الاستقلال، وكان من نتائجها إزهاق أرواح مئات الألوف من السكان الآمنين، ونزوح أعداد كبيرة من الناس إلى المناطق التي تقوم فيها الآن دول تركيا وسورية والأردن وسواها. وقد ترافق هذا النزوح، كأي نزوح جماعي آخر، بكوارث مرعبة، وجائحات وأهوال أدت إلى إفناء آلاف مؤلفة من البشر. وفي ا لوقت الحالي نجد أن كل أربعة من أصل خمسة من أبناء الشعب الشركسي يعيشون خارج حدود وطنهم التاريخي. وقد آوت الأرض السورية عدداً غير قليل منهم.

ويشكل الشراكس الذين بقوا في القفقاس ثلاثة تجمعات أساسية متراصة، وهي: الأديغيون في الغرب، ويسكنون جمهورية أديغيا، والشركس(1) في أواسط ما أمام القفقاس، والكاباردييون الذين

[1] - كلمة (الشركس) التي تطلق في الأدب، حسب العرف، على جميع الأديغيين أصبحت هي التسمية الإثنية الرسمية لممثلي إحدى هذه المجموعات الثلاث، دون أن تفقد في الوقت نفسه معناها

يعيشون في جمهورية كاراتشايفو– شركاسيا وجمهورية كاباردينو– بالقاريا. وقد دخلت منطقة إقامتهم ضمن وحدات إدارية مختلفة في الدولة الروسية، مما لم يكن يساعد بحال من الأحوال على إقامة صلات دائمة وثابتة فيما بينهم. وعمل هذا الوضع على هدم الرابطة الثقافية القديمة التي كانت تجمعهم.

ومن المجالات التي تجلى فيها هذا الانفصال الإثني الثقافي الإبداع الفني الكلامي.

فعلى مشارف القرن العشرين أدت التجزئة الجغرافية والإدارية للشعب الذي كان يشكل في الماضي وحدة متماسكة إلى ظهور لغتين أدبيتين: اللغة الأديغية الغربية أو ما يسمى الآن: اللغة الأديغية، واللغة الأديغية الشرقية أو ما يسمى الآن: اللغة الكاباردية– الشركسية. ومن المتعارف عليه اعتبار الفولكلور التقليدي (مثلاً الشعر الطقوسي، والملاحم البطولية، والأغاني والحكايات التاريخية– البطولية، والشعر الغنائي (الوجداني) (الشعبي) فولكلوراً أديغياً عاماً من حيث الأساس، فالقصص القديمة التي تتحدث عن الجبابرة الذين يسمون (النارتيين) منتشرة بين جميع فئات الأديغيين.

والملاحم النارتية هي مجموعة كبيرة من قصص نثرية وشعرية تدور حول موضوعات ميثولوجية مغرقة في القدم. وتُروى فيها حوادث خيالية (مثل: الحصول على النار، واستعادة البذرة التي اختطفها الوحش، وصنع الأدوات الأولى، وخطبة الجبابرة المرتبطة بامتحانات قاسية)، كما تظهر فيها شخوص خيالية كثيرة (أحصنة تتكلم وتطير، وعمالقة متوحشون، وأقزام). لكن مهما بدت القصص النارتية بعيدة عن الواقع فإنها كانت تعبر قبل كل شيء عن تصورات الواقع الحقيقي كانت موجودة في أذهان الناس في الماضي القديم، وتعبر عن مفهوم جمال الكلام، وجمال السرد، وعن تصورات أخلاقية وسلوكية لدى الناس القدماء.

وهناك نوع آخر من الإبداع الفولكلوري لا يقل عراقة عن هذه القصص من حيث طبيعته هو التمنيات الطيبة المصوغة شعراً هي ما يسميه الأديغيون (خوخ). فكل عمل يبدأ بالتمنيات الطيبة كما هو الحال، على الأرجح، لدى جميع شعوب العالم. وهذه التمنيات كانت تصاحب جميع الأفعال من أصغرها إلى أكبرها: من اللقاء العارض بين شخصين لا يعرف أحدهما الآخر إلى الأمور العامة الكبرى (كالاشتباك في معركة، أو إقامة احتفال شعبي عام، أو الخروج إلى الحقل للفلاحة الخ..). وأغلب الظن أن الناس كانوا يؤمنون بالقوة السحرية للكلمات وما يصاحبها من أفعال، ولذلك كانوا يحرصون على أن تكون عبارات التمنيات الطيبة عميقة المعنى وبديعة المبنى. وبذا كان الكلام يكتسب إلى جانب وظيفته النفعية وظيفة جمالية.

وقد غدت هذه الوظيفة في الأعمال الشعرية الشفهية المتأخرة تكتسب قدراً متزايداً من الأهمية إلى أن أصبحت هي الوظيفة الغالبة. لقد ظل الشركس في مرحلة العلاقات الإقطاعية المبكرة– مع بروز واضح لسمات الفروسية– على مدى ردح طويل من الزمن يمتد تقريباً بين القرن الرابع والقرن الثامن عشر، واتسمت هذه الحقبة بتقدير الكلام البليغ المنمق والسلوك الفروسي، مما

---

الجمعي السابق. وهذه المجموعة مفصولة جغرافياً فقط، أما من حيث اللغة والثقافة فهي، في الحقيقة، لا تختلف في أي شيء عن الكاباردين.

كان له شأن غير قليل في تطوير أساليب التعبير الكلامي واللغة الأدبية الرفيعة.

ومن أوساط كل شعبٍ يبرز، عادة، أشخاص يمتلكون ناصية البلاغة، ويجيدون نظم الشعر، ويتفوقون في أداء الأغاني. وأمثال هؤلاء الأشخاص يسميهم الشركس (جغواكوا) مما يعني حرفياً (اللاعب) أو (اللعيب) وكان هؤلاء من المؤلفين والمؤدين المحترفين سواء لأعمالهم بالذات أو للأعمال الشعبية. كانوا يؤلفون الأغاني والأشعار الشفهية، ويغنونها أو يلقونها، ويرقصون ويعزفون على الآلات الموسيقية. وفي الحقبة التي لم يكن فيها الشركس يكتبون بلغتهم الأم (ظل الشركس زمناً طويلاً يستخدمون في الكتابة اللغة العربية أو التركية) كانوا يرفعون من شأن الثقافة الشعرية الشفهية إلى الدرجة التي جعلت هذه الثقافة تكتسب السمات الجنسية للأدب المكتوب. والسمة الأساسية لهذا الإبداع: الفردية البارزة في أسلوب التعبير. وكمثال نموذجي على هذه الموهبة يمكن أن نذكر لياشا آغنوكو (1854–1918) وبيكمورزا باتشيف (1857–1936) اللذين تجمع بينهما المعرفة العميقة للتقاليد الشعبية، والفردية البارزة بوضوح في أسلوب التعبير الذي يخالف أصول الشعرية الشعبية، ولكن مع ذلك فإن هذين المبدعين كانا مختلفين من حيث المصير والبنية النفسية، مما انعكس في إبداعهما. فلياشا آغنوكو كان شاعراً كرنفالياً، وكان حريصاً على حضور الاحتفالات والأعياد المختلفة سواء العائلية أو الاجتماعية، حيث كان يضطلع بدور المتصرف والمنظم لمختلف أنواع التسالي والألعاب المرحة، وكان ماهراً جداً في الارتجال والابتكار ومفعماً بحب الحياة والتفاؤل، ولكن هذا لم يكن ليمنعه من الوصول في أفضل أعماله الإبداعية إلى عمق فلسفي مدهش، كما يبدو واضحاً في تأملاته الشعرية التي يتحدث فيها عن الحياة:

**نحن نسير في ظل عناية الله القادر على كل شيء**
**وفراق الأرض التي نسير عليها يؤلمنا!**
**إيه، أيها العالم القديم الذي يشبه شهد العسل الطيب**
**إنهم يحرموننا منك قبل أن نذوق عسلك!**
**لديك الكثير من أنواع الشراب اللذيذ**
**ولديك من النساء الجميلات أكثر**
**وحياة الإنسان ليست سوى خطوة بالنسبة إليك**
**وأنا لو مُنحت ألف خطوة لما كان هذا كثيراً بالنسبة إلي**
**وهاكم تعبيره المبتكر عن الدمعة البشرية:**
**يبكي الذي لا يجد ما يأكله**
**ويبكي الذي يحكم العالم كله**
**من عيون كليهما تسيل الدموع**
**وإذا تأملتها وجدتها:**
**مالحة عند كليهما**
**وصافية عند كليهما**
**وتعكس الشمس بطريقة واحدة**
**لا الشمس تجففها**
**ولا البحر يذيبها!**

وفي بعض الأعمال ترتقي الموهبة المتوهجة لدى هذا الـ (جغواكوا) إلى قمم شاهقة في إبداع صور شعرية متألقة وتأملات فلسفية عميقة يندر وجود ما يضاهيها في الشعر العالمي: فالأزهار على

شجرة الكمثرى: آلاف من الفراشات البيضاء، والشجرة نفسها: زوبعة.إنه قادر على أن يرى الشيء نفسه بعيون ذوات مختلفة: النهر في نظر الجبل: ابنته ([2]) الأثيرة، وفي نظر ربه الأنهار: حليب الأم، وفي نظر عابر السبيل المتعب: كأس مترعة بالشراب، وفي نظر السمكة التي تسكنه: جنة الفردوس.

إن الرغبة الجارفة في إقامة العدل، والحب الجامح للحياة لا يندر أن ينتزعا من صدره كلمات متمردة حول عدم عدالة الخالق، ولكن الشاعر لا يلبث أن يرتضي بمشيئته وهو يرى تنوع الحياة وسخاء الأرض.

أما شعر بيكمورزا باتشيف فإنه يتسم كذلك بروح الابتكار الذي يبعده عن الشبه بالشعر الشعبي الشفهي التقليدي. ومن الجدير بالذكر هنا أن هذا الشاعر بالذات هو أول من شعر بضرورة كتابة ما يبدعه: وقد تعلم بنفسه الكتابة العربية ولاءم بين حروف الأبجدية العربية ولغته الأم وبدأ يكتب أشعاره. وكان هذا انتقالاً نوعياً بالشعر الشركسي من المرحلة الشفهية إلى المرحلة الكتابية. ومثل هذه القفزة التي تحققت بطريقة ارتقائية يندر جداً أن نشهد لها مثيلاً في تاريخ الثقافة العالمية. لقد كان باتشيف يتميزمن آغنوكو ببنيته الذهنية الميالة إلى التفكير العميق ، .لقد كان شديد الاهتمام بالعلوم الدقيقة متعمقاً في الاطلاع على الفلك والرياضيات وقد اشتهر عنه تقيده الصارم بآداب السلوك وسرعة استجابته شعرياً للأحداث الاجتماعية الهامة. وكان شاعراً يجمع في نفسه سمات الداعية، والمفكر، ومجسد الإحساس بالرائع.

وقد انتشرت بين الناس أساطير تتحدث عن الكيفية التي كان يستخدم بها أحياناً موهبته الشعرية. فقد انبرى مرة للدفاع عن فلاح مظلوم، مهدداً بأنه سيؤلف أغنية بهذه المناسبة مما أجبر الأمير الغني على أن يعيد للفلاح حقه كاملاً. وفي مرة أخرى عندما برزت أمام أهالي قريته مشكلة النزوح إلى الإمبراطورية التركية سافر بنفسه إلى تركيا، وشاهد كيف يعيش الشركس هناك وعاد ليروي الحقيقة لأبناء قريته في أشعاره، وأقنعهم بعدم ترك موطنهم أياً كانت الظروف ومهما تعاظمت الأخطار التي تهددهم. وقد استقبل الشاعر الثورة في روسيا بالتهليل وربط بها عملية انبعاث شعبه من جديد.

ومن السمات المميزة لإبداع باتشيف جمعه في شعره بين الأمور الراهنة الملحة والتأملات العميقة. فهو يتحدث في شعره بدرجة متساوية من العاطفة والإخلاص عن مأساة جاره الفلاح وعن قدرة الخالق الذي أبدع عالمنا المتنوع. ويبدي القدر نفسه من الإهتمام بمصير المجتمع بأسره في أوقات الانعطاف الحاسم في حياة شعبه، وبمعاناة فلاحة عجوز طاعنة في السن. وهومرهف الإحساس إزاء كل كائن حي، وإزاء الطبيعة.

وقد أصبحت تربة الشعر الكاباردي التي مهدها إبداع آغنوكو وباتشيف ملائمة لظاهرة جديدة نوعياً هي ترسيخ التقاليد الأدبية الكتابية الصحيحة. وكان الشخص ذو الأهمية الكبرى على هذا الصعيد هو علي شوغينتسوكوف.

---

[2] - النهر والجبل بالروسية (التي تمت الترجمة منها): اسمان مؤنثان (المترجم).

كان المصير الذي لاقاه هذا الشخص مأساوياً. ولكنه كان في الوقت نفسه سعيداً. وقد قُدر له أن يكون المبادر إلى إرساء أسس الأشكال الكتابية الكلاسيكية في الشعر الكاباردي فأصبح بذلك مؤسس الأدب الوطني المعاصر. وقد أتاحت له معرفته الجيدة بالفنون الشعرية الشرقية والأوربية (كان قد درس في أستنبول، وتعلم العربية والتركية والفرنسية) واتقانه الرائع لأساليب الإبداع الشعري بلغته الأم استطاع أن يجمع بين الفن الشعري الأديغي والفن الشعري العالمي الكلاسيكي. وتجلت موهبته الشعرية بأبهى مظاهرها في أعماله الغنائية- الملحمية الكبرى: إذ أبدعت ريشته عدداً من القصائد، ورواية شعرية، ومسرحية شعرية لم تكتمل. وقد قضى حياته القصيرة كلها مراقباً من قبل أجهزة القمع المطلقة السيطرة لدى السلطات البلشفية: فكونه قد درس في معهد ديني، ثم تابع دراسته في استنبول شكل مبرراً كافياً لإدراج اسم أفضل شعراء كاباردا في قائمة الأشخاص المشبوهين سياسياً. كما أن علياً كان بطبيعته إنساناً صريحاً لا يطيق الصبر على الظلم ولذا لم يكن على وفاق مع السلطة، مما كان يعطي المبررات لتأكيد رأي الذين يعتبرونه شخصاً لا يضمر الولاء للبلاشفة، ونتيجة لذلك أُرسل الشاعر في عام 1941 إلى جبهة القتال في الحرب التي كانت قد بدأت لتوها ضمن مجموعة من الأشخاص الذين كانت أجهزة السلطة تسميهم، بعبارة لطيفة، (غير مأمونين). وقد طُوِّق القطار الذي كان ينقلهم، ووقعوا في الأسر، حتى قبل أن يتمكنوا من الامساك بأسلحتهم. ولكن هنا بالذات تجلت وطنية الشاعر الحقيقية وعزيمته الصامدة بكل أبعادهما. فقد عرف الفاشست أن لديهم في الأسر شخصاً ذا موهبة فذة، وقرروا استمالته إلى جانبهم. فعرضوا عليه مغريات كثيرة لقاء أن يخدمهم بموهبته. ولكن عروضهم كلها لم تسفر عن شيء: فقد رفض علي رفضاً قاطعاً التعاون مع أولئك الذين يجلبون إلى أرضه الموت والدمار. وعندما رأى الفاشست أنهم لن يحصلوا منه على شيء باللين والترغيب عمدوا إلى ضربه وتجويعه وتعذيبه بمختلف الوسائل والأساليب. وأخيراً، عندما عجزوا عن الحصول من الشاعر الذي لم تهن عزيمته على أي شيء ألقوا به عارياً في زنزانة حجرية باردة حيث لقي حتفه.

لقد انعكست الظروف السياسية التي كانت قائمة آنذاك وأوضاع الشاعر نفسه في إبداعه، بحيث أنه وجد نفسه ملزماً خلال حقبة العشرينيات- الثلاثينيات بأن يكتب كثيراً عن الموضوعات اليومية التي لا علاقة لها بالأدب الرفيع. فالشعر الغنائي (الوجداني) الحقيقي لم يكن محبذاً من قبل القادة البلاشفة في العقود الأولى من قيام السلطة السوفييتية، وكان هؤلاء القادة يطالبون بالاقتصار على كتابة أعمال تتغنى بالتغييرات التي يحققونها، ولكن الشاعر الكبير لم يكن بمقدوره أن يرضى بهذا الدور التابع، وقد أبدع قلمه عدداً غير قليل من روائع الأدب الفني الوطني الرفيع.

وكان هذا الشاعر هو أول من أدخل القافية إلى الشعر الكاباردي وثبت أوزان الأبحر الشعرية الكلاسيكية ووسع المنظومة الصورية التعبيرية وأغناها. ومن أكبر الإنجازات التي حققها علي في تطوير الشعر الأدبي إبداعاته التجديدية في مجال التنظيم الصوتي الشديد الثراء.

ومما يدعو للأسف أن هذا الجانب بالذات في فن الشعر يصعب وصفه بلغة أخرى، ولكن مع ذلك لنحاول أن نثبت صحة ما ذهبنا إليه وذلك بتحليلنا بعض الأبيات الشعرية التي يستهل بها الشاعر قصيدته (ابتعد عن العتبة) التي يتحدث فيها عن مصير أرملة فقيرة.(3)

---

3 - يورد الكاتب بعد ذلك أربعة أبيات باللغة الكاباردية- الشركسية مكتوبة بحروف مستمدة من الأبجدية الروسية، ثم يتحدث للقارىء العربي عن بعض خصائص لفظ الحروف باللغة الكاباردية- الشركسية والتناغم فيما بينها وكيف يعبر الشاعر بموسيقى اللفظ وجرس الحروف عن المعاني

ولنترجم الآن البيتين الأولين ترجمة حرفية:

**الطقس مكفهر، الريح النفاذة**

**تحمل الثلج أمواجاً.**

إن جرس هذين البيتين في لغتهما الأصلية يبلغ درجة عالية من القوة التعبيرية تجعل المستمع يخمن معناهما دون ترجمة. في حين أن السبك اللفظي في البيتين التاليين لا يحتوي على ما يذكر بالموضوع سوى في كلمة واحدة. وهذا يدل على رهافة ذوق الشاعر ولباقته حيال القارىء: فلو كان هذا البيتان مليئين بالأصوات المؤثرة كسابقيهما لأحس القارىء بأن الشعر قد أصيب بالتخمة. لذا فإن الشاعر بعد أن أحدث الأثر المطلوب بالقدر الكافي انصرف إلى إنشاء صورة بصرية:

**دون أن تترك وهدة ولا سهلاً-**

**كل شيء لفتة بكفن أبيض.**

العالم الملفوف بكفن أبيض: هو عالم ميت، عالم مليء بالآلام والأحزان! إن النص لا يأتي على ذكر البرد والوحدة والانتظار القلق والموت، ولكن القارىء يتصور كل هذا عندما يقرأ الأبيات.

واستكمالاً للتوصيف نشير إلى أن التنظيم الصوتي في كامل المقطع الشعري يتسم بخاصية أخرى لا تقل أهمية عما ذكرناه. فعند قراءة الأبيات بصوت عالٍ نكتشف فيها جرساً جميلاً مدهشاً متأتياً عن تجاور الكلمات: فكل كلمة تقريباً ما إن ينتهي التلفظ بها حتى تكون قد أعدت جهاز النطق للفظ الكلمة التي تليها، ويتحقق هذا بفضل التجانسات الصوتية والحركية الغنية.

لقد ارتقى الأدب الفتي الذي صلب عوده بفضل إبداع عليّ إلى مستوى عالٍ من الصنعة الفنية الخلاقة، وتجاوز المرحلة التي ينظر فيها إلى الأدب، باعتباره ظاهرة اجتماعية، على أنه مجرد أداة تستخدمها فئات معينة للتعبير عن إيديولوجيتها، واكتسب قيمته الخاصة القائمة بذاتها باعتباره ظاهرة جمالية.

ويمكن أن نذكر من بين الأسماء ورثة علي شوغينتسوكوف الروحيين صاحبيه وتلميذيه الأصغر منه سناً عليم كيشوكوف (1914) وبيتال كواشيف الذي غادر عالمنا مبكراً (1920-1957).

وكلاهما درسا في نالتشيك خلال العشرينيات- الثلاثينيات ثم أكملا دراستهما في موسكو، وكلاهما أظهر موهبة شعرية في وقت مبكر، وشاركا في الحرب الوطنية العظمى ضد الفاشست وأبديا شجاعة فائقة.

---

التي تتضمنها الكلمات. كما أن البحر الذي اختاره الشاعر يساعد على قوة التعبير عن المعنى، فالإيقاع الناتج عن تواتر الحروف المجهورة والمهموسة والساكنة والمنبورة ضمن نظام معين يخلق في ذهن المستمع ونفسه صورة وانطباعاً يتطابقان مع المضمون المعبر عنه. ومن المتعذر بالطبع ترجمة كل ذلك بدقة إلى العربية للاختلاف بين الأبجديتين والأوزان الشعرية في اللغتين (المترجم)

بيد أن مصير بيتال كواشيف كان أكثر تعقيداً ودرامية من مصير رفيقه. فأبوه كان قبل الثورة يمتلك متجراً غير كبير، ولذا صنفه البلاشفة ضمن قائمة الطفيليين الذين يعيشون على حساب الشعب الكادح. وبالنسبة إلى ابن شخص كهذا كان يُغلق الكثير من الأبواب التي تفضي إلى دروب النجاح، وكانت السلطات تنظر إلى بيتال نظرة ارتياب باعتباره ابن أحد أعداء الشعب. إلاّ أن الشجاعة الفائقة التي أبداها الشاعر في جبهات القتال ضد الفاشست أزالت الشبهة عنه ووفرت له الشعور بالطمأنينة. بيد أن هذا الإنسان ذا الموهبة المدهشة لم يستطع حتى آخر أيام حياته أن يتخلص من الهاجس الذي كان يصور له أن من الضروري البرهنة باستمرار على ولائه للسلطة السوفييتية. وكان في هذا يشبه إلى حد ما علياً الخالد الذكر. فقد كتب حول موضوعات عابرة ليس لها قيمة من وجهة نظر الفن الشعري الرفيع، ولا أهمية لها سوى من وجهة النظر السياسية. ولكن مع ذلك فإن أمثال هذه الأعمال عندما تبدعها قريحة إنسان موهوب لابد لها من أن تتسم بأهمية فنية مستقلة ما. وقد أبدع الشاعر إلى جانب ذلك عدداً غير قليل من الأشعار الغنائية حقاً– عن الحب، وعن جوهر الوجود، وعن الوطن والطبيعة.

وتلفت النظر في هذا الصدد قصيدة برنامجية في إبداع الشاعر هي قصيدة (الوردة) التي كتبها، كما اعترف هونفسه، متأثراً بالشعر الشرقي. فصورة الزهرة الرائعة التي تنجح في حماية نفسها بأشواكها الحادة تثير التداعي مع الشاعر نفسه، ومع موهبته الشعرية التي تتسم بالروعة كالوردة نفسها والمدعوة لتزين العالم وتجميله. بيد أن بيتال نفسه لم يكن يملك أية شوكة، بل كان مكشوفاً أمام الضربات، وليس ثمة ما يحميه. وربما في هذا بالذات تكمن خصوصيته، فهو لم يكن قادراً على حماية نفسه من أحد، وكان يمنح موهبته بكليتها لجميع الناس، وقد قضى نحبه باكراً قبل أن يتمكن من فعل كثير مما كان قادراً على فعله.

أما عليم كيشوكوف فقد كان يمثل في الثقافة الكاباردية، وعلى نطاق واسع في الثقافة الشركسية والقفقاسية بمجملها، ظاهرة عظيمة الأهمية، وقد صدر أول ديوان شعري له بعد الحرب في عام 1946. وفي تلك الآونة كان شعب البلاد الشاسعة بأسره يعيش الانطباعات التي أثارتها لديه نتائج الحرب العالمية الثانية، تلك الحرب التي تكبد فيها الإتحاد السوفييتي بالذات أكبر الخسائر، ولكن في الوقت نفسه كان له الفضل الأكبر في هزيمة الفاشية. وقد شارك الشاعر في الحرب منذ أيامها الأولى تقريباً. وكان كل ما هومرتبط بالنصر قريباً إلى قلبه وعزيزاًعلى نفسه.

ومن مزايا شعر كيشوكوف وشعراء جيله أنهم أخذوا يبتعدون في إبداعاتهم شيئاً فشيئاً عن التصوير التأملي للواقع، ويوجدون وسائل تصويرية جديدة قادرة على التعبير عن أعماق العالم الداخلي للإنسان بكل تنوعه وغناه. فقد كان فن الشعر التقليدي من قبل يقوم على مثل عليا تتجسد في الغنائية الفروسية التي تتوجه بشكل سافر نحو تقويم الشخصية الإنسانية اجتماعياً. وقد بدأت مخالفة هذه القواعد فن الشعر منذ عهد آغنوكو وباتشيف، ولكن لم يتضح خط التوجه نحوفن الشعر الغنائي المعاصر ويترسخ نهائياً إلاّ في أفضل القصائد التي أبدعتها ريشة كيشوكوف وكواشيف. ومن المثير للإهتمام أن الرؤيا الفنية لدى الشاعر تصوِّر على نحو جديد حتى الموضوعات التقليدية: كحديث أحد المقاتلين إلى زميله قبيل المعركة:

**حتى وإن لم أصل إلى القمة**
**فسأشق جزءاً من الطريق أمام الآخرين**
**وربما جرحني العدو.. أو قتلني**
**ولكن عليكم أن تتابعوا السير إلى الأمام**

**ستبكيني أمي وهي غارقة في بحر الحزن**
**ولكن ليكن ذلك فدية تحول دون بكاء سائر الأمهات**
**غداً سنذهب لنخوض معركة طاحنة**
**ولن يكون في انتظارنا سوى أحد اثنين:**
**فإما أن نستشهد أو نحرز النصر!**
**أما الآن فهيا أيها الصديق ندخن**

هذه النهاية النثرية المفاجئة التي لا تتناسب البتة مع الروح العامة في القصيدة تظهر بكل وضوح إلى أي حد أصبح الموت وفقدان الأحبة والتفاصيل المعيشية اليومية في حياة المقاتل عادية جداً في وعي الجندي. وهذا لا يحدث إلا في ظروف حرب مضنية طويلة الأمد.

وقد تفتحت موهبة كيشوكوف بكامل أبعادها في حقبة الستينيات- السبعينيات وأبدعت ريشته بضع عشرات من المجموعات الشعرية التي حققت نقلة جديدة هامة في أدب شعبنا، وذاعت شهرة الشاعر وأصبحت قصائده تترجم إلى العديد من لغات العالم.

كما تجلت موهبته النادرة في أعماله النثرية. ففي نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات بدأ بنشر فصول من روايته الأولى (الهلال الأخضر) التي يصور فيها أحداث بداية القرن العشرين في كاباردا.

وكان النثر الكاباردي في ذاك الوقت قد أحرز قسطاً لا يستهان به من النجاح.

ففي الثلاثينيات كان جانسوخ نالويف قد نشر قصته الرائعة (البداية) وكان هاتشيم تيونوف قد أصدر مجموعة أقاصيصه القصيرة. ثم ظهرت إلى النور فيما بعد قصة آدم شوغينتسوكوف الغنائية الرائعة (ربيع سفيّات)، والكتب الأولى من رباعية اسكيربي شورتانوف الروائية (سكان الجبال) أي يمكننا الإشارة هنا إلى أن الفن في الإتحاد السوفييتي ككل كان في حقبة الأربعينيات- الخمسينيات واقعاً تحت تأثير (نظرية اللاصراع) التي تطالب المبدعين بتصوير شخصيات فنية ذات بعد واحد دون الغوص عميقاً في معايشات الأبطال النفسية المعقدة. وحتى في أعمال الكتّاب الروس الذين خلفوا عمالقة كباراً من أمثال ليف تولستوي وفيودور دوستويفسكي أصبح الأبطال مجرد صور مخططة تقوم بأفعال غير معللة بدوافع نفسية عميقة، فما بالك بآداب الشعوب الصغيرة التي لم يكن لديها مثل ذاك الإرث الأدبي الغني؟! وكانت هذه الظاهرة مرتبطة من حيث الأساس بالزعم القائل إن المهمة الرئيسة في الأدب والفن هي المساعدة على بناء الحياة الجديدة، ومعنى ذلك أن الشخوص الذين يقومون ببناء هذه الحياة يجب أن يكونوا إيجابيين في كل شيء، وبالتالي فإن خصومهم يجب أن يكونوا سلبيين في كل شيء. ونحن الآن عندما ننظر إلى هذه الموضوعة من قمة تصوراتنا المعاصرة يسهل علينا أن ندرك مدى عبثيتها. ولكن في الخمسينيات كانت مخالفة مبادىء الإبداع التي ترسخت أركانها وتمَّ الاعتراف بها رسمياً تتطلب موهبة كبيرة وشجاعة ليست أقل منها. وكان عليم كيشوكوف أحد أوائل الذين بدؤوا بمخالفة هذه المبادىء. فبطلا الرواية المركزيان: البلشفي اينال واللاحزبي كازغيري كلاهما شخص غير عادي ويحوز قدرات كبيرة. ولكن لكل منهما مناقبه ومثالبه التي كانت تزداد وضوحاً كلما ازداد وضعهما الاجتماعي ارتفاعاً. وكان يخيل إلى اينال أنه اهتدى

إلى الطريق الصحيح الوحيد، ويعمل على تسجيد مبادئه في الحياة غير آبه بآراء الآخرين في الأساليب التي يتبعها. إنه يعجّل في تنفيذ ما يريد تنفيذه، ولا يطيق أية مناقشات أو عدم فهم من قبل الآخرين. وينظر اينال إلى كل من يساوره الشك في صحة ما يفعله على أنه إما من فئة اللامباليين أو هوخصم محتمل، ويمكن أن يوصم فيما بعد بالصفة السيئة الذكر "عدو الشعب" وكان مصير الأشخاص الذي يوصمون بهذه التهمة إما الزج في السجن أو التصفية الجسدية.

لم يسبق لأحد في الأدب السوفييتي قبل كيشوكوف أن صوّر البلشفي على هذا النحو، كما لم يسبق أن صُوّرت في الأدب شخصية خصم الخط البلشفي كما صُورت شخصية كازغيري، الإنسان المثقف والشريف والمستقيم دائماً أمام نفسه وأمام الآخرين. إنه كإينال يتحرق رغبة في تغيير المجتمع وتطويره نحو الأحسن، ويناضل إلى جانب إينال في سبيل المثل العليا للثورة. ولكنه يستهجن أساليب العنف التي يحاول البلشفي إينال تطبيقها لإسعاد الجميع دفعة واحدة.

وقد ظل كيشوكوف مخلصاً لأسلوبه هذا في الإبداع في جميع رواياته التي كتبها بعد ذلك. إن الجديد في المجتمع إما أن يستقبله الناس بالإعجاب الشديد أو أنهم لا يفهمونه على الفور. وقد تقبل القراء (الهلال الأخضر) ولكن دون إبداء قدر كبير من الإعجاب. وعندما نشر الكاتب روايته التالية (الحدوة المكسورة) التي تتحدث عن حقبة الحرب خلال الأعوام 1941–1945 أخذت القيادة الحزبية العليا تضطهد الكاتب دون هوادة، وكأنها قررت أن (تصحح) الغلطة التي ارتكبتها عند صدور روايته الأولى:إذ أنهم لم يقرروا آنذاك مباشرة كيف يتصرفون بشكل صحيح إزاءه أما الآن فقد حاولوا أن يجازوه على كل ما سبق. إن القيادة التي اعتادت أن من المتعارف عليه تصوير كبار القادة كأشخاص مثاليين لم تستطع أن تقبل بحال من الأحوال إقدام الكاتب على تصوير جميع الناس بكل ما يتسمون به من صفات دون أن يقتصر في أثناء ذلك على تصوير مزاياهم فحسب بل يصور أيضاً نقاط ضعفهم البشرية العادية. بيد أن الرواية حظيت بنجاح كبير في أوساط القراء وأصبحت ظاهرة هامة لا في الأدب الكاباردي والشركسي فحسب، بل في الأدب السوفييتي كله.

وكانت روايات كيشوكوف وأشعاره تشهد أن أدب شعب غير كبير كان منذ نحو مئة سنة لا أكثر يستعمل أبجدية لغة أخرى قد انطلق الآن إلى رحاب حياة مستقلة، وأصبح قادراً على أن يدهش العالم بأعمال تتسم بحِرْفية فنية عالية.

وظهر إلى جانب كيشوكوف وبعده شعراء وكتاب أكدوا بإبداعاتهم ما قلناه آنفاً. فقد بزغ في سماء النثر نجم الأديب أحمد خان نالويف كاتب الرواية الرائعة (فرسان الفجر) والعديد من الأقاصيص، والأديب زاؤور نالويف كاتب القصص الغنائية المرهفة، والأديب محمد كارموكوف الروائي والقصاص وكوكبة أخرى من الكتاب الموهوبين الأصغر سناً.

ويحرز الأدب المسرحي في بلادنا نجاحات مرموقة. ويمكن أن نذكر في هذا المجال أسماء الكتّاب: اسكيربي شورتانوف (سبق أن تحدثنا عنه كروائي)، وظليم خان اقصيروف، والكاتب الأصغر سناً الذي أصبح في أيامنا الرائد الأول في مجال الكتابة الدرامية: بوريس أوتيجيف. وقد عُرضت مسرحيات هؤلاء الكتاب بنجاح لا في مسارح نالتشيك، ومايكوب، وتشيركيسك الأديغية فحسب، بل على خشبات مسارح روسيا أيضاً.

وقد سطعت في سماء الشعر منذ بداية الستينيات أنوار كوكبة كاملة من الشعراء الشباب الموهوبين تميز من بينهم بصورة خاصة النابغة الذي استحوذ على إعجاب الجميع زبير تخاغازيتوف، وكذلك ليوان غوبجوكوف، وبيوتر كاجاروف، وبوريس كاغيرمازوف. وبعد ذلك بمدة

قصيرة دخل عالم الأدب الكاتب ذو الموهبة الفذة هيباس بيشتوكوف، وأناتولي بيتسويف، وأفليك أورازايف، وحسن تهازبلوف وكثيرون سواهم.

وقد تميز هؤلاء بالجمع الرائع بين الثقافة الواسعة المتنوعة والخصوصية الشركسية القومية. وبفضل ذلك اتسعت إلى حد بعيد إمكانات الأدب الإبداعي الكاباردي، وانطلق الشعر عندنا إلى رحاب الثقافة العالمية الواسعة لا على صهوة أشعار الأديب الألمعي عليم كيشوكوف وحده، بل أيضاً بفضل أعمال مجموعة كاملة من أبناء الشعب الموهوبين الذين اطلعوا على الأدب العالمي عن كثب وشاركوا بفعالية في حياة المجتمع الإنساني الإبداعية، وظلوا في الوقت نفسه يحافظون على أفضل تقاليد الشعر الأديغي (الشركسي ) ويطورونها باستمرار.

وهنا لابد من الإشادة بشكل خاص إلى هيباس بيشتوكوف الذي نذر نفسه بنكران ذات لخدمة أدب بلاده، ويمكن القول إنه المجلي في هذا المضمار وسط أقرانه من شعراء جيله؛ وهو يجمع بين غنى الثقافة وسعة الاطلاع والحس الشعري المرهف والنزعة الفلسفية والغنائية الحميمة. وأياً كان الموضوع الذي يكتب عنه: الطبيعة، أو الحب، أو الوطن، أو خلجات النفس الإنسانية، فإنه دائماً مجدد، ومبتكر ومثير للاهتمام. وتتناول أشعاره بحرارة وقلق كل ما يمكن أن يلامس نفس الإنسان في هذا العالم المتنوع المعقد. فهي تتحدث عن موضوعات أبدية كالحب، وعن علاقة الشاعر بالمجتمع والطبيعة، وتتضمن تأملات فلسفية عميقة، وتعبر عن أدق خلجات النفس الإنسانية الحساسة التي تعاني من قسوة العالم أو تستمتع بجمال زهرة صغيرة. وقد ظهر في السنوات الأخيرة عدد غير قليل من الشعراء والكتاب الشباب ذوي الموهبة الأصيلة، القادرين على الارتقاء بالأدب الوطني إلى قمم جديدة، ومنهم: أناتولي موكوجيف الذي يكتب بأسلوب تقليدي واضح، ونيلي لوكوجيف التي يتسم أسلوبها ببعض الغرابة وتفضل في كتاباتها البنى الحداثوية، وكل من لوبوف بالاغوفا وزارينا كانوكوفا، وبيلا أبروكوفا اللواتي يمتاز أسلوبهن بالغنائية الأنثوية، ولابد من أن نذكر هنا أيضاً الشاب اليافع لا تمير بشوكوف الذي يميل إلى التأمل والتفكير العميق على نحو لا يتفق البتة مع طبيعة الفتيان الحديثي السن.

ومن البديهي أن يتعذر الحديث في مقالة قصيرة واحدة عن جميع الخصائص التي تميز تطور وتنوع الأساليب الفنية والشخصيات المبدعة في الأدب الوطني خلال تاريخه الذي يمتد نحو قرن من الزمان. وقد أغفلنا ذكر كثير من الأسماء التي يستحق أصحابها التحدث عنهم حديثاً مستفيضاً، كما أننا لم نذكر العديد من الأنواع الأدبية والمناهج الإبداعية لدى مختلف الأدباء. ولو أردنا أن نحيط بمزايا كل مايستحق الذكر إحاطة شبه كاملة لما كفتنا صفحات المجلة الكاملة. ونأمل أن تستدرك الأعمال الإبداعية المقدمة هنا بعض ما فاتنا ذكره في هذا الحديث الموجز عن أدب كاباردا وكتّابها.

وإذا أردنا أن نوجز حصيلة ما تحدثنا عنه أمكننا القول إنه خلال هذه الحقبة التي حاولنا إلقاء الضوء عليها، أي منذ بداية القرن الحالي وحتى أيامنا هذه، تشكل الأدب الكاباردي المعاصر عملياً بكل تنوع ضروبه وأصنافه. وأن الفولكلور الغني المتمثل بالقصص القديمة حول النارتيين الجبابرة القدماء وبسير الأبطال الذين عاشوا في عصر متأخر، وبالتمنيات الطيبة والأمثال والأقوال

المأثورة وبالحكايات الشعبية والأغاني البطولية والغنائية والشعائرية وبأصناف أخرى كثيرة كان أحد مصادر هذا الأدب. كما أن ثمة عاملاً آخر لا يثير الدور الذي قام به أي جدل في هذا الصدد، وهو التقاليد الكتابية الأدبية في اللغات الأخرى، ومنها تقاليد الأدب الغربي المغرقة في العراقة والشديدة الغنى. ومن المناسب أن نتذكر هنا إن الكتابة الشركسية كانت خلال العقود الأولى من قرننا هذا لاتزال تعتمد الأبجدية العربية، وإن بعض الكتاب المحليين كتبوا مؤلفاتهم باللغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم.

إن المهمة الأسياسية لأي أدب قومي هي أن يلبي الحاجات الجمالية لدى شعبه. وقد انطلق الأدب الكاباردي من هذه الموضوعة بالذات، ثم أخذ مع الزمن يوسع نطاق قرائه، وذلك لأن الروايات والقصص والأشعار والقصائد التي أبدعها أدباؤنا للتعبير عن مشكلاتنا الوطنية المحلية وعن خواص التفكير الفني الوطني أخذت تكتسب قيمة إنسانية عامة لا شك فيها. وقد أنجب الشعب الكاباردي عدداً غير قليل من مشاهير العلماء والرسامين والموسيقيين والقادة الاجتماعيين والسياسيين الذين تجاوزت أسماؤهم حدود القفقاس واشتهروا على نطاق واسع. ولا يسعنا إلا أن نذكر في هذا المجال فرقة الرقص الشعبي (كاباردينكا ) المشهورة في العالم بأسره، وقائد الأوركسترا الفذ الذي طبقت شهرته الآفاق في عصرنا هذا وهو المايسترو يوري تيميركانوف– وصاحب الاكتشافات التي أثارت ضجة كبيرة في مجال الفيزياء البروفيسور مورادين كوماخوف.

وربما كان من غير الكافي من أجل إحراز مثل هذه النجاحات في الأدب مجرد بذل مزيد من الجهود وتوافر مزيد من المواهب، بل يتطلب الأمر الاستناد إلى تقاليد فنية كتابية عريقة، كتلك التي يمتلكها الأدب العربي. إننا دون شك نفخر عن جدارة بالموهبة الفذة لأدباء من أمثال لياشا آغنوكو وبيكمورزا باتشيف وعليم كيشوكوف. وتمتلىء قلوبنا ببهجة لا حدود لها ونحن نشهد النجاحات التي يحرزها شعراؤنا وكتابنا المعاصرون. ولكننا إذ نتجرأ على أن نعرض على القارىء العربي الكريم إبداعات أدبائنا ندرك مدى المسافة التي يمكن أن تفصل بين من بدأ طريقه منذ آلاف السنين واستمر في مسيرته إلى أيامنا هذه دون انقطاع ومن لم يبدأ يرسخ مواقعه على مشارف قمم الفن الكلامي المكتوب سوى من مئة سنة فقط. ونعتمد هنا على حقيقة تاريخية هي أن بعض المنحدرين من وسطنا الشركسي كانوا يحوزون على اعتراف واسع النطاق بمواهبهم في الأدب العربي نفسه، ويمكن أن تشهد على ذلك إبداعات الشاعر الفذ محمود سامي البارودي. وهذا المثال له ما يشبهه في الأدب التركي أيضاً، ويمكن أن نعثر على أمثلة أخرى مشابهة في آداب الشعوب الأخرى. وقد كتب أحد رحالة العصور الوسطى في يومياته عندما كان يزور منطقتنا أن الشركس شعب موهوب، إلا أن أفضل صفاتهم لا تتجلى في وطنهم، بل في الغربة. ويبدو أن من الممكن الاعتقاد بصحة هذا الرأي إذا ما استعرضنا الحالات التي برز فيها أبناء وطننا في مختلف البلدان وأظهروا فيها ما يتسمون به من مواهب وسجايا حميدة: سواء أكان ذلك في روسيا، أم في مصر وتونس، أم في تركيا وأوربا الغربية. ولكن أياً كان المكان الذي تتفجر فيه الموهبة فإن أصولها تعود إلى وطن الأجداد، إلى القفقاس. ونحن إذ نقدم اليوم بعض نماذج من أدبنا الوطني الأصيل لا نأمل فقط بأن تنال هذه النماذج رضا القارىء العربي. فنحن نعرف، بالطبع، مدى رهافة الذوق الجمالي لديه. إننا نأمل أيضاً بتفهمه وتجاوبه، ولا سيما وأن شعبينا: الشعب الشركسي والشعب العربي يعرف أحدهما الآخر منذ قرون عديدة، ويضمر كل منهما للآخر مشاعر الود المتبادل تقليدياً. إن سورية وعاصمتها دمشق (الشام ) كانتا دائماً في نظر أجدادنا مصدراً للثقافة العالية. وقد اشتهر المحاربون الشركس بمآثرهم في مصر وسورية منذ القرون الوسطى.. ودافعوا إبان الحروب الصليبية وفي أثناء غزوات

التتار والمغول وفي العصور التي تلت ذلك عن الأرض العربية وكأنها وطنهم الأم، وعندما شُرِّد الشركس من وطنهم الأم منذ مئة وخمسين عاماً وقدموا إلى الشام وحلب وحمص والجولان إنما كانوا يسيرون على الطريق التي كان أجدادهم الأوائل قد مهدوها، وكانوا يعرفون أنهم يسيرون إلى ديار إخوانهم بالروح والعقيدة.

ونحن نعبر عن شكرنا لشعب سورية المباركة الذي لم يخيب آمال المهاجرين الشركس وتوقعاتهم. كما أننا نفخر بالمزايا الإنسانية السامية التي يتسم بها هذا الشعب ونعتز بالقدر نفسه بأن الشراكس السوريين كانوا جديرين بمجد أجدادهم عندما تصدوا في الحرب الجديدة إلى الذود عن مصالح الدولة العربية وأثبتوا ولاءهم لرئيسها الحالي الذي يتحلى برهافة الحس والحكمة مما يعتبر ضماناً للنجاحات التي تحرزها سورية.

❑❑❑

# لمحة عن كتّاب قباردا

إعداد: أدم غوت

■ ترجمة: غسان نوح شورهي- هشام ماشفج ■

***- شوغينتسول علي بن أسعد:***

ولد في عام 1900 في قرية كوتشمز قوي، درس في المدرسة الريفية، وتابع دراسته في داغستان والقرم وتركية، ألف كثيراً من الروايات الشعرية والقصائد والقصص القصيرة، التي تؤلف أساس الأدب الشركسي الكلاسيكي، قُتل تحت التعذيب عام 1941 في أحد معسكرات الاعتقال النازية.

***- يلبد حسن:***

ولد عام 1886 في قرية (تجيّ) وتوفي في 15 أيلول 1967، درس الأدب والمنطق والفقه الإسلامي واللغة والتاريخ عند 34 مولى (شيخ) ثم درس اللغه والأدب والتاريخ الشركسي منذ عام 1913 وحتى 1918 في مدرسة كوشمزتوي وحرر في أول جريدة قبردينية بالأحرف العربية، وساهم في تأليف الكتب المدرسية وفي 1931 أصبح مسؤولاً عن تعليم اللغة في منطقة القبردي وفي عام 1944 أصبح رئيس قسم اللغة الشركسية في معهد الأبحاث في مدينة نالتشك، ثم رئيساً لمعهد الأبحاث أصدر 74 مؤلفاً في اللغة والأدب.

***- كوشوقوه عليم:***

ولد عام 1914 في قرية (شحلوقوه)، شخصية أدبية واجتماعية وسياسية مرموقة في قباردا والإتحاد السوفياتي، شاعر وروائي، فارس من فرسان الحرب العالمية الثانية، عمل مدة طويلة رئيساً لإتحاد كتاب جمهورية روسيا الاتحادية، وسكرتيراً لإتحاد كتاب الإتحاد السوفياتي، وعضواً في منظمة التضامن الآسيوي الافريقي، وعضواً في مجلس السوفييت الأعلى، حصل على العديد من الجوائز الأدبية في بلاده، وفي البلدان الأخرى، لقب شاعر الصداقة بين الشعوب، زار سورية مرتين وترجمت له ثلاثة روايات إلى العربية، آخر رواياته (الجذور) احتفلت جمهورية قبردينا– بلقاريا عام 1994 بذكرى ميلاده الثمانين.

***- قردن غوشأه زراموك:***

ولد في عام 1918 في قرية بسه غوانسو

تخرج من معهد لونا تشارسكي للدراما في مدينة موسكو. باحث وكاتب وممثل ومغني. ساهم بشكل أساسي في جمع ونشر الأغاني والألحان القبردينية في 4 مجلدات، كما ساهم أيضاً في جمع ونشر التراث الثقافي الشركسي ( أساطير النارت ) من أشهر مؤلفاته: الصديق الوفي (رواية عن الجواد) فارس الدب والبطل الشعبي أنديمرقان. يعمل في معهد الأبحاث القبرديني للأدب.

**- شورتن عسكربي:**

باحث وكاتب. من جيل الرواد. ساهم بشكل أساسي في جمع ونشر التراث الثقافي الشركسي (أساطير النارت) الحكايات والأخبار. أشهر مؤلفاته الروائية (الجبليون ) في أربعة أجزاء.

**- شوغنتسوك آدم:**

ولد في عام 1917 في منطقة باخسان. شخصية أدبية واجتماعية وسياسية مرموقة في قباردا، لقب شاعر الشعب القبرديني، فارس من فرسان الحرب العالمية الثانية، من أشهر مؤلفاته الشعرية ديوان ( من القلب ) 1951 ( ديوان القلب الذي لا يرتاح ) 1958، ديوان الأفراح 1977، ديوان أشعار الطريق 1961، الكلمات البليغة، الشاب المحبوب، الأغاني التي لا تنتهي.

**- باشأه بتشموزا بن ماشة:**

ولد عام 1857 في قرية نارتان، لم يتبع دراسة منظمة وكتب بالأحرف (الألفباء) التي وضعها بنفسه بمساعدة الحروف العربية توفي عام 1938، شاعر شعبي .

**- قرموقوه محمد:**

ولد عام 1929، تخرج عام 1951 من معهد إعداد المدرسين القبرديني، كاتب وصحفي، من الشخصيات الثقافية المرموقة في قبردينا– بلقاريا، عمل في صحف الجمهورية، رئيس تحرير البث باللغة القبردينية في راديو الجمهورية.

**- تحفزيت زبير بن محمد**

ولد عام 1934 في قرية تيريكسويه، تخرج عام 1958 من كلية التاريخ والآداب التابعة لجامعة نالتشك، شاعر، وصحفي حاز على عدة جوائز أدبية، شاعر قبردينا الشعبي، عمل في جرائد الجمهورية وفي دار نشر الكتب (ايلبروز) وكان رئيساً لتحرير مجلة ( أواشحه ماهو ) الأدبية وكان رئيساً لإتحاد كتاب جمهورية قبردينا– بلقاريا.

**- نالو زاور بن محمد**

ولد عام 1928 في قرية أنزوريه، تخرج عام 1952 من معهد إعداد المدرسين القبرديني، ودرّس الأدب في نفس المعهد وبدءاً من عام 1954 عمل في معهد التاريخ والآداب والاقتصاد التابع للمركز العلمي لأكاديمية العلوم الروسية في جمهورية قبردينا– بلقاريا– شاعر وكاتب وباحث أدبي وفولكلوري. شخصية أدبية واجتماعية مرموقة في جمهورية قبردينا.

**- أوطيج بوريس بن قونيّ**

ولد عام 1941 في قرية زارأ غيج، تخرج عام 1968 من كلية الآداب والتاريخ التابعة لجامعة نالتشك، حصل على شهادة الدكتوراه في عام 1973 من معهد اللغات التابع لأكاديمية العلوم الجيورجية في تبليسي عالم لغات، شاعر، مؤلف مسرحي، ناقد أدبي، رئيس تحرير مجلة أواشحه ماهوه ( الجبل المبارك ) الأدبية له مسرحية مترجمة للغة العربية ( ترغة تاوه)، ترجم مسرحيات

شكسبير إلى اللغة القبردينية.

***- بلقار فوسات بنت عزيز :***

ولدت عام 1932 في قرية كيشبيك، تخرجت عام 1950 من المعهد المتوسط لإعداد المدرسين، وفي عام 1969 تخرجت من معهد غوركي للأداب في موسكو، عملت في قسم الآداب لمعهد التاريخ والأدب والاقتصاد في مدينة نالتشك.الشاعرة الشعبية لجمهورية قبردينا- بلقاريا.

***- فجر بيتر بن عيد:***

ولد عام 1935، تخرج عام 1959 من كلية التاريخ والآداب التابعة لجامعة نالتشك، عمل في التدريس في المدارس، كاتب وصحفي، محرر في دار النشر، ورئيس تحرير مجلة نور.

***- قاغيرمس بوريس بن حبيب:***

ولد عام 1935 في ليسكين، تخرج عام 1959 من كلية الآداب والتاريخ التابعة لجامعة نالتشك، كاتب، شاعر، صحفي له العديد من المؤلفات. محرر في مجلة نور.

***- بيشتوقوه عباس بن قرنيّ:***

ولد عام 1943 في قرية قزبورن، تخرج عام 1968 من كلية الصحافة في جامعة موسكو، وحصل من نفس الجامعة قسم الآداب على شهادة الدكتوراه عام 1976، شاعر، صحفي، شخصية أدبية مرموقة، عمل في التلفزيون الحكومي، وجرائد الجمهورية، مدير المتحف الأدبي لجمهورية قباردينا- بلقاريا.

***- ورزيّ أفليك بن بشه ماهو :***

ولد في عام 1947 في قرية كوركوجين، تخرج عام 1978 من معهد غوركي للآداب في موسكو، صحفي وشاعر، عمل في جريدة ( أديغه ماق ) محرر في مجلة نور .

***- غوت آدم بن محمد:***

ولد عام 1944 في قرية أوشيكر، تخرج عام 1969 من كلية الآداب والتاريخ جامعة نالتشك، عام 1974 أنهى دراسة الدكتوراه في معهد الآداب العالمية التابعة لأكاديمية العلوم السوفيتية قسم الآداب أخصائي في الفن الشعبي رئيس قسم الفن الشعبي الشركسي لمعهد التاريخ والآداب والاقتصاد القبرديني.

***- دودار حه أوتيّ:***

ولد عام 1920 في قرية قولقوجين توفي عام 1994، كاتب وصحفي ومسرحي ومؤلف أغاني، انتسب إلى معهد كونسرفاتوار مدينة لينيغراد عام 1949، عمل في الصحافة والراديو ألف سبعة كتب وسبعة مسرحيات وترجم إلى اللغة القبردينية (5) كتب في الرواية والمسرح.

***- مزحه بوريس:***

ولد عام 1940 في قرية شحلوقوه، تخرج من جامعة نالتشك عام 1961 كاتب وصحفي أصدر ثمانية كتب في القصة والرواية، عمل منذ عام 1982 في صحيفة ( أوديغه بسّاله ) ثم أصبح مديراً لنفس الجريدة وهو رئيس إتحاد صحفي قباردا- بلقاريا وسكرتير في إتحاد الصحفيين في روسيا.

**- جلاتج صلاح الدين بن حمزه:**

ولد عام 1940 في قرية أرغودان، تخرج من جامعة نالتشك عام 1965 وفي عام 1972 أنهى الدراسة في معهد السينمائي في مدينة موسكو كلية السيناريو وعمل مديراً لقسم الوثائق السينمائية في مدينة تفليس وساهم في إخراج فيلمين ومنذ عام 1976 يعمل في إدارة التلفزيون في جمهورية قباردا- بلقاريا أصدر ثمانية كتب في الشعر والقصة.

**- تحزيل حسن:**

ولد عام 1943 في قرية دخشوقوي، درس في كلية الزراعة التابعة لجامعة نالتشك، شاعر أصدر العديد من الكتب، في 1994 أصبح رئيساً لإتحاد الكتاب في جمهورية قباردا بلقاريا.

**- مغأدز سربي:**

ولد عام 1932 في قرية دجرمنشك، باحث وكاتب له العديد من المؤلفات أهمها العادات والتقاليد الشركسية- العباءة السوداء- الضيف المبارك.

**- غويجوقوه ليوان بن محمد:**

ولد عام 1937 في قرية جمتاله، تخرج من كلية الآداب في جامعة نالتشك عام 1959 شاعر وصحفي وكاتب للأطفال عمل في الحقل الثقافي في الصحف والمجلات الأدبية توفي عام 1988.

**- قانقوه زارينا:**

ولدت عام 1969 في قرية دغولبغوي. أنهت الدراسة الجامعية قسم الآداب عام 1991 أديبة وصحفية. عملت في جريدة ( أديغه بسّاله ) وتعمل حالياً في المجلة الأدبية ( أواشحه ماهو ).

يقول الأديب الكبير أدم شوغنتسوك في حديثه عن الأدب والأدباء في جمهورية قباردا في العصر الحديث نشر في مجله ( أواشحه ما هو) الأدبية:

إن جيل الرواد، الذين سطع نجمهم سماء الأدب ليس في بلادنا فقط، ولكن في البلدان الأخرى يمكننا أن نذكر بكل فخر واعتزاز السادة ( شوغنتسوك علي- كشوقوه عليم- كواشه بيطال- تيوان حكيم- شورتن اسكربي ).

وبعد الحرب العالمية الثانية، ظهرت كوكبة من الأدباء، استفادت من تجربة جيل الرواد، وعمل كل منهم على أن يشق لنفسه طريقاً خاصاً به. ونجحوا في تثبيت أقدامهم في عالم الأدب مثل (أقرزالمخان- شوغنتسول نوري- بلقارفواسات- نالوزاور- نالو أحمد خان- حه خوباشه حج بكر - ماتش بيتر - تحفزيت زبير - غويجوقوه ليوان - يلفر كاشيف -قاغرس بوريس- قجر بيتر- كيشت معز- حه سفرتي. وتألقت في سماء أدبنا القبرديني مجموعة من الشعراء والكتاب البارزين الذين أبدعوا نماذج رائعة من الأدب تناولت موضوعات جديدة ومعاصرة شكلاً ومضموناً وهم ( بيتو أنا تولي- شدجه حشأه حمشه- مزجه بوريس- بيشترقوه عباس- قرموقوه محمد- أوطيبح بوريس-

تخريل حسن– جوت بيبرد– اتستان روسلان– قوفه حكيم– وزّري أفليك ).

❑❑❑

# /ذات الأرجل الثلاث/
## قصة قصيرة من مجموعة ( الشفق البعيد )

**للكاتب القبرديني نالو أحمد خان- نالتشك عام 1984.**

■ ترجمة: نديم ميرزا ■

منذ آلاف السنين. وكما جرت العادة عند الذئاب. قامت الذئبة الأم ذات الأرجل الثلاث بفطم جرائها الخمسة عن حليب أثدائها بعد أن أدت واجب الأمومة نحوها ولم تأبه لشأن الجراء المفطومة التي كانت تعوي باكية متوسلة إلى أمها، بل مضت في سبيلها خارجة من الوكر دون أن يرق قلبها على حالها.

بقيت الجراء وحدها وهي تنتحب بتوجع وكل واحد منها مشغول بهمه فلا يلتفت للآخر، وكانت الجروة الصغرى ممعنة في العويل والبكاء دون غيرها بصوت متهدج ومؤثر للغاية. وكيف لا يكون حالها هكذا وهي الأضعف في هذه العائلة. فمنذ ولادتها لم يتركها النكد. فهي تمرض مرة وتصبح نهباً للبراغيث مرة أخرى ويصيبها مغص شديد فتربك العائلة وتارة يصيبها الجرب فتتحاشاها الجراء الأخرى خشية العدوى. إنها مصدر المتاعب والقلق باستمرار في هذا الوكر.

ولشؤمها واعتلالها وهزالها ولسوء طالعها صارت دون غيرها قوة وحظاً وطعاماً. فالجراء تستقوي عليها دوماً فتخطف منها حصتها من الطعام وهي ساكنة لا حول لها ولا قوة، حتى صار شكلها قميئاً ومنظرها قبيحاً ولم يعد شكلها يتناسب مع حجمها ووزنها وإخوتها فسمتها العائلة: أم الأضلاع الناتئة.

وهي اليوم تملأ الوكر عويلاً بعدما خرجت أمها، مستمرة في أنينها بينما كفت الجراء الأخرى عن ذلك.

أزعجت من حولها فاضطرت جميعها إلى زجرها وطلبت منها الكف عن الإجهاش في البكاء فأذعنت وتوقفت عنه وكالمعتاد عاودت الجراء إلى إصدار الأوامر والنواهي بلا انقطاع إلى الأخت المعاقة الضعيفة.

إنها تعيسة في هذه العائلة، مذ سميت أم الأضلاع الناتئة لم تجد الراحة بعد ذلك اليوم إذ اقترن اسمها مع الحظ العاثر. ومع ذلك كانت تعزي نفسها قائلة: أنا قانعة بالنصيب. والمهم أن أعيش، لا سيما أن أمها قالت لها على مسامع الجميع: أنت يا أم الأضلاع الناتئة، أنت أصغر الأولاد وأضعفهم. لذلك يجب أن تطيعي الجميع بلا تردد. ومنذ ذلك الحين بدأ الكل يأمرها وينهاها وصارت كالعبدة للآخرين. فالجراء تجاسرت عليها فكل واحد يقول لها: هاتي هذا وخذي ذاك- أزيحي هذا الغرض. حكي لي ظهري- الحسي فمي- نقي لي رقبتي من القراد.

لم يمض وقت طويل على غياب الأم حتى عادت إلى الوكر، فقفزت الجراء الأربعة نحو أمها وهجمت على الخروف الذي رمت به إليها وطفقت تمزق لحمه الطري بينما أم الضلوع الناتئة قابعة في الزاوية دون حراك، دون أن تكلف نفسها عناء دخول المعمعة حول الفريسة. عالجت الجراء الخروف الذي لم يسبق لها أن ظفرت بمثله، وبعد أن شبعت ارتمت على أرض الوكر هانئة.

أما الذئبة الأم التي جلست ترقب أولادها التي تهافتت على الخروف، فالتفتت إلى ذات الضلوع الناتئة بعد أن ركلت جراءها الأربعة التي هرعت إلى أثداء أمها لتشرب الحليب بعد وجبة شهية من اللحم اللذيذ والتي انفضت من حولها غير مبدية امتعاضها.

فإذا بها تقترب من بقايا الخروف لتأكل. نظرت الأم إلى جرائها التي شبعت ونامت. وبدأ النعاس يغالبها. رغم ذلك فتحت عينيها وبدأت تترقب الحركات الهادئة المؤدبة لأم الأضلاع الناتئة فهي خاملة فجة. وهي هكذا منذ ولادتها. إن طبعها لا يلائم حياة الغابة. إنني لا أصدق إلا أن تكون ابنة ذلك الكلب البيتي الوديع الجبان الذي زارني في أحد الأيام حقاً إنها مثله في طبعه وشكله ذي اللون الأصفر المبرقع.

أتذكر ذلك اليوم الذي كانت الذئاب الذكور الثلاثة تتناوش بعنف للظفر بي ومعاشرتي بينما ذلك الكلب البيتي كان جالساً في مكان ناءٍ ينظر إلي بكل أدب وهدوء. لم تعره الذئاب الثلاثة أي انتباه. حينذاك أشفقت عليه ورق قلبي لحاله واخترته عشيراً. حين رأت الذئاب ذلك تركت بعضها وفارت دماؤها واحمرت عيونها كالجمر من الغيرة وانقضت عليه ومزقته إرباً إرباً ومات المسكين ضحية صداقتي له.

كانت أم الأضلاع الناتئة تأكل ببطء وسكون وهي لا تدري بم تفكر أمها في تلك اللحظات. وبعد أن انتهت مسحت أنحاء جسمها بلسانها واختارت ركناً خالياً من الوكر كعادتها واستسلمت للنعاس منفردة معزولة.

تابعت الأم تأملها. وتسربت إليها الأفكار الجهنمية السوداء تجاه ابنتها النائمة وأمعنت النظر إليها وهي تغط في نوم عميق بعينيها الجاحظتين الحانقتين. اللتين امتلأتا بالنوايا الكريهة.

أتى الفجر فجأة وتبدد الظلام وانبلج ضوء الصباح وأشرقت الشمس تباعاً، وعند الشروق عجت الغابة بالحركة والنشاط وامتلأت بالحياة وماجت بالحيوية حيث نهضت كل الأحياء القاطنة في جوفها من أجل السعي للبقاء.

فالبراغش والهوام والغربان وأنواع الطيور انطلقت وتحركت استعداداً للنهار الصيفي الحار القادم إليها. لكن جراءها مازالت غارقة في نومها بين أنحاء الوكر المحصن بأمان حيث يجب أن تستريح لأن مهاماً صعبة تنتظرها في الليلة القادمة. كانت الأم تفكر بأولادها وبهذه المهام الخطيرة. أضناها التفكير والسهاد وهي تقلب الأمور لليلة القادمة وازدادت توتراً ويقظة حين تصورت ما سيجري.

وليست هذه هي المرة الأولى التي تضطر فيها إلى التفكير بمثل الحالة المرتقبة في الليلة القادمة. لقد أصبح عمرها الآن خمسة عشرة سنة ولدت فيها عشر مرات وقد أدت في كل ولادة المهمة التي تفكر في تأديتها هذه المرة مع أولادها. ولكنها تبقى أماً. وما ستقوم به محفوف بالمخاطر والمتاعب بالطبع وهي قلقة على ابنتها الصغرى أم الأضلاع الناتئة التي لا تثق باجتيازها الاختبار الصعب بنجاح.

ويأتي الليل ويخيم على الغابة الظلام وتستيقظ عائلة الذئاب التي أخذت قسطاً كبيراً من

النوم والراحة. وبدأت اللحظات الحاسمة.

خرجت الذئبة ذات الأرجل الثلاث وجلست قبالة الوكر وصرخت بأولادها قائلة: اخرجوا من الوكر ، واجلسوا جميعاً أمامي ، خرج الجرو السمين الذي يدعى الدب في المقدمة والبقية وراءه. تربصت الأم وحدجت ابنها الدب بنظراتها المنبعثة من عينيها المحمرتين كالشرر المتطاير فرأى الجرو والدب في عيني أمه الصارمتين معاني الموت الزؤام. ومع تلك النظرات كشرت الأم عن أنيابها الحادة وهي تصك أسنانها وتصدر صوتاً يشبه أحجار الصوان.

سآكلك. يا دب احرص. هكذا كانت تنبىء به هيئتها.

ويفور الدم الذئبي الوحشي في عروق الجرو الدب وأعصابه ويشتعل غضباً وهو يجتاز اختبار الشجاعة. فيهز بذيله وينكمش متربصاً ويستعد للرد على أمه والانقضاض عليها أيقنت الأم بأن الجرو الذي يواجهها لن ينسحب من المواجهة بسلام. بالطبع لم تكن تريد نزالاً مع ابنها فهدأت من ثورة غضبه وقالت له: اجلس هناك فأنت تصلح أن تكون ذئباً في هذه الغابة. وهكذا فعلت مع الجراء الأخرى التي نجحت في الاختبار ما عدا أم الضلوع الناتئة. فقد جاء دورها أخيراً. ونادتها أمها بصوت مثل صوت عزرائيل فطارت روحها شعاعاً من الخوف وجلست مطرقة واجفة لكن نظرات الأم المحمومة كانت كالسهام التي تنفذ في فؤادها فانتصب شعر فروها وضغطت ذيلها المرتجف بين فخذيها وبدت كأنها مصابة بالبرداء. وصرخت بها أمها ثانية قائلة: ارفعي رأسك وانظري إلي وحين رأت الموت الزؤام في عيني أمها اللتين تقدحان شرراً انهارت أعصاب المسكينة واستسلمت للعويل والبكاء فانقضت عليها أمها حيث غابت بين فكيها وافترستها وجلست أم الأرجل الثلاث وهي تلعق دماء ابنتها الجبانة.

ثم قالت: لم تكن لتقدر على مواجهة أعباء الحياة لقد أرحتها من العذاب والآلام الكثيرة التي كانت تنتظر تلك المسكينة سيئة الحظ. كلب بيتي خامل أنجب كلبة بيتية خادمة ولا يمكن لمثلها البتة أن تكون ذئبة في هذه الغابة يوماً من الأيام.

جلست الجراء الأربعة الباقية واجمة وهي تنظر إلى أمها المرعبة والرهيبة دون أن تعرف لنظرتها معنى محدداً. أتلوم الأم على فعلتها أم هي راضية عنها.

قالت الذئبة لجرائها: تعالوا معي الآن. سأدربكم على الصيد في هذه الغابة. سوف أضعكم على طريق الحياة التي تؤخذ غلاباً هنا. ولا مكان فيها لضعيف مستكين. سأدربكم والبقية مرهونة بشجاعتكم وقوة تحملكم للصعاب. لا مكان هنا للدعة والراحة والخمول.

انطلقت أم الأرجل الثلاث وخلفها مباشرة الجرو الدب ثم ذو الوجه الأسود ثم ذو الذنب الأبيض ثم ذات الرقبة البيضاء.

ومضى الرتل على الطريق بحذر. وحين وصلت الأم إلى أكمة رأت حفرة عميقة حذرت صغارها منها حيث قالت لها: هذه الحفرة من صنع الإنسان ودخلت العائلة السهل ووقفت الأم تشم ما حولها مستطلعة أرائحة بشر أم دخان أم سمك يا ترى.

ورأت من بعيد عريشة في أحد الكروم عليها بعض الرجال من الفلاحين فقالت لصغارها

ابتعدوا عن العريشة تحاشياً للإنسان. تحاشوه دوماً واحذروا الاقتراب منه إنه عدونا الذكي الذي لا نستطيع مواجهته أتسمعون. قالت الجراء. نعم. ابتعد الجميع عن العريشة ومضت الذئاب على طريق فرعية حتى وصلت إلى ضفة نهر وأصاخت الأم بسمعها وشمت ما حولها حيث تسربت إلى أنفها رائحة الطعام. مشت باتجاه الرائحة وأولادها الأربعة خلفها يقلدونها في مشيتها زحفاً على البطون باتجاه الطعام.

كانت رائحة الطعام ممزوجة برائحة الإنسان. قالت الأم: قفوا يا أولادي هنا. أنا سأتعرف عليه وتقدمت نحو الواقف فإذا به حمار سمين مربوط درات حوله تتفحصه فلمحت على ظهره فخاً منصوباً يشبه الفخ الذي خبرته سابقاً يوم أمسكها وانتزعت منه بأنيابها الجزء الباقي من رجلها المقطوعة. لن تسلم نفسها له مرة أخرى. دارت حول رقبة الحمار وانقضت عليه وجرته عدة أمتار نحو الأكمة وبالتعاون مع جرائها افترست الحمار المسكين في الوقت الذي كان النحالان يغطان في نوم عميق تحت الشجرةِ وقد أدارا ظهريهما أحدهما الآخر مطمئنين على حمارهما المحمي بالفخ المنصوب، الذئاب الجائعة أكلت الحمار ولم تبق منه شيئاً سوى رأسه وحوافره، وقفلت راجعة إلى الوكر.

كانت الأم متلهفة إلى أن تقول لأولادها الكثير الكثير منذ زمن. لكن لم تجد فرصة مناسبة لذلك. لكن اليوم لابد من ذلك لقد كبر الصغار وأوشكت الجراء أن تخرج من الوكر وتعتمد على نفسها في كسب قوتها.

قالت الأم: ربما لن أجد العائلة مجتمعة كما هي الآن. سوف يتركون الوكر والموقد وسيتزاوجون ويهيمون على وجوههم في أرجاء هذه الغابة الواسعة. وسأبقى كالعادة هنا وحيدة أعين حياة الأرملة المسكينة التي لا يظلل بيتها رجل. أم سأعثر يا ترى على رجل عجوز أرمل أتزوجه وآتي به إلى هذا الوكر، آه ما أصعب تربية الأولاد وأنا وحيدة، كم سنة مرت وأنا هكذا. في كل سنة يجتمع حولي الذكور ويغرونني بكل الأحلام الجميلة ويطلون علي وهم يتبخترون. اسلم نفسي لهم ثم بعد أن يأخذوا مني وطرهم ينفضون من حولي ولا يأبهون لحالي ويغيبون عني حتى تأتي سنة أخرى. ولو بحثت عنهم وقت الشدة والحاجة لما وجدت واحداً منهم. إنهم أنذال آه. لقد كان من الممكن أن يكون ذلك الكلب البيتي المسكين الذي أكلوه في السنة السابقة شريكاً دائماً لحياتي. ليتني دافعت عنه آنذاك وأنقذت حياته منهم. إني أشعر الآن بالندم. كان علي ألا أسمح لذئاب شاردة أن تأكله بهذه القسوة. آه. لقد صرت الآن عجوزاً ولولا ذلك ماالذي أيقظ في نفسي مشاعر الرحمة واللين في صدري اليوم. ولولا حالي اليوم ما الذي يجعلني أرأف بكلب خامل دقت الذئاب القوية عظامه. أيليق بي أن أرثي كلباً بيتياً بليداً. لا. لا. لا..

الجراء المتخمة بلحم الحمار كانت نائمة.. ونامت الأم بعد عناء طويل.

مضت الليلة. وأقبل النهار وكان الجو غائماً. والأمطار الخريفية الخفيفة تهطل بين الحين والآخر. ثم حل المساء وصحت العائلة من سباتها وبدأت الأم حديثها مع صغارها قائلة:

الآن كبرتم. فعليكم أن تتابعوا أموركم بأنفسكم ولا تنسوني. فأنا بحاجة إليكم.

وحين أبدت الأم حاجتها لأولادها في معاشها نظرالجرو الدب إلى شقيقه ذي الوجه الأسود وبديا كأنهما يقولان لبعضهما: آ.. إنها تريد أن نعيلها.. لقد كان لها ذلك لو وجدتنا بجانبها بعد اليوم..

لكن الأم تابعت حديثها قائلة: لقد ربيتكم يا صغاري بتعب وعناء دون أن يكون معنا أب

ذكر يرعانا وكنت معلولة مستضعفة يتجاسر علي القاصي والداني. كانت رجلي مقطوعة وقدرتي على الصيد ناقصة. هذه المعاناة قاسية وقصتها طويلة لاسبيل لي أن أذكرها لكم اليوم . لكن أريد أن أزودكم بوصايا وغطات ستستفيدون منها في حياتكم القادمة: الدنيا يا أولادي تتغير باستمرار والأموال تتبدل بسرعة مرة تتلبد في السماء الغيوم وتارة تصحو وتتقشع عنها الغمائم نحن نعتبر بني البشر مصدر ضرر وخطر علينا في هذه الحياة. إنهم تنادوا إلى قتلنا وإبادتنا بكل الوسائل التي ابتكروها. وخصصوا لبعضهم جوائز ثمينة تشجيعاً لقتلنا وبعد حملة الإبادة التي شنوها علينا وقل عددنا تبدل موقفهم منا وقالوا: لقد فقدت البيئة توازنها وإن الذئاب نافعة ومفيدة. وفرضوا غرامة على كل من يصطادنا. ثم عادوا مرة أخرى إلى تقديم الهدايا لمن يقتلنا ولن تستمر هذه الحالة طويلاً ولكن في جميع الأحوال احذروا هذا الذي يسمى الإنسان. إنه عدو لدود ومخيف لا يقهر والصياد الذي تعود على اقتناصكم لن يلتزم بأي قرار صادر بشأنكم. فهو سيظل يتابعكم وسيقتلكم حباً واستمتاعاً بقتلكم. لذا كونوا يقظين وحذرين منه على طول المدى أيها الأولاد.

انتهت الذئبة الأم من إطلاق وصاياها وكفت عن حديثها واستجابت مرة أخرى لنداء الجوع القوي المتجدد وانطلقت مع أولادها إلى رحلة الصيد الأبدية. وسارت العائلة على الدروب السرية التي شقتها لنفسها في الغابة لتباغت فرائسها وقامت بالسطو على قطعان الماشية واقتناص الحمير في حقول الذرة الصفراء. لكن الصيادين اهتدوا إليها. وتعرضت الأم لنيرانهم وأصيبت في مؤخرتها ونزفت الدماء وانطلقت مع الجراء باتجاه الوكر متجاوزة الفخاخ والحفر والرصاص ونجت بأعجوبة وتوارت عن الأنظار وانتشرت العائلة في الغابة دون هدى.

عادت الأم وحيدة. مجروحة. متألمة– كئيبة إلى وكرها ولم تعد الجراء التي تركت أمها واستقلت بنفسها بعد اليوم.

فتشت عن شريك لها فوجدت ذئباً عجوزاً اقترنت به وولدت له هذه المرة اثني عشر جرواً وعاشت الجراء في كنف العجوزين وهي تعتمد على ما يؤمنانه لها من الطعام بشق النفس والعسر الشديد.

إن الصيادين الذين يعرفون أن هذا الوقت هو موعد ولادة الذئاب. انتشروا في كل الأنحاء يبحثون عنها دون كلل. لقد أبكوا الكثير من أمهات الذئاب ومنها ذات الأرجل الثلاث. فهي حين خرجت مع عجوزها إلى الغابة للصيد وجلب الطعام للجراء دخل الوكر الصياد نور علي وزميله وخطفا الجراء الاثني عشر حيث وضعاها في الكيس وحملاها إلى حديقة الحيوانات إذ باعاها إلى إدارة الحديقة بأموال زهيدة.

عادة الأم مع زوجها إلى الوكر فلم يجدا الأولاد. شما بقايا رائحة بني البشر في أنحاء الوكر. عرفت الأم مصير أولادها. ندبت حظها مرة أخرى وبكت بتوجع وملأت بعوائها المرير وأنينها المؤثر أرجاء الغابة ومعنى الاثنان يقتفيان أثر جرائهما حتى وصلا إلى حديقة الحيوانات التي أسرت فيها بقيا يومين أو ثلاثة خلف السور وهما يعويان دون جدوى– لم يستطيعا اقتحام الحديقة فسورها عال. قفلا راجعين إلى الغابة . ويمضي الزمان التعيس ويأتي الصيف وتبتسم الطبيعة بالخضرة والأزهار. وانتشر الناس في البراري والغابات يتنزهون. وازداد الطين بلة حيث أمسك فخ زوجها

العجوز قرب أحد الحقول لكنها لم تهتم كثيراً بما جرى له. لقد تبلدت مشاعرها. بل صار الأمر عندها سيان. بل قالت: لا ضير فيما حدث. ليذهب إلى الجحيم. إنه يستحق أكثر من هذا..

الذئبة الأم الثكلى لم تعد تعرف طعماً للفرح أو الاستمتاع بالحياة. تذهب إلى دار الصياد نور علي الذي سبب لها آلامها وتقبع على باب داره ليلة كاملة. يخرج كلب نور علي البيتي من الدار ويتبعها. حقاً إنه لغبي فهو لا يعرف من هو الذئب وماهي طباعه إنها تداعبه وتلاطفه وتستدرجه شيئاً فشيئاً نحو الغابة مانحة إياه الأمان. وفي غفلة منه تنقض عليه وتمزقه أشلاء لتنهش لحمه دون رحمة وهو ينظر باتجاه بيت صاحبه الصياد نور علي. ولم يبق من الكلب سوى جمجمته، التي وضعتها على طريق القرية ومقدمتها باتجاه بيت الصياد وانصرفت إلى الوكر.

في الصباح يبحث نور علي عن كلبه فلا يجد منه سوى جمجمته ومن خلال آثار الأرجل الثلاث للذئبة الجانية أيقن بأنها هي فتابعها للفتك بها.

حفر في طريقها حفرة كبيرة وعميقة وموهها وعلى فوهتها ربط خروفاً هزيلاً حصل عليه من الكولخوز وجلس بين الأشجار الكثيفة مترقباً . أتت الذئبة إلى الخروف ودارت حوله كعادتها عدة مرات وهي تتلحظ وتصك أسنانها وقد سال لعابها وبعد أن توقفت برهة قفزت منقضة عليه فوقعت في الحفرة لوحدها حيث كان الخروف مربوطاً إلى شجرة.

هرع الصياد إلى الخروف وجره وفك رباطه ووقف على فوهة الحفرة المظلمة ونظر إلى الذئبة التي كانت تجري إلى القاع وعيناها تقدحان شرراً أخذ خروفه معه ومضى إلى بيته.

بقيت الذئبة وحدها وهي تجري وتدور في القاع بتوتر وعصبية وأيقنت سريعاً بأن لا سبيل إلى الخروج من الحفرة والنجاة من الموت الزؤام المحقق أعياها الجري وخارت قواها وجلست على مؤخرتها ورفعت رأسها وعوت طويلاً كأنها تشتكي للسماء. سمع نور علي عواءها وهو على مشارف القرية. لكنه لم يدرك معنى هذا العواء.

إنها بعوائها الأخير كانت ترثي حالها وتبكي مأساتها وتندب نهاية حياة مليئة بالمآسي بلغة الذئاب. كانت تندب حظها العاثر وما آل إليه مصيرها اليوم. ونظمت الذئبة في تلك اللحظات الرهيبة وهي تنازع الموت وقد أشرفت على الهلاك مرثيتها بلغة الذئاب تحكي فيها قصتها وقد ترجمت إلى الشركسية هكذا:

**أمشي في الغابة دوماً وأنا أعوي**

**أمشي دون توقف وأنا أبحث عن صيدي**

**أشم ما حولي في يوم شتوي**

**والضباب الداكن يلفني**

**اشم رائحة خروف هزيل ربطه أمامي**

**نور علي.**

**أجري حوله عدة مرات**

**وأزحف نحوه على بطني**

**وأقفز عدة أمتار كي أنقض عليه**

**فأقع في الحفرة التي حفرها لي نور علي**
**أحاول أن أخرج منها لكن لا جدوى**
**ويدب اليأس إلى نفسي**
**أتيقن من أني أتجه إلى حتفي**
**أضع ذيلي بين فخذي وأنا أعوي**
**أعوي وأنا في قبضة موتي**
**الريح العاصفة تبكي معي**
**فيا تعسي. غداً سيأتي الإنسان**
**نور علي إلي وسيسلخ ههنا جلدي.**

❑❑❑

# إذا لم ترتدع عن غيّك فستلتقي يوماً من يردعك

## قصة بقلم الكاتب الشركسي:
## كراشه تمبوت

■ ترجمة: غسان نوح شورهي ■

في عصر يوم خريفي، كان قد اجتمع عدد من رجال وشباب الجمعية التعاونية الزراعية، في الساحة أمام مقر الجمعية، ينتظرون قرارات الهيئة الإدارية ليتعرفوا إلى قراراتها وهي طازجة. وكالعادة كان العجوز قامبولات أيضاً حاضراً، حيث كان جالساً على المقعد الخشبي الطويل يصغي إلى الحوار الذي يدور بين الرجال. وقامبولات رغم تقدمه في السن، كان لا يترك مناسبة إلا ويحاول المساهمة بها، إذا كان الأمر يمس شؤون القرية ولو بالنصح والإرشاد. ولقد اعتاد رجال القرية وشبانها عليه، وهم يكنون له الاحترام الشديد حتى أنهم باتوا يعتبرونه واحداً منهم، لذا كانوا يتحدثون أمامه بكل حرية دون حرج، ويستمعون إلى رأيه باحترام وتقدير.

محور النقاش بين هؤلاء الرجال في ذلك العصر كان شخصية رئيس العمال في الجمعية، الذي أقيل من منصبه منذ فترة قريبة.

الجميع متفقون على صواب قرار رئيس الجمعية التعاونية بإقالته. ولكن أحد الرجال تساءل لماذا انتظر رئيس الجميعة كل هذه المدة لاتخاذ هذا القرار؟ رغم معرفته التامة بأن رئيس العمال سيء، لابل هو أسوأ رجل عرفناه!. أجابه الآخر: من يكذب على الله يستطيع أن يفعل أي شيء، هو كان يكذب على الله وعلى الجميع وأصبح شاطراً جداً في مجاراته لرؤسائه، وتقديم الخدمات الخاصة لهم وبالتالي استطاع أن يسخّر الجميع لخدمة مآربه الخاصة.

وبحماس قال رجل ثالث: يا جماعة رئيس الجمعية الحالي يختلف عن جميع الرؤوساء الآخرين، إنه يملك رأساً.. ومنذ اليوم الأول لتسلمه مهام رئاسة الجمعية انتبه إلى مشاكلها وأمنياتنا، واستطاع أن ينظف جسم الجمعية من ذلك الدمّل (رئيس العمال ) فقال أحد الرجال لمثل هذا قال أجدادنا ( إذا لم ترتدع عن غيّك فستلتقي يوماً ما من يردعك ) وفجأة توقف الحوار، وساد الصمت بين الجميع وكأنهم يفكرون بمغزى هذا القول المأثور.

وفي تلك اللحظة بدرت من العجوز قامبولات حركة لفتت انتباه الجميع، عندما أشاح بوجهه جانباً، وارتسمت على شفتيه ابتسامة خجول، ثم أطرق برأسه نحو الأرض، متمتماً، وملامح الخجل بادية على وجهه..!

لاحظ الجميع سلوك العجوز قامبولات، وأثار تساؤلهم، لأنهم أيقنوا بأن شيئاً ما هزّ العجوز، لقد بدا ذلك واضحاً للجميع، وبعد هنيهة سأله أحدهم ما بك يا عزيزنا قامبولات؟ وساد الصمت بين

الجميع ينتظرون جواب قامبولات، الذي بدا وكأنه غاص في بحر عميق من الذكريات، وكأن حواراً ما يدور بينه وبين نفسه، وبعد لحظة رفع رأسه ونظر إلى الجميع راسماً على شفتيه ابتسامة باهتة من خلال شاربيه الكثيفين، ثم اصطنع سعالاً وقال: ذلك القول المأثور ذكرني بيوم عظيم من أيام حياتي وبسر دفين كنت أحتفظ به حتى الآن، لم أبح به لأحد.. لأنني كنت أعتبره عيباً شنيعاً أهنت نفسي به. نعم أيها الشباب لكل منا أخطاؤه.. ثم عدل من جلسته ومسد لحيته ونظر إلى الجميع بحنان وقال: سأبوح الآن لكم بهذا السر العظيم، علها تكون عبرة للشباب، سأروي لكم قصتي التي تنطبق تماماً على هذه الحكمة العظيمة التي قالها أحد أجدادنا إذا لم ترتدع.. نعم.. نغم ( إذا لم ترتدع عن غيك فستلتقي حتماً يوماً ما من يردعك عن غيك ). وهذا ما جرى لي بالضبط في زمن بعيد كان عمري زهاء الخامسة والعشرين، سن الشباب والحماس والطيش والغرور الذي كان يملأ صدورنا وعقولنا فيمنعنا عن رؤية الأمور بوضوح وتبصر.

ولكي تفهموا قصتي جيداً، سأخبركم عن الحياة في تلك الأيام، وعن أسرتي والتربية التي ربيت عليها حسب العادات والتقاليد حينذاك. نشأت في أسرة تتألف من أخوين وأولادهما، والدي وعمي وهو الأكبر سناً، وحسب العادات كان عمي هو صاحب الكلمة العليا في البيت وهو حينذاك كان في الستين من عمره، سن النضج والرجولة الحقيقية، يتمتع بحيوية فائقة، وملتزم بالعادات والتقاليد الشركسية بصرامة وكان يحظى باحترام رجال قريتنا، ولديه صداقات عديدة في المنطقة كلها، اشتهر بين أقرانه بفروسيته وشجاعته ومروءته، لذا كان بيتنا ومضافتنا، لا تخلوان من الأصدقاء والضيوف، وهذا ما أكسبنا احترام الناس وخاصة لشخص عمي، الذي كان يعتز ويفخر دون غرور، عندما يستقبل الضيوف في بيته، ويقدم لهم واجب الضيافة حسب العادات والتقاليد.

وفي داخل الأسرة يسود الود والاحترام المتبادل بين الجميع وكل يقوم بواجبه، حيث يعمل عمي ووالدي في شتى الأعمال الزراعية وتربية المواشي لتأمين الرزق للأسرة بكل همة ونشاط وتفاهم.

وكنت الولد الذكر الوحيد ضمن أطفال الأسرة، وأنتم تعلمون قيمة الولد الذكر في ذلك الزمن، حيث كانوا يعتبرونه امتداداً للأسرة، الذي سيحمل اسمها مستقبلاً، ومن خلال ذلك حتماً ستفهمون كيف كانت الأسرة تنظر إلى الولد الوحيد، وكيف يمكن أن يعامل، ليكون جديراً بحمل اسم العائلة، ولقد اختص عمي بشؤون تربيتي تربية تليق بأسرته وسمعته العطرة بين أقرانه وأبناء قريته. وبعد الطفولة الأولى من حياتي التي قضيتها مع والدتي ابتدأ عمي تربيتي واضعاً في ذهنه أن يخلق مني رجلاً، يتمتع بكل الصفات الحميدة التي تتناسب مع العادات والتقاليد الشركسية في ذلك الحين.

وابتدأ المشوار وأصبحت الأوامر تنهال علي، هذا عيب، هذا لا يليق بالرجال، لا تكن طفلاً، أنت رجل فتصرف بما يليق برجولتك، احترم نفسك.. الخ وفي الحقيقة كنت أنفذ كل ما يريده عمي

العزيز، حيث أصبحت في سن الثانية عشرة قادراً على استقبال الضيوف حسب العادات، حيث أسرع إلى باب الحوش هاشاً باشاً مسترجلاً أمام الضيوف الفرسان مبدياً احترامي، وأقول تلك الكلمة قيبلاغه ( التي تعني في اللغة الشركسية تفضل لتصبح قريباً لنا ) ثم اقترب من الفارس الضيف فأمسك ركاب سرجه الأيمن بيد وبالأخرى لجام حصانه ليترجل الفارس ثم أقود الحصان إلى المربط، لأعود مسرعاً إلى الضيف لأقوده إلى المضافة، حيث استلم منه السوط والعباءة والأسلحة وأعلق كل واحدة منها في مكانها، وبعد الانتهاء من كبير القوم، أتوجه إلى الآخرين بالسلوك نفسه ، وبعد جلوسهم، أتراجع إلى الوراء وأقف أمام الباب بكل احترام وتبجيل أنتظر طلبات الضيوف لتلبيتها فوراً. إلى جانب هذه الأمور، تعلمت كيف أتعامل مع الخيول، ولوازمها ومع الثياب والأسلحة الشخصية، حيث كنت أملك حصاناً ولباساً مثل الرجال، نعم كنت أملك كل شيء رغم صغر سني لأبدو مثل الرجال ولكنني كنت أفتقد عذوبة حياة الطفولة، التي لم أجربها، لم أستطع اللعب بحرية كأقراني، لم يكن مسموحاً لي بأن أعدو بحصاني كما أريد، أو أن أقوم ببعض الألعاب كما يفعل الأطفال في مثل سني نعم نشأت وأنا أفتقد فرح الأطفال وعفويتهم ومرحهم، كان السلوك المطلوب مني هو السلوك المطلوب من الرجال، حسب العادات والتقاليد ودفعت للسير في هذه الطريق الضيق، الذي خنق عذوبة الطفولة وسعادتها، واكتسبت مظهر وسلوك الرجال، في البيت والحي فكنت لا أعدو بحصاني في شوارع القرية، وعندما ألتقي بأحد الشيوخ أو النساء في دروب القرية، أترجل عن حصاني، وأعرض خدماتي عليهم ثم أتابع طريقي تماماً كالرجال.

وهكذا أصبحت مثار إعجاب أهل قريتي والضيوف الذين يأتوننا، وكانوا يبدون إعجابهم الشديد بسلوكي رغم صغر سني. في ذلك الزمان لم تكن توجد مدارس، الأطفال كانوا يتعلمون في بيوتهم قواعد الآداب والسلوك، ويلعبون في ساحات القرية، أما أنا فلم ألعب معهم لأن مهامي في البيت وخدمة الضيوف كانت تأخذ كل وقتي نهاراً وليلاً، ولم يكن مسموحاً لي أن أتعب أو أن أتهاون في تنفيذ كل ما تتطلبه خدمة البيت، وخاصة المضافة حتى بات عمي العزيز يوجهني بنظرات عينيه دون الحاجة إلى إصدار أوامره بالكلمات وكنت أنفذ كل ذلك بحماس وحيوية دون أي تذمر أو تلكؤ خوفاً من أن يقال عني، كسول قليل المروة، وفوق كل هذا كان علي أن أكون منتبهاً لكل الأحاديث والأخبار التي تروى في المضافة لكي أستفيد منها، لأنها هي المدرسة في العادات والتقاليد وأخبار القوم من بطولات وانجازات للرجال والشعوب، وفي بعض الأحيان كان يُطلب مني أن أسافر إلى القرى المجاورة نهاراً أو ليلاً لاستدعاء أحد الرجال، أو لتبليغهم خبراً ما، فما كان مني إلا أن أبدي الاستعداد بكل همة ونشاط، حيث أسرج حصاني وأنطلق إلى تنفيذ المهمة.

وعندما نذهب لأعمال الحقل مع والدي وعمي كنت أيضاً أحاول بكل طاقتي أن أساعدهم في جميع الأعمال، وعندما يهدني التعب كنت أجالد حتى لا تظهر علي مظاهر التعب، فيقال إنني ما زلت صبياً، بل كنت أريد أن أظهر بمظهر الشاب القوي، ولو طلب مني أن أستريح كنت أعتبر ذلك إهانة لي، و أظهر جلدي وصبري وتحملي للتعب مثل الرجال. وعندما نعود للبيت كنت أترك الكبار يستريحون من عناء العمل، بينما أقوم أنا برعاية الخيول والثيران طوال الليل، وهكذا بدأ الناس يتحدثون عني كمثال للتهذيب والأدب إلى جانب المروءة والصلابة، وكان هذا الإطراء يدفعني لمزيد

من الهمة والنشاط لأبدو كالرجال. فأمعنت في كبت مشاعر الطفولة التي كانت تضج بها أعماق نفسي، وتحاول أن تجد لها متنفساً ولو للحظات. نعم كنت أعيش في صراع عنيف ومرير، بين أن أبدو كما يريد الناس وعمي، وبين أن أترك نفسي على سجيتها. هنا توقف العجوز قامبولات عن الكلام وقام بعدة حركات ليعدل من جلسته على مقعده الطويل ثم تابع كلامه قائلاً أيها الأصدقاء إنني أعتقد بأن تربية الأولاد مهمة صعبة سابقاً وهي اليوم أصعب إذا أردنا أن يكون لنا مستقبل أفضل وهناك مجموعة من القيم والمثل يجب أن ننتبه إليها ونربي أولادنا على الإيمان والتمسك بها، إن حب العمل واتقانه، والتمسك بالعادات والتقاليد، والاعتزاز بالنفس، والتحلي بالشجاعة والصلابة وعلو الهمة .

هي صفات أساسية يجب أن يربى عليها الأطفال منذ نعومة أظفارهم، ولكن يجب أن لا ننسى أن للطفولة حقها.. بالنسبة لي ركز عمي العزيز في تربيته لي على الجانب الأول وهو مصيب في ذلك، ولكنه أغفل تماماً الجانب الآخر لم يدرك روح الطفولة التي حاول بشكل صارم خنقها.. ولكنها كانت تتفاعل في داخلي، وتضطرني للقيام ببعض الأعمال التي تتسم بالطيش والرعونة، كأن أقوم بتصرف غير لائق أمام الضيوف أو أن أعدو بحصاني في أزقة القرية، وأهاجم الأطفال الذين يلعبون فيها لأرعبهم. لقد استطعت لفترة أن أضبط نفسي وأن أكتم هذه المشاعر الصبيانية، ولكنها بدأت تلح علي إلى أن صرت أترك خدمة الضيوف، وأجوب الشوارع متحرشاً بالأولاد متشاجراً معهم إلى درجة إلحاق الأذى بهم، وفي بعض الأحيان كان الأذى يصيبني أيضاً. مع ذلك لم أكن أشعر بالحقد أوالغضب عليهم، وهذا كان يثير الاستغراب لدى الأولاد، حتى باتوا لا يصدقون أنفسهم، وعندما بدأت الأمور تتطور، نقل هؤلاء الأطفال، تصرفاتي الرعناء إلى ذويهم، الذين لم يصدقوا ذلك بل كانوا يتهمون أبناءهم بالتحرش بي.. لأن قامبولات مشهود له بالرصانة والأدب والرجولة.

أصبح سلوكي الأرعن يطال المحرمات حسب وصايا عمي العزيز، التي كانت تؤكد ضرورة مساعدة كبار السن وإظهار الاحترام الشديد للنساء في أي وقت وفي أي ظرف كان. وفي أحد الأيام قمت بمساعدة امرأة عجوز بإيصال حملها إلى بيتها، شكرتني وأثنت على تربيتي. وفي اليوم نفسه التقيت امرأة أخرى تحمل حملاً، تقدمت منها وعرضت عليها المساعدة ففرحت المسكينة وأنزلت حملها عن رأسها، فما كان مني إلا أن أطلقت ضحكة ساخرة في وجهها وهربت منها.

انتشر الخبران في الحي، فالعجوز الأولى التي ساعدتها، تتحدث عن مروءتي وأدبي، والثانية تتحدث عن رعونتي وقلة أدبي، وهكذا أصبحت مثار جدل بين هذه وأعوانها، وتلك وأعوانها حتى وصلت هذه الأخبار إلى بيتنا، وربما إلى عمي العزيز، حيث بدأ يراقبني، ويتتبع خطواتي ولكن دون أن ينبس بكلمة واحدة تأنيباً أو استفساراً، ولكنني أحسست من نظراته أنه يبيت لي أمراً ما، وأنه لن يسامحني على تصرفاتي تلك، وأيقنت أنني سأدفع الثمن غالياً، لذلك بدأت أنتبه لتصرفاتي، وأكتم

ما أمكن مشاعري الخبيثة، وأبتعد عن الأعمال الطائشة الغبية، وأمارس غيّ بحنكة وذكاء دون إثارة أي شبه. وبدأت تهفو نفسي لممارسة الأعمال السيئة الأكثر أهمية وخطراً، ففكرت بممارسة السرقة، والتي يعتبرها عمي أحقر الأعمال التي يمكن أن يمارسها الإنسان، ولكن الحمد لله لم أقترف هذه النقيصة، لأنها تحتاج إلى رفاق صادقين، وما كنت لأثق بالشبان الذين هم في مثل سني، وفكرت في أن أمارسها مع رجال معروفين بهذه الخصلة، ولما عرضت عليهم أن أشاركهم سخروا مني لصغر سني، ولكن عندما بدأ هؤلاء يدرسون وضعي وامكانياتي، تعرضت لحادث هز كياني وأنقذني من التورط بهذه الأعمال السيئة.

وهكذا بلغت سن الخامسة والعشرين، كان مظهري الخارجي يوحي بالشاب المؤدب المهذب العاقل، ولكن في داخلي شخص آخر قامبولات آخر تتصارع في داخله نوازع الخير والشر، وكنت أمارس الأعمال الطيبة بالوقت نفسه وكلما سنحت لي الفرصة أمارس الأعمال السيئة بحنكة ودراية، ونجاحاتي في هذه الأعمال وسيل المديح الذي يكال لي، أوقدت مشاعر الغرور والإعجاب بالنفس، حتى لم أعد أرى أحداً يمكن أن يضاهيني في كل شيء، ليس فقط بين أقراني بل حتى من هم أكبر مني سناً، بمن فيهم معلمي العظيم عمي العزيز، كنت أشعر أنه لا ينقصني شيء سوى حصان يليق بي، لأن الحصان الذي كنت أملكه، لم يعد يتناسب مع مكانتي وأهميتي..! سيما أنني أعرف المثل الشركسي الذي يقول (الحصان مرآة الرجل ) لذا كنت أبحث عن حصان يليق بي، واهتديت إلى واحد كان يملكه أحد سكان قريتي، فتعلقت روحي بذلك الحصان الجميل، وبذلت محاولات عديدة لاقناع صاحبه بالبيع، عندئذٍ أخبرت عمي بأنني أريد أن أستبدل حصاني بأفضل منه، ولكنه كعادته قال: عندما نجد الحصان المناسب، ولما أبلغته بأنني وجدت حصاناً مناسباً، نظر إلي ملياً نظرة ذات مغزى، ولكنه أردف قائلاً: لنر ذلك الحصان المناسب! وهكذا ذهبنا لمشاهدة الحصان الذي أعجب به، اقترب عمي من الحصان ونظر إليه نظرة باهتة، ثم بدأ يتفحص قوائم الحصان، وصدره ومنخريه، ومؤخرته دون أن ينبس بكلمة إعجاب أو اهتمام لجمال منظره وحيويته وعنفوانه، ثم نطق تلك الكلمة التي اشعلت نيران الغضب والحنق في نفسي حين قال: إنني لا أرى فيه أية ميزة تفوق حصانك سوى جمال مظهره، وأعتقد بأن قدرة احتماله ستكون ضعيفة.. يفضل أن نتريث حتى نجد لك الحصان المناسب،

هنا أصبحت أشك بأن عمي لا يفقه شيئاً في الخيول ويدعي الخبرة والمعرفة، أو أنه أصبح خرفاً، حصان كالطاووس جمالاً وكالنار حيوية تكفي نظرة واحدة إليه لتعرف، أنه لا يقارن بأي حصان في المنطقة كلها، ومع ذلك لا يعجب عمي الحكيم فارس الفرسان! هنا ولأول مرة في حياتي، خالفت عمي الرأي وقلت جملة واحدة محاولاً جهدي إخفاء مشاعر الحقد والغضب والاستهزاء، ولكنها تحمل الإصرار والثبات. لماذا سننتظر، إذا وجدنا الحصان المناسب؟ هذا الحصان أعجبني وأريده!.. عندئذٍ رمقني بنظراته التي بت أعرفها جيداً، والتي تقول أنك ما زلت بحاجة للتعلم... ولكن ستتعلم وأردف قائلاً بكل هدوء وثقة؛ كما تريد، جرب هذا الحصان، ربثما تتعلم شيئاً عن الخيول.. وقد يفيدك في الأعراس لتتباهى به،.. ومنذ أن امتلكت ذلك الحصان، ازددت غروراً وغطرسة، وتبجحاً في معرفة الخيول، ورحت أغمز من قناة عمي وأقرانه، الذين يدعون الخبرة والمعرفة في كل شيء، ظناً

مني أنني وجدت حجة قوية للإقلال من معرفتهم فصرت كلما سنحت لي الفرصة، أتحدث عن ميزات حصاني وأبالغ فيها، سيما بعد أن فزت في سباق للخيول في أحد الأعراس، وهذا ما عزز ثقتي بنفسي بأنني متميز بكل شيء حتى في معرفة الخيول...!

صرت أجوب سهوب القفقاس، وأزور القرى في مناسبات الأفراح والأعياد متباهياً متغطرساً معتداً بحصاني ولباسي وامكانياتي، ولم أعد أرى نداً لي في تلك السهوب. حتى جاء ذلك اليوم الذي اهتز فيه كياني، وقلبه رأساً على عقب.. يا له من يوم لا ينسى أبداً.. أبداً. لفظ العجوز هذه الجملة الأخيرة وهو يهزبرأسه ثم خلع قبعته السوداء، ومسح جبهته ورأسه ثم أعاد القبعة على رأسه وتابع حديثه بتأثر واضح. كنت عائداً من قرية ( هودز ) وبعد أن مررت بقرية ( دجرقي ) متجهاً نحو قرية ( حكورن حبله ) التقيت بفارس عجوز، في البداية فرحت أنني التقيت برفيق طريق، قد يؤنس وحدتي في تلك البراري الشاسعة، فأسرعت الخطى حتى لحقت به، فوقفت على يساره وألقيت عليه التحية قائلاً ( ليكون طريقك مباركاً أيها الكبير المحترم ) فالتفت العجوز نحوي، وتأملني ملياً من قمة رأسي حتى قوائم حصاني. ولمحت في عينيه شيئاً من السخرية، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة وقال: لتكن محظوظاً أيها الشاب الأنيق.. تلك الابتسامة والنبرة التي فيها شيء من السخرية، أثارت غضبي، وأيقظت كرهي لهؤلاء المسنين الأدعياء، الذين لا يعجبهم العجب.. وقلت في نفسي هذا واحد من اولئك الذين لا أحبهم. التفت إليه بقلب حانق ونظرات فاحصة وتأملته جيداً، ساءني أنني لم أجد في مظهره العام شيئاً غير لائق، لابل هناك انسجام تام بين زيّه وأسلحته ولوزام حصانه دون زيادة أو نقصان، كما يليق بذلك الزمان، حيث كان يلبس الزي الشركسي ( تسيّ ) الذي يتناسب مع جسمه وسنه بشكل مريح، وأسلحته المفضضة التي أزيل عنها بريقها من النوعية الجيدة، وكذلك لوازم الحصان من سرج ولجام المصنوعة من الجلد المرن المزين بالفضة، إلا أن حصانه كان قبيحاً بعظامه الناتئة، يبدو وكأنه ينوء بحمله، ورغم ذلك قلت في سري، هذا واحد من الأدعياء سيما أنني لمحت حزام سرجه مرناً، وكأنه يبدو لا مبالياً بالطريق وأخطاره وبينما كنت أتفحص كل شيء فيه، رأيت في يده اليمنى سوطاً ذا مقبض مصنوع من الفضة المزخرفة، وبت أرقب حركة يده لكي أمعن النظر بذلك السوط الجميل الذي سلب لبي والذي لم أر في حياتي أجمل وأدق صنعاً منه. ولم أستطع ضبط نفسي رغم معرفتي أنه من المعيب أن يطلب من هو في مثل سني من رجل عجوز غريب أن يعطيني السوط كي أتفحصه.. ومع ذلك أبديت إعجابي بالسوط، وطلبت منه أن يعطيني إياه لأتأمله عن كثب، فنظر إلي نظرة ملؤها العجب والاستهجان من وقاحتي، تريث قليلاً ثم مد السوط إليّ دون أن ينبس بكلمة أخذت السوط وقلبته بين يدي، ثم سطته عدة مرات... وهنا تساءلت ما حاجة هذا العجوز لمثل هذا السوط النادر البديع، ألست أجدر به منه، وبدأت أقلب الأمر في خاطري، ماذا لو أخذت هذا السوط وهربت به، ماذا يستطيع أن يفعل هذا العجوز الذي لا أعرفه، وقد لا ألتقي به مرة ثانية، ثم إنه لن يفكر باللحاق بي وهو يركب ذلك الحصان القميء، أين هو من حصاني الناري..

وفجأة لكزت حصاني وانطلقت به قائلاً للعجوز: هذا السوط جدير بالشباب وليس لمثلك! فأجابني لا تفعل ذلك أيها الشاب المحترم، ولما رأى أنني مزمع على غيّي، أردف قائلاً مرة ثانية، لا تفعل ذلك أيها الشاب إنك ستندم على فعلتك هذه... ولكنني أجبته بضحكة مجلجلة ساخرة، وأرخيت العنان لحصاني فانطلق يعدو في السهب الرحب.

بعد لحظات التفت إلى الوراء، فرأيت العجوز وقد ترجل عن حصانه وشد حزام السرج، ثم امتطى الحصان وبدأ يلكزه أملاً باللحاق بي، وهنا أيقنت أنني كنت محقاً في رأيي حول حمق هؤلاء الشيوخ، تصوروا يزمع اللحاق بي بذلك الحصان، الذي لم أر فيه من صفات الحصان إلا اسمه، وهنا رضيت عن فعلتي مع ذلك العجوز، وتابعت طريقي.

وبعد أن قطعت شوطاً من الطريق التفت مرة ثانية ورائي، وإذا بي أرى العجوز يعدو بحصانه نحوي، بكل حيوية ونشاط، لقد انطلق ذلك الحصان القميء يعدو وكأنه سهم انطلق من قوس شاب قوي، حتى أنني لم أر قوائمه تمس الأرض، بينما انحنى العجوز على حصانه وكأنه قطعة من سرج الحصان وهنا ساورني الشك، ترى هل هذا الفارس الذي أراه الآن هو ذلك العجوز نفسه، وهذا الحصان هو ذلك الحصان نفسه القميء، وعندما أمعنت النظر، أيقنت أنهما بالتأكيد هما، ولا مجال هناك للشك، والعجوز مصمم على اللحاق بي والأمر ليس مزاحاً.

لكزت حصاني، مستخدماً السوط الجميل أحثه على الجري بأقصى سرعته، ولكن عندما التفت مرة أخرى ورائي، هالني أن المسافة أصبحت قصيرة بيني وبين العجوز، وأنه مصمم على اللحاق بي وحصانه يعدو بحيوية ونشاط أكثر من ذي قبل، بينما حصاني بدت عليه مظاهر التعب والإرهاق، حتى بات يتنفس بسرعة أكبر وهو يسبح بعرقه، فتسلل الخوف إلى نفسي، ورحت أستخدم السوط بشكل متواتر، والتفت إلى الوراء كل لحظة لقد اقترب العجوز مني حتى أنني رأيت عينيه اللتين تقدحان شرراً، بينما حصانه منطلق مثل رصاصة انطلقت من فوهة بندقية، وشعرت بأن الرصاصة تكاد تصيبني.

هنا احترت في أمري سيما وأنني اقتربت من قرية ( حكورن حبله ) فماذا سأفعل لو رأى أهل القرية هذا العجوز، وهو يلاحقني بهذا التصميم والثبات، لأيقنوا بأنني اقترفت ذنباً شنيعاً، وعند ذلك حتماً سيقفون بوجهي.. لذا تركت طريق القرية، واتجهت نحو الأراضي المفلوحة قرب نهر ( خوراج ) وهنا كانت الطامة الكبرى لأن حصاني العظيم... لم تعد لديه القدرة على العدو، وأصبح يلهث مثل الكلب وزبد عرقه يغطي جسمه، حينئذٍ فقدت الأمل نهائياً لذا رميت السوط اللعين على الأرض عله يتركني. وكم كانت دهشتي عظيمة، عندما انحنى ذلك العجوز عن حصانه والتقط السوط عن الأرض متابعاً عدوه ورائي.. ثم رأيته وقد توقف قرب شجرة صفصاف، حيث استل خنجره واقتطع من الشجرة غصناً مرناً، ثم تابع عدوه نحوي، وعندما اقترب مني انهال بذلك الغصن المرن على ظهري بضربات كانت تلسع جسمي وتشعل النار فيه وأنا غير قادر على إبداء أية مقاومة، سوى محاولات يائسة للتهرب من ذلك الغصن اللعين.

توقف العجوز فجأة وقال: يا بني قل لمن قام بتربيتك إن مثل هذه التربية هي التي تناسب

أمثالك.. وبكل هدوء، أشاح بوجهه عني وقاد حصانه متابعاً طريقه.

أما أنا فكنت مثل الكلب، الذي تلقى علقة ساخنة من صاحبه، فأصبح ذليلاً كئيباً مسكيناً، رفعت رأسي لأودع ذلك الفارس.. بنظرة يائسة، فرأيت حصان العجوز يمشي بكل حيوية ونشاط، وكأنه لم يقم بأي جهد، لابل هو أكثر نشاطاً وحيوية مما رأيته لأول مرة، وهنا أصدقكم القول يا أحبائي لقد أثر ذلك في نفسي أشد تأثير، ربما أكثر من تلك الضربات النارية التي انهال بها ذلك العجوز على ظهري، لأنني أدركت الآن، كم كنت غبياً ومغروراً وقليل الخبرة والمعرفة، حينما حكمت على ذلك الحصان من خلال مظهره العام، وبأن ذلك العجوز لا حول له ولا قوة سوى الادعاء بالخبرة والمعرفة في شؤون الحياة.

نعم لم أدرك معنى العادات والتقاليد التي تفرض احترام كبار السن، لم أدرك قيمة الخبرة التي يمكن للإنسان النبيه أن يختزنها في حياته، والتي تتجلى في سلوك ومعرفة كبار السن، فشعرت بمرارة الإهانة والخواء التام، فاحتقرت نفسي، وأدركت أنني صغير جداً...

ثم أطرقت رأسي، وفكرت بما جرى لي خلال هذه الساعة من الزمن.. لقد استطاع هذا (الشيخ) الحكيم.. وخلال هذه الساعة أن يعصرني كما تعصر الخرقة الوسخة. وكبرت في ساعة سنوات عديدة.

تنهدت تنهيدة عميقة ثم زفرت زفرة حملت معها كل الخبائث التي عششت في أعماق نفسي. اتجهت إلى ضفاف نهر اللابا، وترجلت عن حصاني المنهك ثم خلعت ثيابي وبدأت أمسح جسمي المدمى بمياه اللابا.. استرجعت بذهني سنوات عمري الخمس والعشرون، تذكرت أسرتي وآمالها الكبيرة التي تركزت حولي، تذكرت عمي الحكيم وتربيته لي ونصائحه وتوجيهاته ونظراته ذات المغزى العميق، وأدركت الآن مدى حكمته وتجربته العميقة، عندما كان يقول لي عندما تتعلم.. عندما تفهم.. وتذكرت عربدتي وطيشي وغروري واستهانتي بالكبار وخبرتهم، ومحاولاتي للإساءة إليهم إن هذا الشيخ الجليل وحصانه أعطياني درساً لن ينسى مدى الحياة أخيراً التقيت من استطاع أن يردعني عن غيّي، وبقيت هكذا أقلب صفحات تاريخي.. وأنا أرنو إلى تدفق مياه نهر اللابا الصافية، حتى مالت الشمس نحو مرقدها نهضت متثاقلاً نحو حصاني العتيد.. الذي استرجع بعض قواه، فامتطيته واتجهت نحو البيت كسير الفؤاد هادئاً متعباً خائفاً، من أن يكتشف أحد ما قصتي مع الشيخ ولما وصلت البيت تناهت إلى سمعي بعض الأصوات من مضافة عمي، فاتجهت إليها وما أن وضعت قدماي على عتبة الغرفة ورفعت رأسي لألقي التحية، حتى جمدت الكلمات في حلقي من هول المفاجأة، يا لهول ما رأيت ( العجوز ) بشحمه ولحمه جالس يتحدث مع عمي.. التفت نحوي ورشقني بسهم عينيه بنظرة زلزلت كياني، ثم أشار بيده نحوي وقال: من أرى؟ أليس هو الشاب العجيب الذي نتحدث عنه.. فما كان مني إلا أن استدرت وخرجت مسرعاً من الغرفة هارباً بخزيي وعاري..

وهكذا عشت سنة، لا أستطيع النظر في عيني عمي، والعجيب في الأمر أن عمي لم يسألني عن تلك الحادثة، ولم يتحدث عنها مع أحد حتى مع والدي، ويبدو أن الشيخ أيضاً لم يتحدث عن تلك الحادثة مع أحد، وبقيت تلك الحادثة سراً بيننا نحن الثلاثة.. وهذا أيضاً أعطاني درساً آخر، فهمت ما معنى أن يكون الإنسان إنساناً بعمله وخبرته ونباهته وحكمته. لقد فكرت كثيراً وأيقنت تماماً أنهم جديرون باحترام العميق.. تنهد العجوز قامبولات تنهيدة عميقة، وهزرأسه ثم أردف قائلاً للرجال من حوله الذين كانوا يستمعون إلى حديثه بصمت واحترام نعم أيها الأصدقاء منذ ذلك اليوم أصبحت رجلاً آخر، وأدركت أن قيمة الإنسان، هي بقدر مواقفه الإنسانية، وأدركت أيضاً أننا لكي نعيش مع الناس يجب أن ننسجم مع قيمهم وعاداتهم ويجب أن تحترم نفسك، وتحترم الآخرين ، وباختصار إذا كنت إنساناً فيجب أن تعيش كإنسان.

❑❑❑

# عصفور الجنة

## تأليف: م. بوريس

■ ترجمة: سميرة عز الدين أمشوقوه ■

كانت الجدة ( لوتسه ) جالسة في المطبخ تتأمل يديها النحيلتين الناعمتين كالحرير من كثرة جلي الصحون وغسل الثياب، وذلك بعد أن ودّعت بنظراتها كنتها وحفيدها الصغير، فكانت تصغي إلى وقع أقدامهما لتحس به كوخزات في قلبها، إلى أن تلاشى ذلك الصوت ، وبقيت مرة أخرى وحيدة في الشقة الصامتة الهادئة، إلا من صوت الساعة الكبيرة المعلقة على الجدار، وحتى العصفور الصغير في قفصه الجميل كان قد توقف عن تغريده، وكأنه يحافظ على حرمة سكينة البيت. نهضت الجدة متثاقلة، واتجهت نحو النافذة، واتكأت على حافتها، لترمق الشارع الذي يعج بالناس مثل خلية النحل، وبحثت بعينيها عن كنتها وحفيدها الحبيب، إلى أن رأتهما في الجانب الآخر من الشارع حيث أمسكت الأم بيد ابنها لتجرّه جراً وكأن قدميه كانتا قد التصقتا بالأرض وهو ينظر إلى الناس من حوله كما لو أنه كان يتمنى أن يبقى في حضن جدته في هذا الصباح الباكر بدلاً من أن يُجر إلى حيث كان أقرانه يلعبون في روضة الأطفال. بيد أن والديه كانا قد قررا ذلك رغماً عن إرادة جدته التي كانت قد توسلت إليهما من أجل أن يبقياه عندها في البيت، لكنهما كانا مصرين على أن يكون مثل بقية الأطفال، لأن ذلك سيفيده في تحسين لغته ويجعله اجتماعياً. ابتسمت الجدة وكأنها تسخر من حججهم وقالت: كأنني لست أنا التي ربيت والده محي الدين، ألم أجعل منه إنساناً محترماً بتفكيره وعلمه وسلوكه.. كما يقول الجميع. ولكن ما العمل هكذا يفكر أناس هذا الزمن. بقيت الجدة ( لوتسه ) واقفة أمام النافذة حتى شعرت بوخزات أشعة الشمس الحادة في عينيها، فالتفتت إلى داخل المطبخ وجالت بنظراتها في أنحائه، لتجد أن أعمالاً كثيرة تنتظرها.. جلي الصحون.. غسل ثياب الحفيد.. ترتيب المنزل.. وفوق ذلك كله الذهاب إلى السوق وشراء ما طلب منها.. فقالت في سرها يا إلهي كم بت أكره كل هذه الأمور.. إنني أكرر الأعمال ذاتها بالرتابة نفسها ضمن هذه الجدران الصماء وحيدة دون أنيس أوأليف يؤنس وحدتي.. كل يوم.. وكل شهر.. وكل سنة الحالة المملة القاتلة ذاتها.

لم تستطع الجدة ( لوتسه ) البدء بأداء تلك الأعمال.. ونأت بنفسها ضجرة وحزينة.. ثم عادت إلى الشرفة التي تطل على ساحة الحي المليئة بالأشجار الخضراء والأعشاب والزهور، ورأت الأطفال يسرحون في الساحة، وكان بينهم ولد من قريتها ذو شعر أسود، ووجه متورد، اشتهر في الحي بحيويته ونشاطه.. ومع ذلك كانوا يتحدثون في الحي عن تفوقه في دراسته.. دون أن ينسوا في كل مرة اتهام جدته التي تربى عندها في القرية حتى السابعة من عمره بأنها هي السبب في تنشئته هذه النشأه ( شقي وكثير الحركة ).. غريب أمر الناس في هذا الزمان.. لماذا يعتبرون حركة الأطفال ونشاطهم عيباً؟!.. لماذا يرغبون في أن يكون الأطفال مثل العجائز.. وفي تلك اللحظة تمنت الجدة (

لوتسه ) لو كانت في القرية.. كانت ستعطي هؤلاء الأطفال التفاح المحفوظ في قبو البيت.. وسألت نفسها إني أرى الأشجار في المدينة كثيرة على جانبي الشوارع وفي الساحات، ولكنها غير مثمرة، لماذا لا يزرعون أشجار التفاح والإجاص؟ كي يأكل الأطفال تلك الثمار!..

وتذكرت الجدة ( لوتسه ) حديقتها في القرية تلك التي كانت تحتوي على أنواع مختلفة من الأشجار المثمرة، والتي كانت مباحة لجميع الأطفال أن يأكلوا من ثمارها ما يشتهون أكله.. آه كم كانت لذيذة تلك التفاحات المجففة.. وكم كانت سعادة الأطفال بها كبيرة.. لاسيما عندما كانوا يبحثون في أواخر الخريف عن بقايا التفاحات المعلقة في الأغصان العالية.. وأضافت الجدة.. آه لو استطاع أن يلعب هؤلاء الأطفال، وبينهم حفيدي، في بساتين القرية كم ستكون سعادتهم عظيمة وصحتهم جيدة.

ولمحت الجدة مقبض غطاء علبة القمامة وكان على شكل ديك فقالت هازئة.. وأنت يا ديك المدينة.. صورة ديك فقط.. الديك هو من يحمي الصيصان وأمهم الدجاجة.. والذي ينبش التراب بمخالب رجليه باحثاً عن البذور كي يدعو أبناءه لالتقاطها.أما أنت فإنك مقبض أصم.. ولا شيء آخر !! وتذكرت الجدة كيف كانت قد اشترت مرة ديكاً كبيراً من السوق وأتت به إلى البيت لتشتري بعد ذلك دجاجة أو دجاجتين من أجل أن تلتقط البيضات الطازجة من تحتها وتطعمها لحفيدها، وخبأت الديك في الحمام، وفي فجر اليوم الثاني استيقظ أهل البيت مع صياح ذلك الديك، وكم كانت سعادتها كبيرة بصوته الذي اعتبرته لحناً رائعاً، ولكن فرحتها لم تكتمل إذ أن ابنها محي الدين ما إن علم بذلك حتى دخل المطبخ باحثاً عن سكين حادة وقال: (نانا)

سأذبح الديك قبل أن أذهب إلى العمل.. فلم تستطع أن تقول شيئاً، وهكذا فشل مشروعها.

بينما كانت لوتسه تستعيد كل تلك الذكريات سمعت صوت بائع الحليب فتذكرت أنه قد حان موعد ذهابها إلى السوق، فحملت الحقيبة، في يد وأقفلت الباب ومضت لتشتري ما يلزمها من حاجياتها، وهي تتمنى في أعماقها لو أنها كانت تزاول تكسير الأحجار من أن تقوم بتلك المهمة الشاقة بالنسبة لها، إذ كانت تكره مساومة البائعات من أجل قروش قليلة وتتحاشى رؤية بائعات من نساء قريتها، إذ كانت تتذكر أنها كانت مثلهن، وتتضامن عندما كن يقدمن لها بعض الفاكهة، وتتهرب من الإجابة على أسئلتهم عن أحوالها في المدينة، وتكره أن تقول لهم الحقيقة: أنها غير سعيدة في المدينة، وتقول في سرها: من أين لك أن تكوني سعيدة وأنت تعيشين في قبر من الحجارة دون أن تجدي طوال النهار من تتحدثين معه.

وبينما كانت الجدة لوتسه تمر في قسم الدجاج من السوق أمسكت إحدى النسوه بذراعها قائلة: مرحباً يا لوتسه.. كيف تمرين أمامي وكأنك لم تريني أو أنك أصبحت مثل نساء المدينة لا تذكرين صويحباتك!... وعندما التفت لوتسه عرفت تلك المرأة إنها ( فريزات ) ذات الشعر الأبيض والوجنتين المحمرتين الممتلئة حيوية ونشاطاً.. وكانت فريزات سعيدة برؤية ابنة قريتها ( لوتسه ).. فما كان من الجدة لوتسه إلا أن سألت صديقتها القديمة عن صحة أولادها وهنأتها بزواج ابنها الأصغر وأبدت لها رغبتها في زيارة القرية.. ولكنها أوضحت لها أن أعمالها لا تسمح لها بتحقيق تلك الرغبة.. ثم سألتها عن أخبار القرية وبدأت ( فريزات ) تروي لها جميع أخبار القرية، ولم تنس أن تصارحها بأنها غير مقتنعة بحجة لوتسه بأن مشاغلها لا تسمح لها القيام بتلك الزيارة وسألتها عن طبيعة تلك المشاغل التي تتحجج بها مع أنها مرتاحة في المدينة.. لا تعمل في الحديقة ولا ترعى الدجاجات ولا تقوم بأي عمل متعب كالذي تقوم به نساء القرية.

ودّعت الجدة لوتسه صديقتها ( فريزات ) وعادت أدراجها إلى البيت وقد تعكر مزاجها.. وكان ما أثار شجون لوتسه قول صديقتها لها بأن بيتها القديم الذي كانت قد باعته في القرية.. معروض للبيع من قبل صاحبه.. وعندما وصلت لوتسه إلى الحي نظرت إلى البناء الذي تقيم فيه فشبهته بقبر من الحجارة فتمنت لو أنه يتهدم وتتخلص منه وقالت في سرها إن بنات قريتها يظنون أنها سعيدة وأضافت آه لو كان بوسعي أن أبوح لهن بما يعتلج بصدري لاذكرهن بأنهن يقضين أوقاتهن في الهواء الطلق. تعملن في حدائقكن وفي فسحات بيوتكن ومع صديقاتكن وتربين أحفادكن كما تشاؤون، أما أنا فإنهم يرسلون فرحتي الوحيدة التي هي حفيدي إلى الروضة ويتركونني وحيدة في هذا القبر.

بدأت الجدة لوتسه بترتيب البيت.. وعندما وصلت إلى المكان الذي فيه القفص نظرت إلى العصفور الصغير الذي يتنقل من زاوية إلى زاوية وهو يغرد قليلاً ثم يصمت.. فقالت له: أنت عصفور جميل وطيب تغرد من أجل سعادة الناس من حولك.. لكن تغريدك هذا ما هو إلا ألحان حزينة ترثى فيها لحالتك في هذا السجن.. فأنت يا حبيبي قد خلقت كي تطير في الفضاء الرحب بين السماء والأرض وحول الأشجار والزهور مع أقرانك العصافير، لكنك الآن مسجون في قفصك الجميل دونما أولاد أو زوجة تؤنس وحدتك، ومسحت الجدة لوتسه يديها ثم فتحت باب القفص، ودهشت من العصفور الذي لم يغتنم الفرصة ليخرج من سجنه كما لو أنه قد نسي الكون والفضاء والسماء، ومدت الجدة لوتسه يدها وأمسكت بالعصفور وحملته إلى الشرفة وفتحت كفها بيد أن العصفور لم يطر!!.. فما كان منها إلا أن قذفت به إلى الفضاء وبدأت تراقب سلوكه، فبدا لها العصفور مرتبطاً لا يحسن الطيران بل يقوم بحركات عشوائية وكأن الهواء الحر الذي دخل إلى صدره كاد أن يخنقه ولكن بعد فترة من الزمن استجمع قواه وطار في فسحة الحي ثم عاد بعد هنيهة منهك القوى ليحط على حافة الشرفة فشعرت الجدة بقشعريرة تهز كيانها رعباً من أن يكون مصيرها بين جدران هذا القبر الحجري مثل مصير العصفور المسكين. ولكن كان هنالك ضوء أمل خافت.. يضيء حياتها.. بيتها القديم في القرية حيث عاشت ووضعت فيها ابنها محي الدين وربته.. صاحبه الجديد يريد أن يبيعه.. ربما.. من يدري؟!..

❑❑❑

# جدل الأرواح

## بقلم : ليقوج نيللي

■ ترجمة ممدوح قوموق ■

عظمتان تخارجتا وانفلشت إحداهما عن الأخرى هما الحياة والزمن. يحصي العام شهوره كما تفعل آلة أكورديون ذات اثني عشر إصبعاً. وفي أعماق موسيقى الزمن تتردد أصداء الريح وهمهمات المطر وهسيس الثلج وهزيم الرعد ودوي البرق، كما تنساب ألحان الفرح وإيقاعات الأحزان والمراثي من آلة موسيقية واحدة.

العالم وحدة متناقضة، كما قوس القزح الواحد ذي الألوان السبعة المتناسقة المتخارجة. وما يحدث في العالم هو نتيجة التضاد والتعايش بين الحياة والموت، الذكورة والأنوثة، الخير والشر، الحرارة والبرودة. هنالك قوتان تمسكان بكل هذه المتناقضات، وتحفظها في حالة من التوازن، وفي منأى عن الاختلاط والفوضى، هما قوة الحب وقوة الروح. هاتان القوتان لا يمكن رؤيتهما بالعين المجردة مهما صفا الجو، ولكن لا خوف من نهاية العالم طالما استمرَّ دورهما في الحياة.

الروح والحب. هنالك من ينكر وجودهما. أمثال هؤلاء لا يستحقون إلا الشفقة. أين بدايات الروح والحب يا ترى؟ لا شك أن هذه البدايات هي في سويداء قلب الأم. ولكن أين نهاياتهما؟. هل صدقنا القول أن الروح خالدة لأننا لا نريد الضياع في العدم؟. أم أننا نبني آمالاً كاذبة انطلاقاً من كونها لا ترى بالعين!؟. روحي القلقة على وجودي كله الآن جزء من جسدي، والحب يملأ قلبي، فلماذا يلحّان عليّ بالعودة إلى السماء كلما تطلبت الروح الرقي درجة في سلم السمو؟ وكلما سمت الروح، وكبر الحب، فإنهما يسعيان لتجاوزي ولمعانقة كل الأحياء. وخلال هذا كله تنمو روحي وتكبر. وتتفتح عيناها وتزيد قدرتهما على الإبصار، وتنظران نحو الآفاق البعيدة مصممة على أن لا تخيب نظراتهما، فينجلي لهما ذلك الجمال الذي لايمكن وصفه لموطن الأرواح، حيث تسبح الهوينا في النور. انظروا إلى ضياء هذا النور وتأملوا. إنه يشعُّ في وجوهنا، يغشي أبصارنا، ويدغدغ أرواحنا. هكذا نستطيع القول إن كل شعاع من أشعة الشمس هي روح ، روح صافية نقية . من أجل ذلك تتمتع الشمس بكل هذه القوة والقدرة. ومن أجل ذلك هي مستودع هائل للضوء والدفء، تنشر أهداب الحياة في أعماق الفضاء. وتهمس لي بأن حياة جديدة لا تدبُّ على الأرض إلا عندما تلامس أشعة الشمس قشرتها.

أنصتوا إلى أغنية أشعة الشمس: آه ما أحلى الحياة وما أجملها، أتسمعون؟

لا يجدر السماح لعين حاسدة برؤية قرص الشمس عندما تطلُّ من فم السماء كصفار بيضة.. كلما اشتدت أشعة الشمس وانسابت، فإن روحي تنساب من بين أضلعي تاركة جسمي في حالة من الارتخاء، وتحلق في الهواء كخيط حريري رفيع متجهة إلى الوادي القريب. وأغذُّ الخطى للحاق بروحي كما في كل مرة، حتى يسدَّ النهر الملقى على أديم الأرض كشريان طريقي.

وتتدافع أمواجه اللطيفة الرقراقة فوق ظلي. وينساب النهر الذي يتلوى كأفعى محرراً نفسه من بين أصابع أشعة الشمس التي تحاول الإمساك به. وتتدافع الحصى والرمال على شاطىء النهر متأرجحة بين الإقدام على الاندفاع مع التيار أو الإحجام عنه، وكأنها ترقص على أنغام الريح.

ها هو رجل الغابة يراقب من مكمنه بين الشجيرات، حورية النهر التي تسبح نحو الضفة، وهو على أهبة الرقص. وتلتفُ الغابة الشعثاء على خصر الجبال العالية التي تطلُّ وسنى على الوادي من الشمال ومن الجنوب. والأشجار الباسقة تتناجى مستسلمة لأحضان النسيم. وكل ما تراه العين يؤكد لنا كم هو ثريٌّ عالمنا هذا بأحيائه، وبشمسه التي تنفخ الروح في كل ما تمسُّه أشعتها.

وأسحب ظلي من فوق صفحة الماء التي تعكس صورتي كالمرآة وأنا أتطلَّع بعينين ثاقبتين إلى حدود وطني. وأجلس متكئة على يديَّ أتمرَّغ في أشعة الشمس ووجهي إلى السماء. يخيَّل إليّ وأنا في مكاني هذا كأنني أحضر اجتماعاً للأرواح. يقول أحدها: (لو كنت أملك من رجاحة العقل نصف ما كان لديّ من شجاعة في حياتي الحافلة، لما انهارت مملكتي. وتنهض أشعة الشمس مؤيدة تلك الروح: (ليت ذلك تحقق. ليت.. ليت..) وتقول روح أخرى: (كنت شديد المراس في المصارعة، ولم أتوقع خنجراً في الظهر. لولا الخداع..).

وتنهض أشعة الشمس مؤيدة تلك الروح: (ليت، ليت، ليت). وتقول روح ثالثة: (كنت أطلق سهمي فيصيب الهدف الذي أحدِّده له، ولكن لم يخطر ببالي أن أخاً يمكن أن يبيعني..).

وتنهض أشعة الشمس مؤيدة تلك الروح: (ليت، ليت، ليت) وتقول الرابعة: (كنت دوماً في المقدمة عندما ينطلق شجعان الوطن. وعندما نصطدم بالعدو كنت كالترس، لا أترك عدواً حياً ورائي.

كم كان هلاكنا قاسياً ونحن نقدِّم أفضل ما لدينا)...

وتنهض أشعة الشمس مؤيدة تلك الروح: (ليت، ليت، ليت). وتقول الخامسة: (بالزور والبهتان دفعوا بنا إلى دروب التهجير، فأصبح البحر الأسود لحداً وماءً للغسول..).

وتنهض أشعة الشمس مؤيدة تلك الروح: (ليت، ليت، ليت). وتقول السادسة: (كانت لدينا أفكار عظيمة من أجل الوطن، ولكن اعتبرونا من أعداء الوطن)...

وتنهض أشعة الشمس مؤيدة تلك الروح:( ليت، ليت، ليت). وتقول السابعة: (كان أكثر المحاربين أباً وابنه، وبقي الأحفاد يتامى لا يدرون ما يفعلون)...

وتنهض أشعة الشمس مؤيدة تلك الروح: (ليتهم يستطيعون أن يتَّحدوا ويتضامنوا)..

وبعد سماع هذه الأقوال أغضُّ بصري وأنظر إلى الأرض بتثاقل، وأركز نظراتي على الدودة التي زحفت نحو قدمي وأخذت تتسلق ساقي. وترتجف خلاياي على إيقاع دبيبها على جسدي وترتعش روحي وتتأرجح. وفجأة يخيل إليّ أنني أفهم لغتها التي لا تلتقطها أذناي: (يستطيع هذا المخلوق أن يزهق روحي بلمسة واحدة من يده. ولكنني لو عثرت عليه ميتاً لثقبت جسده وحولته إلى منخل.. تفوه، إن رائحة الروح تفوح منه، يا لها من رائحة!.).

أبعد الدودة عن ساقي متأثراً بما سمعته. وأركض نحو الماء، وألقي نفسي في أحضانه، وأفتح عيني تحت الماء ببطء وأنظر حولي. ويعاودني الهدوء تدريجياً وأنا أنظر إلى فراخ صغار السمك التي تتقارب ويصطدم بعضها بعضاً وتتباعد. وأسمع من جديد صوتاً. من سمع في حياته صوت السمك الذي قال إنه أبكم؟!. وتألف روحي الكلمات تدريجياً وتفهم معانيها:( هل جئت أنت

أيضاً لتأكلنا! اخرج من هنا نحن لا نتجاوز حدود الماء لأننا لا نستطيع التنفس على الأرض، هذا هو عالمنا. هذه المخلوقات الغدارة لا تستطيع التنفس في الماء، ومع ذلك لا تتركنا وشأننا. تمسك بنا عنوة ولا تتركنا حتى نختنق بعيداً عن الماء.. مهلاً.. هل كان أجداد هذا المخلوق طعاماً لأجدادنا في يوم من الأيام!.. هيا قدِّم روحك قرباناً للماء يا رسول حامل الشبكة اللعينة، فنحن نستطيع تدبرُّ أمرك حين تغادرك روحك)...

وعندما جعلت هذه الكلمات المرة روحي تأنف الماء، غادرت الأمواج وقطرات الماء تنساب من فوق جسدي وأنا أجرجر روحي المبتلة. وعندما استسلمت لأشعة الشمس لأريح روحي التي أنهكها الماء والكلمات، حلَّق نسر من نسور الجبال فوقي وهو يجدِّف في الهواء بجناحيه، وصاح بأعلى صوته من فوق: ( إيه يا ابنة من أحكموا سيطرتهم على الأرض وراءك تاريخ غارق في الضباب وأمامك القمة الصعبة المرتقى، لولا أن باطن الأرض مصيرك، ماذا كنت ستفعلين! إنني تواق لأنقر بؤبؤ عينيك).. وتتناثر روحي التي سمعت كل هذا إلى شظايا وتتفرَّق مذعورة في أنحاء جسدي. كنت سأقبل التضحية بعمري لو عرفت أن كل الأحياء يمكن أن تتعايش في وئام.

ويهبط المساء وئيداً. وتمسح الريح أديم البشرة تاركة فوقه قشعريرة باردة لأن الشمس بدأت تلملم أشعتها. وفي حين أقف مطرقة، أحسُّ فجأة بشيء يطير عبر الوادي وهو يرسم خطوطاً في الهواء بلغة لا أعرفها. فأدقِّق النظر في كل الاتجاهات بحثاً عنه دون جدوى، وتشدُّني روحي التي لم يعد يطيب لها المقام بجانب النهر. ولكن لا يهدأ لي بالٌ في البيت أيضاً. ولأنني أبحث دوماً عما لا تراه العين، فإنني لا أجد مجالاً للراحة. إن صوته يرن في الفضاء، ولكن أين هو؟. أفتح نافذة الشرفة لتطلَّ منها روحي.

( ها هو!، ها هو!) لقد بدأت أرى شيئاً. إنه يبدو تارة مثل طائر اللقلق محلقاً بجناحيه في الفضاء الرحب. ثم تراه كحصان أصيل ضامر محجَّل يطير عن جبين السماء. يبدو للوهلة الأولى وكأنه قزم.. ويظهر بعد ذلك كبطل عملاق. وفي كل الأحوال إنه غريب وفريد كانفتاح أبواب السماء في ليلة القدر.

عرفت روحي أن هذه الأوصاف لا يمكن أن تنطبق إلا على روح، وروح إنسان حي طارت بحثاً عن الأمان لأرواحنا. لولا الحول الشديد واختلال قدرة عين الإنسان على الرؤية، لكان بإمكانه أن يرى الأرواح المزدحمة حوله في كل مكان. لقد اتضح لي كل شيء الآن. أينما كانت الأرض التي جاءت منها هذه الروح الطائرة، فلابد أن تكون أحد معارفي، وإلا لما شبهتها باللقلق أبداً. إن روحي أخبرتني منذ زمن بعيد أن بيني وبين اللقالق صلة قربى.

وتجلس روحي أمامي توشوشني لتشرح لي الأمر وتزيده إيضاحاً. إن الروح التي طارت هذا المساء فيما يبدو هي ( روح الحداد) غوكآبسة إله الحديد نفسه (لبش) هو الذي سقاها وهيَّأها للطيران. أما التي ربته، وغنت له أغاني المهد فهي ( بسخوه نانا) سيدة النهر والموسيقى التي رقص حصانه المتوحش على أنغامها هي من ألحان النارتيين القدماء، والشعلة التي بيده، قدمها إليه سوسروقة النارتي بنفسه.

عندما شرحت لي روحي واقع الأمر، جلست بارتياح على حافة النافذة، وأخذت أداري روحي التي لم أترك لها مجالاً للراحة منذ وقت طويل. ويلتحف الليل ببرنسه الأسود ويهدأ دون أن يسبب لي أي ازعاج. أما ذلك الذي ما فتئت روحي تراقبه، فإنه لم يهدأ، ولم يعرف سبيل الراحة. يبدو أن الليلة

دورة في العمل، فها هو يبذر النجوم في السماء كما تبذر في الأرض حبات الذرة. ما فائدة هذه النجوم للإنسان ياترى؟ هل من الممكن أن تكون أبجدية للحياة نقرأ من خلالها حال الدنيا؟!..

ها هو (غو كآبسة) يوقد بعض النجوم بعناية فائقة بمشعل سوسروقة الذي يحمله. إنها نجوم سبعة– الأخوة السبعة– نجوم الدب الأكبر. ولكن ما الذي يريد غو كآبسة أن يقوله لنا من خلال عمله هذا؟. أي لغز يريد أن يحله لنا، وأية موعظة يريد أن يتركها لنا من خلال الكلمة التي يقول أننا بحاجة ماسة إليها؟! إنها كلمة من سبعة أحرف.. أ– ل– م– ح– ب– ب– ة شعلة المحبة، ونور المحبة هو ما يجب أن يبقى ويدوم بين الناس. وهذا ما جعل الشرارة التي في قلبي تتوقد كالنار.

إن غو كآبسة لم يبدأ مهمته الليلة، إنماقضى ليالي كثيرة في الفضاء وهو يوقد النجوم. ولكن من الواضح أن الحياة لا يمكن أن تستمر بكلمة ( المحبة) وحدها أو بضياء النجوم. إن مغناطيسية الأرض لا تحتفظ بالإنسان فوقها عبثاً. ولا تمنح الأرض ثرواتها للإنسان إلا إذا امتدت إليها يده بالخير وإلا فإن من المحتمل أن تردد الأرض صدى طلقات الرصاص. ومن أجل ذلك يترجل غوكآبسة ويهبط مسرعاً إلى الأرض حالما ينقضي الليل، وتضيع النجوم في ضوء النهار، إنه يزرع أرض بلاده دون كلل أو ملل بالغلال والأزهار. وهو يعتني عناية فائقة بشكل خاص بزراعة الشعير والذرة، والذرة الصفراء. ومن الأزهار يعتني بشكل خاص بزهور (ستناي) البيضاء الجميلة. وعندما يغفو قليلاً وهو يرتاح في حضن أمواج الخضرة، يحلم بأنه أصبح مصوراً. ويرسم بمهارة فائقة الشمس الساطعة والهلال المضيء. وعندما يصور زهور ستناي الغارقة في خضرة البراري، يحدث له أمر عجيب . فهذه الصورة تبدو من قريب مساحة خضراء . أما عندما تنظر إليها من بعيد فهي صورة لعلمه القومي.. ويتخيل غوكآبسة نفسه فجأة وقد ركب حصانه الذي اعتاد أن يحلق به في الفضاء وانطلق من شواطئ البحر الأسود، يزرع بلاد العالم شرقاً وغرباً وهو يحمل هذا العلم ليعيد تعريف أعلام العالم بعلم بلاده.

الحلم حلمٌ، ولكن ما هو الحد الفاصل بين الحلم والحقيقة؟. الحلم هو ماتراه وعيناك مغلقتان. أما الواقع فهو ما تراه بعينين مفتوحتين. ولكن الروح، كيف ترى؟ وبماذا ترى؟!. وهل ترى الروح الأرواح الأخرى؟!. بالطبع، إن روحاً فقط هي التي يمكن أن ترى الأرواح الأخرى. الأسئلة كثيرة، ورغم ذلك لا يوجد أي سؤال لا يمكن الإجابة عليه. ولكن الأسرار موجودة، وحتى ينكشف أمر أي سرٍّ فإنه بحاجة إلى شيء واحد فقط، الزمن. لا أدري إن كانت روحي تخدعني، ولكنها تقول لي: الوجود حقيقة قائمة بذاتها أما العدم فإنه نسبي وهو مرتبط بالمكان فقط.

ما هو أقسى عبء على روح الإنسان؟ الوحدة! الوحدة كالشوكة توخز الروح بدون انقطاع. عندما بدأ غوكآبسة يؤلمه انقطاعه عن الناس مؤخراً بعد أن قدم لهم خدماته حقباً طويلة، اتجه كغزالٍ متعب صوب النهر الذي كان قد حلَّق فوقه من قبل. وها هو يرقد بجانب النهر الذي تنساب مياهه بهدوء، ويشرب حتى يستعيد قواه الخائرة. وبعد أن يروي غوكآبسه عطشه، يمدُّ يده ويلتقط حجراً بحجم قبضة اليد ويدقق فيه النظر، فإذا به صلدٌ وقاسٍ. ليت يده كانت تتمتع بمثل هذه الصلابة!. صحيح أن قبضة اليد المضمومة تتمتع بقوة أكبر من قوة اليد المفتوحة الأصابع. إن صلابة الحجر ناجمة عن تماسكه. وهذا شأن الناس أيضاً. إذا تماسكوا وتكاتفوا زادت قوتهم. أما إذا تنافروا فإنهم يغدون

كحفنة من تراب. هذه الأفكار هيجت أحزان غوكآبسة وأعاد الحجر إلى مكانه. وبرفقة روحه التي قادته، اتجه صوب مسقط رأسه. وهناك وجد الناس وقد أصيبوا بمرض النوم المعدي. طرق غوكآبسة أبواباً عديدة وهو يأمل أن يوقظ النيام. وعزف لهم على ناي (آشمز السحري) من طرفه الأبيض في العديد من باحات البيوت. ومن الناي كان ينبعث صوت الوطن مترعاً بالربيع والدفء:

**أنا التي أوجّه كلماتي إليكم**
**أنا الأرض، الموطن الأم للشعب الشركسي القديم.**
**يا أبنائي البررة، ويامهجة الروح، يامن لا حياة لي بدونهم!**
**يا من لحن الموسيقى كلماتهم!**
**ويا بناتي معقد آمال الرجال، رمز النقاء!**
**يا من تربين أجيال الأمة جيلاً بعد جيل.**
**إنما أوجه كلماتي أليكن أنتن!..**
**انظروا نحن حضن أمكم مرة أخرى يا أبنائي!.**
**وجِّهوا أنظاركم إلى حدود الوطن بعيون ثاقبة!**
**جمال.. جمال.. في كل زمان جمال لا حدود له.**
**مياه الجبال، شلالات الفرح، تضيع في الوديان الضيقة.**
**وتربي نسور الجبال فراخها وفقاً لعادات الجبال**
**وتربت غيمة برتقالية على قمم الجبال بدلال.**
**وترقص أمواج البحر الأسود على إيقاع العواصف.**
**جمال..**
**في انهمار الثلوج جمال، وفي تراقص الزهور جمال.**
**ومن أجل الجمال إنما يولد الإنسان..**
**أنا التي أخاطبكم.. أنا..**
**أرض الوطن الأم للشعب الشركسي القديم..**
**لقد أسر جمال أمكم ألباب الكثيرين من الأغراب،**
**وألفَ الكثير منهم الأغاني من أجلي.**
**ولكن أديمي مروي بدموعكم أنتم يا أبنائي، وبدمائكم،**
**وقد أحرقتني الأحزان والأهوال التي عانيتم منها،**
**فأنا أم..**
**وكلما أعدت النظر في تاريخنا،**
**تاريخنا المثقوب الذي غدا ما يشبه المنخل**
**فأنا لا أرى سوى مآسيكم يا أبنائي،**
**ولا أرى سوى جراحكم يا أبنائي.**
**لقد كان رهانكم ألا تستسلموا أبداً،**
**للأتراك القادمين من وراء البحر.**
**وكان رهانكم ألا أقع فريسة،**
**في أيدي الأعداد تتار القرم.**
**وكان رهانكم الأكبر أن تحموني**
**من القوى السوداء لجيوش القيصر الروسي.**
**أخاطبكم الآن، يا أبنائي البررة!**
**يا من يتحلون بالسمات الإنسانية**
**كزي قومي لهم!**
**حافظوا على قواكم وعلى روح المقاومة في أعماقكم.**
**وإياكم القبول بأن يتحول وطنكم**
**إلى وطن للأغراب!!..**
**ومهماكانت صعوبة الحياة علينا في هذه الأيام**
**فإننا نستطيع مواجهتها إذا اتحدنا بعقولنا..!**

صحيح أن نداء الأم أيقظ الكثيرين من رقادهم، ولكن هؤلاء لم يكونوا قادرين على رفع رؤوسهم. وكان غيرهم قد سبقوهم في اليقظة، ولكن هؤلاء كانوا مسافرين، قد أطالوا السفر ولم يعودوا بعد من سفرهم. وأخذ الكثيرون يشككون في كل ما أنجزه غوكآبسة إلى الآن ، و كانوا على وشك توجيه الاتهام إليه رسمياً بالجنون . وعندما عرف غوكآبسة بذلك انفعل وحزن كثيراً لأن الناس لم

يفهموه (مهما طال الزمن، لابد أن يأتي يوم يفهمونني فيه)- هكذا قال لنفسه، واتجه إلى مجرى النهر. لقد هطلت أمطار غزيرة ليلة البارحة، وإذا كان النهر قد فاض بسبب هذه الأمطار، فقد يحتاج الناس إلى المساعدة لعبوره.. وعندما وصل إلى كتف النهر وقف جامداً لا يصدق ما تراه عيناه. رأى مجرى النهر الذي كان مليئاً بالمياه الصافية الرقراقة، جافاً وغائراً كجرح فوق أديم الأرض، والدماء تنزُّ من هنا وهناك ومن الشقوق التي حدثت في الأرض في أماكن متفرقة. كانت الدماء تفور وتندفع إلى الأعلى ثم تختلط أمواجاً كأمواج النهر.وفي بعض الأماكن أصبحت الدماء سوداء وجمدت في أماكنها داخل الشقوق. وكان الشياطين تقيم عرساً وهي تحدث ضجيجاً هائلاً في المكان الذي اعتادت سيدة النهر أن تسبح وتلعب فيه. وكان رجل الغابة يطل من تحت الأشجار بين الحين والآخر وهو يمط رقبته.. وملأت الأبخرة الثقيلة المتصاعدة سماء الوادي كله.

غرق غوكآبسة الذي رأى كل ذلك في هم عظيم. لابد من مساعدة الناس على عبور نهر الدم. ولكن كيف؟. أول ما خطر له هو الكتاب الصغير الذي يحمله في جيبه، وهو على يقين من أن كل ما استطاع انجازه من قبل في السماء والأرض، إنما تم بفضل هذا الكتاب الصغير الذي لم يكن يضمُّ في طياته الكثير كالقرآن مثلاً. ولكنه كان يؤمن بأن المساعدة التي يمكن أن يقدمها له هذا الكتيب لا حدود لها. ولكن هذا اليقين لم يعد ينفعه في شيء الآن. ها هي أحرف الكتاب قد احمرّت وتلوَّنت واختلط بعضها ببعض. كما اختلفت معاني كلماته وجمله وتداخلت، ولم يعد الكتيب قادراً على تقديم أية مساعدة. وعند ذلك لم يجد غوكآبسة من مخرج لهذا الوضع سوى إقامة سلسلة من الأرواح. (لنربط جميعنا أرواحنا بعضها إلى بعض، ولنبن جسراً من الأرواح. هذه هي الفرصة الوحيدة التي أمامنا، وليس لنا خيارٌ آخر) عندها انتظرت الأرواح بعض الوقت وقد اقترب بعضها من بعض خشية أن يدوس أحدها على الآخر أو يسحقه. ولكنها تماسكت فيما بعد رويداً رويداً. وعندما خلقت الأرواح المتباينة جسراً امتد كقوس قزح فوق مجرى النهر، التقط العالم أنفاسه، وهو يخشى أن يسبب أي أذى لسلسلة الأرواح دون قصد. وكان من جهة أخرى في غاية السعادة كأم التقى أبناؤها تحت أنظارها.

وقدّم الناس آيات الشكر لغوكآبسة الذي وجد مخرجاً ومعبراً للناس. واتفقوا على إعطائه مكان الصدارة في كل مناسبة ومجلس عرفاناً بجميله. وذات يوم قرروا عقد اجتماع شعبي عام في الخلاء عند سفح جبل (بغه وانه) بقيادة غوكآبسة. وبينما هم في طريقهم إلى مكان الاجتماع، تحتّم عليهم أن يمروا بالبيت الأبيض الكبير. وعندما وصلوا إليه توقفوا. كان من عادة الناس أن تغشى أبصارهم عندما ينظرون إلى هذا البيت. وككل مرة يصلون فيها إلى هنا وقفوا صفوفاً متراصّة وقد بهتوا لجمال هذا البيت، وزاغت أبصارهم لرؤيته، وأخذوا ينحنون مادين أيديهم ويسجدون قبالته. ولم تكن المرة الأولى التي يفعلون فيها مثل هذا، والتي يقدمون فيها آيات الولاء والاحترام لهذا البيت، إنما كانوا قد اعتادوا على هذا الانحناء والسجود منذ مدة طويلة.

كان كبار القوم كلهم يلبسون زياً موحداً، وقد أخرجوا جميعاً أعلاماً رسمت عليها صور للبيت الأبيض الكبير ورفعوها.. كان غوكآبسة في مثل هذه المناسبات يضع يده على الكتيب الذي يحمله في جيبه العلوي، ويضغط به على قلبه. وعندما ضغط عليه هذه المرة بيده المتصببة عرقاً،

أحس أن جلدته قد انزاحت. وبعدما أن وجد الكتيب بهذا الوضع، تطلع صوب البيت الأبيض مباشرة، فلاحظ أن لونه قد تحول من البياض الناصع إلى الرمادي.(كيف حدث ذلك؟ هل زاغت عيناي أم ماذا؟ انظروا معي رجاء، يخيل إليّ أن هذا البيت ليس بالبياض الذي كنا نتخيله به.

– لا، لا، لا تقل هذا. لا تفكر بذلك أبداً، إنه أبيض ومضيء ونظيف.

– دققوا النظر إذن في أساس البيت. – قال لهم غوكآبسة. ولكن لم يبال به أحد، بل أخذوا يعيدون ترتيب صفوفهم وهم يؤكدون كما كان من قبل، وكما كان دائماً. وينظر غوكآبسة بقلبه وروحه وعينيه مدققاً، فيرى العجب العجاب. كان أساس البيت مبنياً من الجماجم وعظام ألواح الكتف. وكانت قطرات العرق ذات الرائحة النفاذة المتصببة من جدران البيت قد رسمت عليه بقعاً من الرطوبة. وكان البيت متوجاً بما يشبه رأس خروف مذبوح مائل بعض الشيء.

– كيف يحدث هذا؟ ألا ترون ما أراه؟ – يصيح غوكآبسه بأعلى صوته.

– كل ما نراه رائع وفي جمال الحوريات– أجابوا بصوت واحد.

ويهديء غوكآبسة نفسه، ويدقق النظر في واجهة البيت الكبير، فيبدو له تارة كديك أبيض كبير ذي عرف أحمر قانٍ. وفي هذه الحالة يخيل إليه أن جميع المجتمعين يحومون حوله كدجاجات.وتارة أخرى يرى في واجهة البيت صورة وجه مألوف،وعندما يدقق النظر فيه يجده يشبه وجه صاحب التمثال المنتصب وراءه في مواجهة البيت. ولما تأكد من ذلك بعد النظر مرة نحو التمثال، ومرة أخرى نحو البيت الكبير، جمد في مكانه كالتمثال. وبعد قليل يمدُّ يده ببطءٍ إلى رأسه ويمسك به وكأنه يتفقده، ثم يسأل بأعلى صوته وفراغ العالم حوله يردد صدى سؤاله: ( إلهنا الغالي الكلي القدرة، كيف يحدث هذا؟).

وفي خضم ذلك تبدأ الأرض تهتزُّ وكأنها تتأرجح بفعل قوة خارقة، وتتراكض النيران المندفعة من شقوق الأرض وهي تحرق كل ما تجده أمامها. وتنغلق الأرواح على ذاتها. وتنتحب السماء بلوعة شديدة وكأنها توشك على الانفجار. وتتراقص الزوابع العمودية وكأنها تكنس التراب نحو السماء. من يدري ربما توصل عينات من قذارات الأرض إلى السماء. ويحمي غوكآبسة وجهه بذراعيه من الرياح الشديدة التي لا تتوقف. ويتمايل وهو لا يكاد يهدأ على الأرض التي تموج من تحت قدميه. ويتماسك قليلاً ليخرج الكتيب الذي بلي غلافه من جيبه. هذا الكتيب هدية من صاحب التمثال المنتصب في مواجهة البيت الأبيض الكبير. وكان يعتمد عليه لإنقاذه اليوم من هذه المحنة، ولكن أنى له ذلك. فها هو الكتاب يسودُّ في يد غوكآبسه تارة ويبيضُّ تارة أخرى ثم يحمرُّ، ويتشقق كأرض عطشى للمطر وينفلق إلى ثلاثة أقسام، ثم خمسة عشر قسماً ثم يتناثر نتفاً صغيرة، ثم يذوب ويتميَّع في كفه، ويتسَّرب من بين أصابعه وهو يحرقها، ثم يسيل كالدم حتى لا يبقى منه شيء. وعندما يرفع غوكآبسة رأسه بصعوبة وينظر حوله فيرى الناس الذين كانوا يقفون صفوفاً متراصة يرقدون أرضاً وقد تناثروا وكأنهم أوراق الشجر وقد عبثت بها الريح وبعثرتها على الأرض.

كان بعضهم يرقد على ظهره، وبعضهم الآخر منبطحاً على وجهه، وآخرون جاثين على ركبهم، كلٌ يرقد في المكان الذي قذفته به الريح منتظراً ما سيحدث بعد ذلك.. أما الذين كانت وجوههم متجهة إلى السماء، فقد أخذوا يصعدون ابتهالاتهم وتساؤلاتهم واحداً بعد الآخر: (إلهنا العظيم، قل لي من أنا، وما الذي أعيش من أجله على هذه الأرض؟) (ربنا، سبحانك اللهم، لم عمت الفوضى هكذا على الأرض؟) (إلهنا القوي، القادر المقتدر، ما الذي سنجنيه من حياتنا هذه؟).

ويبدأ المنبطحون والجاثون على ركبهم بإقامة الصلاة، وتتصاعد منهم بين الفنية والأخرى نداءات يرددونها بصوت عال: (الله أكبر) (اغفر لنا يا الله) ( الله الكبير وحده، الله تعالى وحده هو من بيده أمرنا).

ويشرع الذين كانوا راقدين كيفما اتفق بالنهوض. ويزحفون نحو البيت الأبيض وصرير أسنانهم يزداد بازدياد غضبهم كلما اقتربوا منه. ومع كل خطوة يخطونها يزداد حماسهم حتى إذا وصلوا إليه بدأوا بتهديمه. ويسحب بعضهم عظام لوح الكتف من بين الجماجم ويلقون بها على الأرض. بينما أخذ البعض الآخر يتسلقون الجدار وهم يستندون بأصابع أقدامهم على محاجر الجماجم. ويصعِّد قسم منهم بصقاته إلى الأعلى، بينما يبصق غيرهم إلى الأسفل. وها هو جمع منهم قد أحاط بالتمثال وأخذوا يضربونه بقبضاتهم.

وقف غوكآبسة غارقاً في تفكير عميق.(يا إلهي هل يحدث لنا كل هذا لأننا فارقنا جادة الصدق والصواب؟!) وعندما عاد غوكآبسة إلى كامل وعيه، لم يستطع القبول بردود أفعال الناس الذين لحق بهم حيفٌ عظيم من قبل. وبدأ ينادي الناس:(أيها الناس! يا من أرجو أن يشملهم الإله بعنايته، أرجوكم، اسمعوني إن كانت لديكم حرمة للمسنين!. العظام التي بني بها هذا البيت هي عظامنا. والجالسون في هذا البيت هم من لحمنا. والقبضات العارية لا تستطيع أن تفعل شيئاً بحجر هذا التمثال الصلد. إن قوة الكلمات ليست أقل تأثيراً. ونحن بالحوار نستطيع أن نقنع سكان هذا البيت بإزالة التمثال بأنفسهم. لانريد أن يزيد عدد تلك الجماجم جمجمة واحدة، إذ أننا من غير هذه المشاكل قلة ضئيلة العدد) هكذا خاطب غوكأبسة الجموع فأنصتوا إليه.. لو رأى أحد الناس من قبل في أحلامه ما يحدث اليوم لما صدق نفسه.

كان الأوان قد آن لتحرير الناس من قيودهم، ولو كان ذلك على حساب تكسير أيدي العاملين وأرجلهم ليتخلصوا من هذه القيود، كما آن الآوان لتحرير الكثير من الأسر، وربما لوقوع البعض الآخر في الأسر.

وحان كذلك يوم إزالة التمثال. كان نهاراً حاراً غائماً كثير الضباب، ووقف غوكآبسة ينظر للمرة الأخيرة إلى التمثال الذي طالما صور العديد من الناس أطفالاً وكباراً. كانت هذه الصور مكدسة في اليد كأوراق اللعب، فأخذت تتساقط من بين الأصابع الحجرية وتقع متراقصة على الأرض، ورغم الابتسامات المرسومة في وجوه هذه الصور، فقد كانت عيون أصحابها تنضح بالحزن،كيف لا وهي إما أسيرة التمثال أو ضحية له. وعندما أزالوا التمثال امتلأت عينا غوكآبسة بدموع لا تشبه قطرات المطر التي تجمعت في قاعدة التمثال والتي تساقطت عندما رفعوه، وإنما تلك الدموع التي يقاوم الرجال سقوطها من أعينهم، فتسقط إلى الداخل لتروي قلوبهم وأرواحهم، دموع حارة نقية كتلك التي تذرفها روح الإنسان عند فقدان الأمل والإيمان، ويبتعد غوكآبسة ببطء عن الناس ثم يجلس. وأخذت روحه ترتجف لأن قواه بدأت تذوب كشمعة وهاجمته بعض الأفكار بإصرار:(يمكن إقامة بيت أخضر بدل البيت الأبيض، كما يمكن إقامة تمثال لشخص آخر، ولكن من الذي يستطيع أن يخبرنا أيهما أفضل، الكتاب الذي قرأته وتعرفه، أم الكتاب الذي فتحته للتو ولم تقرأه بعد؟!. هذا يعتمد على معرفة الحقائق حول الكتاب الجديد).

تتراقص تلك الروح، روح الحداد (غوكآبسة) في قمع الحياة كما تتراقص حبات القمح وذرات التبن في الهواء، عندما يُلقى بها إلى الأعلى لفصلهما عن بعضهما البعض. وما فتئت العديد من التهم توجّه إليها: إنها تتحدى النجوم، إنها تتحدى الغلال. إنها تقوم بتحريض الناس الذين غرقوا في المتاعب في الآونة الأخيرة، ولكن تلك الروح في حقيقة الأمر كانت قد أخذت تردد لحناً جديداً غريباً وغير معروف، وبدأت تحسُّ بالبرودة من جراء ذلك.

وهكذا.. أصيبت روحي بالإعياء لأنني لا أملك أرواحاً سبعة. ولا أدري ما هي الخطوة القادمة التي ستقدم عليها روحي التي كانت تستعد للتحليق فهدأت بعد أن بدأت تراقب غوكآبسة.

لا، لا، ها هي ترتفع وتحلق. ألا ترونها؟ آه، يا إلهي! لقد هوت روحي المسكينة التي لم تشتد أجنحتها بعد في قلب الظلام وهبطت إلى الأسفل. إنها تصرخ، تبكي، تسودُّ، وتبدأ روحي ترى من خلال الظلام المتراكم حولها بعض الأشباح. (من هي هذه الأشباح؟) (من أنتم؟!) (ماذا تريدون؟) وتقترب الأشباح، تقترب، تقترب مني أكثر، ثم تحيط بي من جميع الجهات.

**ويقول أحدها: (العالم في بدايته كان غير واضح المعالم مثل روحي. بدأ بحجم حبة التراب ثم أخذ يكبر، وأنت تعلمين أنه أصبح عالماً لا نهاية له في المكان).**

**وقال الثاني:(لم يكن للعالم قعرٌ ولا حدٌ في يوم من الأيام).**

**وقال الثالث: (لقد وقعت الأرض من السماء).**

**وقال الرابع: (لقد انبثقت الأرض من الماء).**

**وقال الخامس: (خلق الله العالم في ستة أيام).**

**وقال السادس: (كانت الدنيا في بداية الخليقة حارة تغلي).**

**وقال السابع: (كانت الدنيا في بدايتها باردة متجمدة).**

**وقال الثامن: (العالم يشبه تفاحة شويت في قلب فرن حار، إذا أخرجتها بردت وتقلصت قشرتها. أما باطنها فيبقى حاراً).**

**وقال التاسع : " العالم كالجوزة التي لها قشرة ولها لبٌ لي جني الجوزمن السهولة بمكان .**

**وقال العاشر: (العالم سيستهلك نفسه بعد مليونين من السنوات.)**

**وقال الحادي عشر: ( سوف يُدمر العالم قريباً بفعل الريح).**

**وقال الثاني عشر: (سوف يدمر العالم بفعل النار).**

**وقال الثالث عشر: (العالم باقٍ وخالد ولن يدمر أبداً).**

وبعد سماع هذه الكلمات، أرى عدداً كبيراً من الناس وقد احتلوا الساحة، وأنني لست وحدي. وها هي روح الحداد (غوكآبسة) وأرواح الجالسين في البيت الأبيض الكبير، وروح التمثال، وروح سيدة النهر، وروح رجل الغابة، وأرواح الديدان والسمك ونسر الجبال، وغيرهم من المخلوقات التي أعرفها وتلك التي لا أعرفها، وقد اختلطت ببعضها البعض وأخذت تتسامر في العتمة. وبدأت الدنيا تتغير بسرعة كبيرة لا تدركها العين. تارة يشرق النور وطوراً يعمُّ الظلام. وهكذا يتداول النور والظلام. وعندما بدأ شعاع وحيد من أشعة الشمس يطل من السماء المظلمة، ارتاحت له روحي الممزقة وبدأت تتطاول نحوه من خلال العتمة وهي تهمس، ضوء، ضوء، نور.

**عن مجلة اتحاد الكتاب القباردييين (أواشحه ماكوة)**

**العدد 2-1992**

❑❑❑

# الجواد الأسود ذو القوائم الرفيعة
## أو المهر الأسود

يوسف غوجل
■ ترجمة : نديم ميرزا ■

كانت شمس الربيع المتألقة التي تنعش الروح قد بدأت تسطع علىالكون ، لم تنته بعد من تجفيف قطرات الندى على أوراق الأشجار والنباتات حين وصلت مع جدي إلى قمة جبل رأس الثور ، في ذلك اليوم أيقظني جدي باكراً وقت الفجر بعد أن أدخلني في برنامج نشاطه اليومي المعد في الغابة أحياناً يصحبني معه لأساعده في جمع الأعشاب البرية الطبيّة التي كان مغرماً بجمعها ، وليكسبني أكبر قسط من النوم تركني في فراشي بعد إيقاظي وغفوتي مرة أخرى دون أن يلح علي بالقيام ريثما يتوضأ وتنتهي جدتي من تحضير الزوادة وجمعها في الكيس .

ومن الممكن أن يكون جدي قد فكر في أن يتركني أنام دون إزعاجي لا سيما بعد أن قالت له جدتي : لماذا تجر معك هذا الصبي المسكين إلى الغابة ، اذهب لوحدك واتركه ،لكنه كان يعرف تماماً أنه لو تركني وذهب لوحده سيلقى مني الإزعاج حين يعود ..

وجمعنا الأعشاب الطبية المتنوعة التي كان يختارها جدي عن دراية وخبرة ، ثم يوعز إلي بمساعدته في قطفها وجمعها ومنها نبتة الكاري وشاي الجبل والحميض وأذن الديب إلخ .. حيث كنا نضعها في الكيس لنقفل راجعين ، وصلنا عند منتصف الطريق ..

وعند قزبرون جلسنا علىالمرتفع المطل على سهل باخسان الأخضر الفسيح .. كنا قد أحسسنا بالتعب والجوع معاً .. وبالطبع قطعنا مسافات طويلة جديدة في الجبال العالية بين الأشجار ولم نشعر بأن رحلتنا كانت شاقة إلا بعد أن جلسنا لنستريح ، وكانت النسمات العذبة تهب علينا لتفتح النفس والشهية للطعام أكثر فأكثر ..

أخرجنا زوادتنا من الكيس ، حيث كانت مؤلفة من الجبن الأحمر الطري وخبز الذرة الصفراء الذهبي الناضج والبصل الأخضر ..

بدأنا بتناول طعام الإفطار بكل شهية ومتعة ، ثم شربنا اللبن الممدد بماء القشطة ، ماأحلى الدنيا من حولنا في تلك الساعة حيث كان الهواء نظيفاً ، والمناظر خلابة ومازلت أتذكر الطعام الذي تناولته مع جدي في ذلك المكان حيث مازال طعمه اللذيذ عالقاً في فمي حتى اليوم ..

جلست مع جدي ونحن نطل على سهل باخسان ونمتع النظر بجماله والذي كان أمامنا مثل الكف ..

في أسفل الجبل كنا نرى قطيعاً كبيراً من الخيل يرعى العشب في السهل النضير وكنا نميز في القطيع حصاناً أسوداً لامعاً جميلاً ..

سألت جدي مستغرباً : من الذي يرعى هذا القطيع الكبير ، كيف تبقى هذه الخيول مجتمعة دون أن تتفرق في أنحاء السهل الفسيح هنا وهناك وقبل أن يجيبني جدي لاحظت خروج فرسين من القطيع فهرع الحصان الأسود إليهما وأعادهما إلى القطيع بحزم وإصرار ..

ربت جدي بدفء على كتفي وبعد صمت قال لي : أرأيت يابني هذا الجواد إنه هو راعي القطيع بل هو فحل القطيع لا يجمع القطيع في بقعة واحدة من السهل فحسب بل يحميه ويحرسه بكل حرص ، وحتى إذا دخل وسط القطيع ذئب جائع يهاجمه ويصده بكل شراسة فذهلت لما قاله جدي وفكرت ملياً بشأن هذا الحصان الصنديد متسائلاً في نفسي :

كيف سيواجه ذلك الجواد الأعزل برجله أنياب الذئب الحادة الكبيرة وأثناء ذلك سمعت صهيل حصان يصدر من بعيد ليصنع مع صخب فيفان نهر باخسان الغزير الذي كان يرغي ويزبد كالبحر الهائج ليعود إلى أسماعنا مرة أخرى ..

كانت مياه الفيضان الدافئة تجرف الأشجار الكبيرة والأعمدة الطويلة بسرعة فائضة دون عناء ، وكنا نرى الصخور الكبيرة تسبح كالحيتان الضخمة مندفعة أمام الفيضان بصورة مرعبة وتصدر صوتاً كدوي الرعد وتحس بأن الأرض ترتج من تدحرجها وقوة دفعها كالزلزال في تلك الساعة الحرجة ، لم يكن المرء ليتصور نفسه عائماً في هذا النهر الغاضب ، بل إن منظره وحده كاف ليجعلك مذعوراً ..

ودون أن أستطيع إطالة النظر إلى النهر الصاخب أمسكت بجدي ووضعت برأسي في حضنه مغمضاً عيني ..

فقال لي جدي : مابك يابني .. انظر انظر إلى ما يفعله ذاك الحصان ..

ظننت أنه يعني فحل القطيع فنظرت باتجاهه فلمحته قد نأى جانباً إلى طرف القطيع ينظر حوله في قلق واضطراب شديدين أمعنت النظر إليه فأحسست بجماله الخارق في تلك اللحظة إنه الأكبر حجماً في القطيع وشعر رقبته كثيف وطويل .

جبهته عريضة . يقف رافع الرأس وحين تهب النسيمات الخفيفة بين الحين والحين كان شعر لبدته يتمايل يمنة ويسرة ..لماذا هو قلق هكذا ،لقد وصل إلى سمعه أيضاً صهيل الحصان البعيد ،وهذا هو الذي جعله مترقباً في حالة تحفز وحيطة وحذر .. شعر بالخطر ،وهذا هو الذي جعل أذنيه منتصبتين كسيخي حديد، وقد فتح منخريه محمحماً بزفرات حارة كالأتون ..

لم يكن قادراً على رؤية حصاناً فحلاً غيره يزاحمه على سلطانه في مملكته المقدسة ، بل لم يكن مستعداً لأن يتصور مجردسماعه صوت حصان منافس آخر ولو كان آتياً من بعيد إنه الحاكم المطلق في هذه الأرجاء ولا مجال لأن يشاركه أحد أو يهود سلطانه أحد في هذا القطيع ..

لاحظ جدي أني أنظر إلى مكان غير المكان الذي يعنيه فقال لي : أين تنظر يابني ألا ترى ذلك الجواد الذي يسبح عبر النهر ..

لم يكن ماء الفيضان يصادف شيئاً إلا ابتلعه إنه لا يبقي ولا يذر وهو كالبحر الخضم المائج فكيف لي أن أرى الحصان الذي كان يسبح فيه .. سألت جدي : أين هو ، فأجابني : إنه ذلك الذي يقوم بمغالبة الماء قرب بالجسر سابحاً باتجاه الشط عند ذلك رأيته وهو يخرج من النهر منهوكاً ، لقد خارت قواه من شدة الإعياء والتعب ..

ولو لم يباعد بين قوائمه لوقع على الأرض ، حيث استطاع أن يثبت نفسه بقي برهة مرتجفاً يشهق ويزفر بصعوبة وهو خافض الرأس .

كنا ننظر إليه وقد حبسنا أنفاسنا دون أن نقول كلمة ، وعشنا معه لحظة بلحظة ، وقد امتلك جوارحنا وأحاسيسنا وهو في ذلك الموقف العصيب مناضلاً بشجاعة خارقة ..

ثم تنفسنا الصعداء وفرحنا لنجاته حين شاهدناه ماشياً معجبين بجرأته التي لا نظير لها ، حقاً إنه لجواد جسور لقد كان حصاناً أسود اللون أيضاً مثل فحل القطيع ، وجميلاً جداً لكنه أصغر منه حجماً كان نحيل الخصر رفيع القوائم ..

استعاد قوته وهم بالمشي لكنه هوى وسقط على الأرض فظننت أن رجله مكسورة وصرخت باكياً مشفقاً عليه كأني ببكائي من أجله قادر على أن أسدي له خدمة ما، لاطفني جدي بحنان وطمأنني بأنه سليم لا علة فيه لكن جدي صاح وهو يهز برأسه الأشيب : ياالله ما أروع هذا الجواد الصغير وما أقوى إرادته ، عجيب

كيف استطاع أن يعبر هذاالنهر الجامح وهومقيد سألته عن القيد الذي يتحدث عنه فأجابني : إنهم ربطوا رجليه الأماميتين واحدى رجليه الخلفيتين بجلد ثخين قام الجواد المتعثر بالقيد متثاقلاً ورفع رأسه قليلاً ثم جال بنظره فيما حوله وهو حزين .. قلت : لعله مصاب بدوار في رأسه ، والله أعلم ثم يباعد بين قوائمه وجال بنظره في الأرجاء بصورة أدق ، ويوجه نظراته باتجاه قطيع الأفراس ، ومن يدري بم فكر ذلك الجواد ويلتفت خلفه لينظر إلى مياه النهر الواقفة التي كادت تبتلعه قبل قليل وكأنه يقول لنفسه : أنجوت من قبضتها لتموت الآن على الضفة الأخرى يا ترى ..

استجمع قواه الباقية ثم قفز جامحاً في ا لهواء وقطع قيده الجلدي الثخين بحركة قوية وانفرجت أساريره بعد هذا الفرج ، قام بحركات دورانية بهلوانية في مكانه ثم هز جسمه ونفضه وفتح منخريه ورفع رأسه عالياً ثم وقف برهة ناظراً إلى قطيع الأفراس ، أطرق برأسه وقد غطته لبدة كثيفة من الشعر ثم ضرب الأرض بحوافره وانتصب ذيله وانطلق يعدو كالرصاص مستعرضاً نفسه كأنه يقول بتحدٍ :أنا هنا ، ناظراً باتجاه القطيع ، حين رأى راعي القطيع ذلك جن جنونه وطار صوابه وبدا كأنه يخاطب نفسه قائلاً : أ أصدق ماأرى ، لماذا أتى هذا الجواد اليافع الصغير المسكين إلى حتفه هكذا ، أيكره الحياة الجميلة إلى هذا الحد ليلقي بنفسه إلىالتهلكة ..

تعال إلي بسرعة إن كنت تستعجل الموت أيها الأحمق ، ثم حفر الأرض بقدميه بهدوء وانطلق يعدو باتجاه غريمه كأنه السهم الأسود الذي كان يطلقه الفارس الأسطوري الشجاع ( أنديمرقان ) ويتقارب الفحلان الأسودان ،وكلما اقترب أحدهما من الآخر كانا يزيدان من سرعتيهما مستعجلين اللقاء والمواجهة المحتومة ، عندما رأيت هذا المشهد المروع انتفضت من مكاني مذعوراً وارتميت خلف جدي دون وعي وأمسكت برقبته أشد عليها أكثر فأكثر كلما اقترب الجوادان أحدهما من الآخر خوفاً عليهما ..

بالسرعة نفسها ودون أي تباطؤ تصادم الجوادان فإذا بالصغير يتدحرج كالكرة على الأرض أمام الجواد الصلب الكبير .. ويقوم بسرعة لينقض على غريمه لكنه يخيب إذ يقع عنقه بين فكي الجواد الكبير ويقتطع جزءاً منه .. ويعض الجواد الصغير فم راعي القطيع ويقطع قسماً منه ونزفت الدماء من الجوادين ..

تصارع الإثنان صراعاً مريراً ودامياً بكل ضراوة وأخيراً قفز الجواد الكبير منقضاً على غريمه فتعثر ووقع جاثياً على الأرض ، وفي هذه الأثناء يقفز الآخر عليه ويجري نحو القطيع وانسل إلى وسطه وقسمه إلى شطرين ..

ودفع شطراً منهما أمامه بصدره بعيداً وهو يعض الأفراس .

أما فحل القطيع فإنه عز عليه مايرى فهم باستعادة الأفراس التي سلبها منه الجواد الغريب عاقداً عزمه على القتال العنيد لاستعادة حقه ..

كان الجواد الصغير في موقف لا يحسد عليه .. لقد بلغ منه الإعياء مبلغاً وكان يقف بصعوبة والزبد الأبيض كالثلج الساخن يتدفق من فمه ممزوجاً بالدم الغزير ، وكان كلما نفض منخريه يرش الدماء حوله كالمطر مع أنفاسه اللاهبة ويستعد للمواجهة من جديد ..

ينطلق الفحل الكبير وبعد مسافة قصيرة يسقط على الأرض ، يقف الفحل الصغير فجأة وينظر إلىغريمه منتظراً وقوفه مرة أخرى ولكن يطول به الانتظار ، وحين يبقى مستلقياً دون حراك يعود إلى قطيع أفراسه ،

يخطفني جدي من مكاني فرحاً .. ودموعي تنهمر من عيني غبطة وسعادة ويهزني بحركات دورانية كأنني في أرجوحة ..

❑❑❑

# الشراب المعتق
## قصة: جورت بيبرد

■ ترجمة رياض قات ■

قريتنا لن تحسبها اليوم إلا مدينة ، فقد امتدت البيوت الجديدة على جانبي الشارع الرئيسي وكل واحد منها أجمل وأضخم من الآخر. وتضفي على هذه البيوت طابع القصور أسوارها العالية من القرميد الأحمر ووسائل الرفاهية المزدانة بها . وأما أشجار بساتيننا فإنها تنمو معطية قريتنا منظراً أخاذاً متجدداً على مر فصول السنة.

ولكن هنالك بيت من الطراز القديم غير مكتمل البناء على وشك التداعي والسقوط لا يشبه البيوت الأخرى في وسط القرية تماماً. وهذا هو البيت الوحيد الذي لا نشاهد أسوار قرميدية له أو وسائل رفاهية. وبخلاف السورين المشيدين من الجوار فإن السورين القديمين المصنوعين من أغصان الأشجار المضفورة منذ سنوات طويلة قد تداعى بعضه ورقد على الأرض ، والقسم المتبقي من السور المضفور مائل وكأنه ينذرنا بقرب أجله. وفي الحديقة الواسعة حول البيت لا نشاهد فرع نبات حتى ولوكان جافاً غير شجرة الجوز اليتيمة الصامدة أمام البيت. ومع أن شجرة الجوز هذه لم تعد تعطي ثماراً منذ زمن بعيد فإنها ماتزال واقفة ، والعجوز الوحيدة الباقية في الدار تمنع عنها الأذى . إنها الأم قندوز.

قبل عشر سنوات كان الشتاء بارداً جداً، وجاء صهر العجوز قندوز لتفقد أحوالها فلم يجد عندها أية حطبة لتتدفأ بها ، فأخذ الفأس يريد قطع شجرة الجوز فمنعته قائلة:

– يا عزيزي ، هذه هي الذكرى الوحيدة المتبقية لدي في هذه الدنيا من زوجي وأولادي، فدع الشجرة منتصبة خلال الفترة القصيرة المتبقية من عمري، وعلى أية حال ، إلى متى ستكفيني جذوع هذه الشجرة؟. ولم يدر الصهر بماذا يجيب فوضع الفأس وانصرف خارجاً. ولم يكن هذا هو السبب الوحيد لعدم موافقة قندوز على قطع شجرة الجوز، فهي تتذكر أولادها المفقودين منذ الحرب "الحرب العالمية الثانية" والذين كانوا يحبون أن يرتاحوا تحت هذه الشجرة نصف اليابسة كشاهد أبكم على الأوقات العصيبة التي مرت ، ولا يتجرأ أحد على قطعها.

بيزرقوه صهر قندوز الأوحد، لا يقدر على مساندة الأم بشكل فعال لأنه لم يعد شاباً ، ولأنه فقد إحدى ساقيه في الحرب الماضية وصحته ليست على ما يرام ، ومع أنه يحس ويتألم لمعاناة حماته فإنه لا يستطيع تقديم المساعدة اللازمة لأنه بالإضافة إلى كل ما ذكر يعيش في قرية أخرى،

تعيش قندوز لوحدها على هذه المساحة الكبيرة من الأرض. فابنها البكر سيق للخدمة في الجيش بعد زواجه وقبل أن يسعفه الوقت للإنجاب. وفي اليوم الذي كتب فيه رسالة لإعلام أهله بإنهائه الخدمة نشبت الحرب . كما سبق والداها التوأمان معاً للجيش مع اندلاع الحرب. أما ابنها

الأصغر فلم يُدع للجيش لكونه راعي غنم في المزرعة التعاونية . وتمكن مع والده يلدار من تخبئة قطيع الأغنام عن الألمان . وتتذكر الأم يوم دفن زوجها وابنها الأصغر معاً.

كان الوقت شهر كانون الأول ، أشد أيام الشتاء برودة حتى أن البصقة كانت تتجمد قبل أن تصل إلى الأرض . وكان الأب والابن يخبئان الأغنام في أحد المغاور الجبلية الكبيرة ، وقلّةً الذين كانوا يعرفون مكانهم . وفي إحدى الليالي هبت عاصفة ثلجية شديدة ، فهاجت الأغنام الفزعة من صوت الرياح التي تعصف بالمغارة ، وهدير الثلوج المنحدرة من الجبال فاندفعت خارجة لا تلوي على شيء ولم يتمكن الأب والابن من إيقافها ، فلحقا بالقطيع يريدان إنقاذ الأغنام فغمرتهما الثلوج وبعد أسبوع كامل من البحث وجدوا جثتي يلدرا المسكين وابنه.

وصلت رسالة أو رسالتان من محمد أكبر الأبناء بعد بداية الحرب. وكانت الأم في الماضي تؤكد بأنها لم تتلق أية رسالة من ولديها أدلبي وقرالبي،، ولكنها اليوم تقسم  قائلة: إن أولادي كانوا يرسلون رسالة كل عدة أيام وتؤكد بأنهم كتبوا إليها: " سنعود قريباً"

مر زيدان ، زوجة محمد انتظرت طويلا حتى انتهت الحرب وعاد من عاد، ولكنها يئست من الانتظار فطلبت الطلاق وتزوجت بعد طلاقها بوقت قصير.

عندما غدت العجوز وحيدة، توالى حضور صهرها وابنتها وفي نيتهما اصطحاب الأم للعيش معهما ولكنهما لم يتجرأا في البداية على مفاتحة العجوز التي تنتظر عودة أولادها ولا تتكلم إلا عن ذكرياتها معهم ، وعندما لم يجدا مفراً فاتح بيزرقوة الأم بالموضوع قائلاً:

– إنك تتعذبين  يا أماه ، ونحن لا ننام مرتاحين ، تعالي معنا وعيشي بيننا، تسعدين إذا سعدنا وتشقين إذا شقينا.

شعرت العجوز بكلمات صهرها تصيبها كالرصاص فقالت من بين دموعها المنسكبة:

– لا قدَّر الله الأوحد ، إذا رجع أولادي ولم يجدوني في البيت ماذا سيقولون ، وماذا سيظنون؟

بما أنني انتظرتهم حتى الآن ، فسأنتظر عودتهم بقية عمري، ومن الأفضل أن أموت على أن أدعهم يدخلون بيتاً خالياً.

لم يتمكن الجيران والأقارب من إقناع العجوز قندوز. ولما أيقنوا من تشبُّثها بموقفها لم يكرروا المحاولة. ولكن الأم لم تنس كلام صهرها " المستهجن" وكانت تبرِّر لنفسها: " كان يريد أن يأخذني إلى قرية غريبة، والناس سينتقدونني  قائلين: سكنت مع صهرها ولم تستطع انتظار أولادها "وبأمر من بيزرقوة حضرت ابنته الكبرى للعيش مع جدتها قندوز. ولكن بعد مرور سنة واحدة تزوجت البنت وانتقلت للحياة مع زوجها . والبنت الثانية تزوجت من بيت جدتها، والابنان استمرا في العيش عند

الجدة حتى دعيا للخدمة في الجيش . وهكذا عادت العجوز للعيش وحيدة في البيت.

كانت قندوز تجلس تحت السور المضفور من أغصان الأشجار على كرسيِّها الصغير طوال النهار تتحدث مع المارة إن كانوا من معارفها أو الذين يمرون بها لأول مرة كانت الأم تتحدث أحياناً حديثاً عادياً وأحياناً تسأل عن أمور مختلفة لا تخصها، وكانت تضايق الفتيات اللواتي تظن بأنهن قد تجاوزن سن الزواج حيث تسخر منهن قائلة: – أيتها المسكينة ، إذا كنت راغبة في الزواج فتعالي لعندي . أنت المقصودة وستخبرين بنفسك صدق ما أقول، إذا قضيتِ ولو ليلة واحدة فقط عندي فسوف يخطفونك قبل شروق الشمس. والبنات العابرات كن يتحدثن مع الأم وهن مشفقات عليها. وهكذا كانت الأيام تمضي، الأطفال يكبرون ويبلغون سن الرشد، بعضهم يتزوج والبعض الآخر يتابع دراسته ونصف الأولاد يساقون للجيش. وكانت الأم تشيخ وتضعف مع مرور الزمن . تفرح قندوز أيام الصحو حيث تحمل كرسيها الصغير وتخرج من بيتها وتجلس تحت السور المضفور من أغصان الشجر حسب عادتها ، لكنها تحزن وتكتئب في الأيام الماطرة وخاصة في الشتاء حيث تنزوي في غرفتها وتشعر بالجدران الأربعة تضغط عليها وتسحقها وتتدافع أحزانها فتبدأ بمناجاة ربها. وفي مثل هذه المواقف كان الجيران يعتنون بها ويمضون الليالي عندها أحياناً للترويح عنها. فبعض هذه التصرفات الصغيرة والتي لا معنى لها كانت تعتبرها أحياناً خدمة جليلة، وأحياناً إساءة لا تغتفر ، وتبقى حزينة تتحدث عنها أسبوعاً كاملاً وتنسبها إلى وحدتها وإلى عدم وجود من يدافع عنها. واعتادت في الآونة الأخيرة أن تتحدث همساً إلى نفسها . كان البعض يزعم بأن الأم تهذي ، والبعض الآخر كان يرفض هذا الاحتمال ويقسم بأن العجوز إنما تردد الذكر" الأدعية" . ولم يكن أحد يدري الحقيقة وكانت حالتها تسوء يوماً بعد يوم.

أثار صوت النواح المنبعث من بيت قندوز سكان الحي في صباح أحد أيام الربيع. وتراكضت النسوة زرافات ووحدانا إلى بيت الأم وهن يبكين ويرددن ما يخطر على ذهنهن . ولن نبالغ إذا قلنا بأن صوت بكاء الجارة القريبة من العجوز قد سُمع في الأحياء المجاورة.

– أي ..بي ، انتهت حياتك أيتها المسكينة قندوز وانتهت معها أحزانك وقبل أن تكتحل عيناك برؤية أولادك ثانية.

الجيران الذين جاءوا للبكاء على الأم ، وجدوها جالسة وهي تسند ظهرها إلى جدار البيت ورجالات الإدارة المحلية في القرية واقفون حولها ، وجمد الجيران في أماكنهم لا يفهمون ما يجري ولا يدرون ما يقولون . كانوا أحياناً يمعنون النظر في قندوزٍ وأحياناً أخرى في رجالات الإدارة المحلية . ولم تُجدِ محاولات خزر رئيس الإدارة المحلية في تهدئة الأم قليلاً بدأ خزر يوضح القضية للناس المجتمعين وهو يمسح دموعه:

– يا لتعاستي، ما الذي دعاني للحضور وإثارة شجون وأحزان هذه العجوز البرئية؟ وبدون تدخلي فإن أحزانها كانت تكفي ، بل تزيد . يا لسوء حظي ، لماذا أخطأت بهذا القدر؟ ولماذا خطر ببالي مجرد الحضور إلى هنا ؟ وما الداعي لاقتطاع الأرض؟ لقد أهجت أحزان العجوز المسكينة مجدداً، فلتذهب إلى الجحيم قطعة الأرض ! لماذا تورطت؟

شيئاً فشيئاً فهم الواقفون كيف جرت الأمور . كانت أرض قندوز كبيرة ، مساحتها نصف هكتار كامل كما كانت قبل الحرب . ولما بدأوا بتقليص مساحات الأرض، تركوا أرض العجوز على حاله لأنهم كانوا يعرفون بأنها لن تستوعب الموضوع جيداً وأنها سوف تتأثر بذلك . ونتيجة لتأسيس فرع لنقابة العمال في القرية في السنوات الأخيرة ولمطالبة بعض الطامعين من السكان بقطعة من أرض الأم، ولأنه لم يعد أحد من سكان القرية كلها عنده مثل هذه المساحة الكبيرة ، بالإضافة إلى تزايد العائلات الفتية التي تُعطي أراضي للسكن . والناس الذين جعلتهم الحرب متسامحين بدأوا يستعيدون أنانيتهم ، ولوقوع القرية بين الجبل والنهر واستحالة التوسع باتجاهها فقد أصبحت أراضي السكن محدودة. الأمر الذي شجّع خزر على اقتطاع قسم من أرض العجوز هو عدم مقدرتها علىالاعتناء بها ، علماً بأن خزر كان يرسل سنوياً من يفلح أرض قندوز ويزرعها. ولكنها كانت تهمل الأرض وتطغى الأعشاب الضارة على المزروعات ولم تكن تجني منها شيئاً. والناس الطامعون بأرض قندوز اتهموا رجالات الإدارة المحلية بالتحيز قائلين:

– ليس لدينا نحن قطعة أرض، فلماذا تشغل هذه العجوز هذه الأرض الواسعة بدون زراعة؟

كان خزر يفهم نفسية العجوز ، ولكن لمن سيشرح وضع العجوز البائسة وما يحمله قلبها من جراحات؟

وما الجدوى من إخبار أشخاص لا يحسون بمصائب غيرهم؟. وكان خزر يعرف بأن الأم سوف تحزن لذلك ، وقد وصلته أخبار متناقلة بأنها تحلم ببناء بيوت متجاورة لأولادها عند عودتهم . ولم يكن ليخطر على باله أن تتأثر الأم بهذا القدر أبداً. كما أنه لم يتوقع أن تفسرِّ كلامه على هذا الشكل.

عندما شاهدت الأم خزر رحبَّت به كثيراً، وكان من عادته أن يطيب خاطر العجوز كلما حضر لزيارتها ويقدِّم لها بعض الخدمات ، فقالت فرحة:

– فداك روحي يا خزر، هل حضرت يابني؟ وفقك الله لأنك لا تنساني وتزورني باستمرار يا نور عيني. ضمَّ خزر قندوز إلى صدره واستفسر عن صحتها وحسب عادته بدأ يحادثها:

– لم تعودي تحبينني يا أماه، في السابق كنت تقدمين لي "ما خسمة" جيدة ، ولكنك منذ مدة طويلة تتجاهلين.

– يا عزيزي لم أعد قادرة على صنع الماخسوة، ولكن عندما يعود أولادي سأسقيكم ! فأنا أخبئ منذ مدة طويلة حصة قليلة لهم .وبعد أن تحدثا طويلاً وبتمهل شديد أخبر خزر العجوز بسبب قدومه :

– ياقندوز ، غداً سأرسل من يفلح أرضك ،ولكن وبما أنك لا تقدرين على العناية بكل هذه

الأرض، فإننا سنقتطع نصفها ونعطيه لشخص آخر ليزرعها.

في البداية تلعثمت العجوز، ثم أجابت وهي غير مصدقة:

– ماهذا ياخزر ! ومالعمل إذا عاد أولادي؟ حسبتاه عندها

– إذا عاد أولادك سنجد لهم قطعة أرض يا قندوز ، ليتهم عادوا، الأرض لن تكون مشكلة.

لأول وهلة بدت قندوز وكأنها رضيت بالأمر الواقع ، ولكنها وبشكل مفاجئ أجهشت بالبكاء وقالت برجاء لرئيس الإدارة المحلية :

– أحلفك بالله العلي الأوحد ، وأسألك باسم الناس جميعاً أن تخبرني يا خزر بما سمعته عن أولادي، فما كنت لتقتطع قسماً من الأرض لو لم تسمع شيئاً عنهم.

وذهل رجالات الإدارة المحلية عندما انحرف الحديث إلى وجهة غير متوقعة فوقفوا واجمين لا يدرون ماذا يفعلون وما يقولون. حاول خزر استدراك الأمر قائلاً:

– لا يا قندوز ، يجب أن لا يذهب بك الظنون إلى هذا الحد. فقاطعته الأم وصوت بكائها يقطع نياط القلوب:

– لماذا إذاً لم تقتطع قسماً من أرضي حتى الآن؟ أقسم بالله أنك سمعت شيئاً ولكنك لا تريد إخباري.

ولما رأى خزر دموعها المتساقطة كحبات الفاصولياء تمثل أمام ناظريه محمد الابن الأكبر لقندوز. كانا من مواليد سنة واحدة ، وأنهيا الدراسة سوياً وذهبا للجيش معاً وبقيا معاً في كتيبة واحدة في السنوات الثلاثة الأولى من الحرب.

... لم يكن قد بقي على تحرير مدينة ستا لينغراد إلا أيام معدودة . وكان جنودنا الملتهبون حماسة يطوقونها. وسرية الضابط الشجاع محمد يسنقوة تقف على برزخ الحياة والموت . ومع أنهم كانوا أقلَّ عدداً من الألمان فقد دوخوهم وأفشلوا كل محاولاتهم للانتشار وأجبروهم على إلقاء السلاح.

كان الجنرال الألماني حانقاً على نفسه وكاد الغيظ يخنقه عندما خرج من دشمته وشاهد قلة عدد جنودنا فصار كالكلب المسعور . والسرية التي كان يقودها محمد لم يعد من المناسب تسميتها سرية بعد أن استشهد نصف محاربيه في هذه الموقعة. وكان الجنود الألمان يخرجون من مخابئهم ويلقون بأسلحتهم التي غدت كومة مرتفعة ويرفعون أيديهم عالياً ويقفون جانباً. وتظاهر الجنرال الذي كان يسير في المؤخرة بأنه يلقي مسدسه فوق الكومة وباغت الضابط الذي يقف إلى جانبه وأطلق النار على صدره ثم انتحر . توفي محمد بعد نصف ساعة متأثراً بالجرح الذي أصيب به وبعد أن ترك وصيته لخزر. دفن خزر صديقه وكتب رسالة إلى يلدرا يصف فيها استشهاد ابنه البكر، ولكن قلبه لم يطاوعه على إرسال الرسالة شفقة بأبويه . وكان لخزر بعض الأعذار الأخرى لهذا التصرف. فعلاوة على أن العجوزين يحبانه، فإن الصديقين كانا يستلطفان فتاة واحدة، وقد تزوجها محمد قبل أن يساقا للجيش، ولم تتأثر صداقتهما لهذا الحدث ، بل إن خزر كان المشرف على إجراءات الزواج وحفلات العرس. وبعد استشهاد محمد حارب خزر حتى وصل برلين، وقبل نهاية الحرب بأيام جرح

جرحاً بالغاً وأمضى في المستشفى العسكري قرابة السنة . ولما عاد إلى القرية في شهر آذار عام 1946م كانت قندوز وحيدة في البيت ولم يستطع إعلامها بموت ابنها.

شعر خزر بدوار خفيف فجلس لصق الأم، متعجباً من تمسُّكها بأمل عودة أولادها بعد هذا الوقت الطويل ، وإصرارها على تأكيد وصول رسالة من ابنها محمدٍ يعلمها بأنه على الطريق وسوف يصل بعد ثلاثة أيام . ومع أنها بلغت الثمانين من عمرها فإن أحداً لن يستطيع أن يدعي أن فكرها قد تشوش، ومن العجيب أن عقلها بقي سليماً. والذين يعرفون المآسي التي أصابت العجوز وما قاسته في السنوات الأخيرة كانوا يتعجبون لقوة تحملها وصلابتها. وعندما تتحدث عن أولادها ، كانت تصدق ما تقوله وتتأثر بقلبها ، وكانت تنتظر عودة أولادها وكلها أمل. والمستمع كان يتأثر بدوره بحديثها ويتصور أن الحرب قد انتهت البارحة فقط، ويتوقع دخول الأولاد ساحة الدار في الحال. كان أمل الأم كبيراً جداً، وإلا فمن الذي يمكن أن ينتظر عودة أولاده الذين فقدوا في الحرب حتى الآن؟.

قلة الذين يفعلون ذلك. لم يكن أهل الحي في هذا اليوم يبكون على الأولاد الذين ماتوا في الحرب بل كانوا يبكون العجوز التي جعلتها الحرب بائسة في أواخر حياتها . كانت هي مَنْ يندبونها وهي حية تجلس بينهم.

لم يكن أهل الحي وسكان القرية قد فرغوا من تناقل هذا الخبر عندما حدثت الحادثة الأكثر غرابة. يوم حضور خزر لاقتطاع قسم من أرض قندوز، مرضت الأم ونامت في السرير ، كانت تهذي باستمرار وتنادي أولادها بأسمائهم وبالتسلسل وتخاطب زوجها. وكان أهل الحي يحيطون بها ويمضون معها السويعات القليلة المتبقية من عمرها ويتألمون لألمها ويتحسرون عليها.وفي نفس اليوم عاد جار قندوز الشاب من الجيش في إجازة ، ولما لم يجد في البيت إلا أخاه الأصغر، عرَّج على بيت قندوز ليسأل عن العجوز وينادي أمه . والنساء اللواتي لم يعرفن سبب دخوله بدأن بالترحيب به وتهنئته بالسلامة. العجوز المريضة التي ضعف سمعها التقطت بعض الكلمات وكأنها الهمس مثل"عاد" " هل عدت بشكل نهائي؟" . ورأت لباس الجندي بعينيها الكليلتين والمغبشتين .لأول وهلة حاولت قندوز أن ترفع نظرها ولكن جفونها أطبقت وفي نفس الوقت قالت أم الجندي:

– ياعزيزي ، اقترب من الجدة واسأل عن صحتها ، ألا ترى كم هي مريضة. اقترب الشاب من الأم ومسح وجهها بيده وانحنى عليها قائلاً بتمهل:– كيف حالك ياجدة؟

رفعت قندوز نظرها ثانية ثم جلست ، وتطاولت قليلاً وحضنت الشاب الذي يقف بجوارها وقالت بصوتها الضعيف:– لماذا تركتني انتظرك كل هذه المدة الطويلة يا روحي، وكيف تحملت بعدي كل هذا الوقت ؟ يا حسرتاه ، أنسيتموني ياعزيزي، أين محمد وادلبي؟ أتركتهم وعدت وحدك ، أم ...

نظر الجالسون في الغرفة إلى بعضهم . في البداية لم يفهموا ما تقوله الجدة ، لكنهم استوعبوا الأمر سألت قندوز :" أين محمد وادلبي" فقد حسبت جارها الشاب ابنها "قرالبي" ولُجمت ألسنة الجميع، وكان الشاب واقفاً وكأنه مخدر لا يدري ما يقول ، ينظر مرة إلى أمه ومرة إلى جده ، يبحث عن مساعدة. لم يستطع الجالسون تبادل النظرات . وأخيراً تجرأ أحدهم وابتدأ الكلام

- يا جدة ، هذا ليس قرالبي، هذا...

قاطعه جد الجندي الذي عاد من الجيش، وكان حزيناً وقد جلس خافضاً رأسه بشعره الذي شاب وغدا مثل الثلج- دعوها ، ولتظن أن الشاب ابنها وقد عاد من الجيش، تكلم معها ياعزيزي، تحدث إليها وكأن ابنها يتحدث إليها، ولا تخف ، تحدث إليها . على الأقل سترتاح في لحظاتها الأخيرة. وهذا لا يقدر بمال. ألا ترى، لم يبق من عمرها إلا سويعات معدودة . ومن الجائز أن ما حصل هو الأفضل،

وإلا لماتت معذبة. فقال الشاب بصوت وجل ومتهدج يقرب من الهمس:

- لقد عدت يا أماه لقد عدت.

قالت قندوز تكلم بصوت أعلى يا أحمقي الصغير. أتحسبني على حالتي كما تركتموني، فأذنيَّ أصبحتا ضعيفتين وغدا سمعي ثقيلاً- ثم أردفت قائلة وهي تمسد شعره بيدها: أين إخوتك يا عزيزي ، أين هم فأنا لا أراهم؟.

نظر الشاب إلى جده وقال بتمهل:

- إنهم عائدون ، سيصلون قريباً.

تساقطت دموع قندوز وتنفست رئتيها ثم تابعت كلامها:

- استغفر الله، من رأى في هذه الدنيا الواسعة تأخراً كهذا!.

لم يكن أحد يتوقع ما حدث بعد ذلك .وجدُّ الشاب الذي عاد من الجيش لو توقَّع حدوث ما سيحدث الآن لما تجرأ وما كان ليسمح لحفيده بتمثيل دور " قرالبي" . كانت قندوز مريضة جداً وشبه عاجزة عن الحركة ومع ذلك رفعت رأسها وجلست في السرير ببطء ولبست الثوب المعلق على طرف السرير وحدها رافضة مساعدة النسوة، ثم أنزلت رجليها عن السرير وبدأت تبحث برجليها عن حذائها ، ثم قالت :

- تعال معي يا روحي، لقد خبأت لك شيئاً....

خرجت قندوز من الغرفة دون أن ترد على أحد وخطت عدة خطوات في المشي ثم وقفت مستندة على ذراع "ابنها" ، وأمعنت النظر في أرجاء البيت غير المكتمل البناء وتوجهت إلى الشاب تحدثه بصوتها العميق والمبحوح:- البيت على حاله كما تركتموه يا عزيزي، أترى ، حتى أرضية البيت لم أجرؤ على تركيبها مخافة ألا تعجبكم.

ابتدأت الجدة تسرد أخبارها بصورة مطولة، كيف حاول صهرها عدة مرات اصطحابها لتقيم عنده، ولما رفضت اقترح عليها إتمام بناء البيت بمساعدة الجيران والأقارب فلم توافق . وكان الشاب

يرى أن البيت قد بقي على حاله كما كان قبل أن يذهب إلى الجيش، وكان على دراية بكل المواضيع التي تتحدث عنها. فقد عاش يلدار في غرفتين ومطبخ صغير خلف هذا البيت قبل الحرب . وعندما غدا البيت عتيقاً وشبَّ أولاده باشروا ببناء هذا البيت الكبير، ولكن الحرب اندلعت وبقي البيت غير مكتمل البناء. ولما تهدم المطبخ القديم أكملوا غرفة من البناء سكنت فيها الجدة . وبقيت الغرف الأخرى بدون إكساء، وخشب الأرضيات والأبواب والنوافذ موضوعة فوق بعضها كما هي قبل الحرب ولكنها لم تعد تنفع لشيء فقد عمل فيها الزمن فعله. وبعد أن أطلعت قندوز الشاب على كل هذه الأشياء قادته إلى قرب شجرة الجوز وأرته قطعة حجرية كبيرة غير بعيدة عن جذوع الشجرة وقالت له:

– أزح هذا الحجر لم تستطع قندوز تحمُّل الحرارة أكثر من ذلك بسب ضعفها فجلست على الأرض ، فأخرجوا سريرها ووضعوه تحت الشجرة وأجلسوا عليه الجدة ، ولكنها بعد فترة قصيرة وهنت وتمددت على السرير وأخذت تراقب الذين يحفرون ثم قالت: – بحذر ياأعزائي ، حاذروا أن تكسروا الجرة.. كانت الأم قلقة ترفع رأسها أحياناً . وكان كل الموجودين في ساحة الدار ينظرون إليها ولا يفهمون ما يحدث.

وكان الأكثرية يعتقدون أن قندوز قد فقدت عقلها الآن، وإن بدت متماسكة .

قالت قندوز تكلم نفسها وهي راقدة : – اللعين خزر ، يأتي ويقول " أريد أن أقتطع من أرضك" كم كنت سأندم لو سمحت له بالاقتطاع.

بعد فترة وجيزة أخرج الشاب من تحت الأرض جرة من الطراز القديم تزيد سعتها عن عشرين لترا.

واستغرب جيران قندوز الذين كانوا يعتقدون أنهم يعرفون سرها وزدات شفقتهم عليها. حتى جارتها ماروسخان التي يعتبرها الجميع أقرب إليها من ابنتها وأرأف بها وقد أخبرتها قندوز بمكان كفنها ومصاريف دفنها ولكنها لم تطلعها على هذا السر. كأن البعض يقولون أن الأم نسيت هذا الموضوع وتذكرته عندما عاد ابنها، والآخرون يرفضون هذا التعليل ويزعمون بأن العجوز خبأت الجرة الممتلئة بالنقود، لذا كانوا يتحلقون حول الجرة ويتفحصونها . وبعد أن مسحوا الجرة وضعوها أمام قندوز فخاطبت ابنها: –الآن، ادع رجال الحي والقرية ليرفعوا الأنخاب بعودتك سالماً يا ابني العزيز، ففي هذه الجرة" ماخسمة معتقة".

أزالوا الشمع المصهور على غطاء الجرة بكل حذر وعاينوا محتواها، ولما سكبوا منها في كأس ، كان أحمر قانيا بلون الدم. قالت قندوز وهي تجول ببصرها بين الناس:

– المرحوم زوجي وأنا كنا قد دفنّا هذه الجرة في السنة التي سيق فيها الأولاد للجندية . ومع أنها بقيت زمناً طويلاً تحت الأرض، فإنني كنت أعلم أنني سوف أخرجها في الوقت المناسب .

ياعزيزي ادع الجميع ، وليعلم سكان القرية بنبأ عودة ابني ، وأنه عاد من سيوسدني التراب. وليجزي الله أهل الحي خيراً ، فلم أشعر بالوحدة بترددكم علي. وإذا ما مت فإن ولدي الحبيب لن ينسى الخدمات الجليلة التي قدمتموها لي.

شيوخ الحي وافقوا قندوز على رأيها فأرسلوا المنادين وجمعوا سكان القرية ، واقترب كبار السن من الأم وهنأوها بسلامة عودة ابنها من الحرب ، وأعطيت الأم أول الأنخاب ، وكانت الكأس الطافحة "بالماخسمة المعتقة" تتراقص مع ارتجاف يدها. مرة ثانية أثنت على أهل الحي وشكرتهم وشربت الكأس دفعة واحدة. ثم قالت مخاطبة المرأة التي تُناول العجوز الجالس بجانبها كأس " الماخسمة"

– لماذا لا أسمع صوت الأوكورديون يا ابنتي ماروسخان؟.

قال جد الجندي الشاب:

– اذهبي يا ماروسخان ونادى "كولاشة" فبما أننا قد بدأنا الحفلة فلنتممها إلى آخرها ولتطب نفس قندوز.

وصل عازف الأوكورديون سريعاً وانتظمت حلبة الرقص في ساحة الدار. فالشباب الذين رفعوا المشروب المعتق كانوا لا يخافون على أيديهم من التصفيق ولا على أرجلهم من الرقص.

ووصل صوت الاحتفالات جميع أطراف القرية . وتناهى إلى سمع قندوز من بين جميع هذه الأصوات صوت يلدرا الأجش والضعيف وهو يترنم بأغنيته المحببة " أغنية كواشة غاغة" وأي شيء أحب عند العجوز من صوته.

لم يكن قد نقص من " الماخسمة المعتقة" إلا القليل عندما توقف الرقص في ساحة الدار وارتفع صوت العويل.

❑❑❑

# طفل الشمس
# للكاتب الشركسي نالو زاور

**■ ترجمة مارينا قوموق ■**

من يذكر أول لقاء له بالشمس ؟

كنت أجلس في حضن أبي ذات صباح علىمصطبة أمام البيت ..

وبما أنني ابن رجل متقدم في السن ، فقد كنت موضع رعاية فائقة ، وصار يسمح لي بمجالسة المسنين منذ نعومة أظفاري خلافاً للتقاليد . في صباح ذلك اليوم، وقعت أنظاري للمرة الأولى على فراخ الوز وهي ترعى وتلعب في أرض دارنا ، تشد الأعشاب بمناقيرها ،وعندما تفلح في قطعها تقع على مؤخرتها في حركة مرحة ، كان العشب الأخضر غزيراً ، وبدت فراخ الوز فوقه بقعاً صغيرة صفراء..

– ماهذا ياأبي . – سألت مشيراً إليها .

– إنها فراخ الوز ياصغيري . – أجاب أبي .

وتلتقي نظراتي بإحداها وقد تسلقت السماء ، وبدا لي فرخ الوز الأصفر الذهبي في زرقة سماء ذلك الصباح ، بهالته التي تزيغ العين ، شبيها بفراخ الوز الأخرى فوق العشب الأخضر ، فهتفت وأنا أشير إلى السماء :

–فرخ وز صغير آخر ..

–تلك هي الشمس .

– الشمس ..!

و هكذا تعلمت كلمة جديدة أخرى في طفولتي المبكرة ، ومع ذلك فقد بقيت زمناً طويلاً أخلط بين منظر فراخ الوز الصفراء فوق العشب الأخضر ، وقرص الشمس الذهبي في زرقة سماء الصباح القاتمة . ولما كبرت قليلاً وجدت صنواً آخر للشمس في زهرة عباد الشمس الكبيرة اليانعة التي رأيتها في بستان دارنا تحدِّق مأخوذة مثلي بقرص الشمس ، وخيل إلي أن الشمس تحضنها بنظراتها وتبتسم لها ، كانت زهرة عباد الشمس التي لم أعرف اسمها إلا فيما بعد، بصفحتها الذهبية الناصعة وأهدابها الصغيرة التي تتطاير مع النسمات ، شبيهة بالشمس تماماً فسميتها " طفل الشمس "

وهكذا تم التعارف بين الشمس وبيني ، وقضينا معاً أوقاتاً ممتعة ونحن نلعب سوياً ، فقد اعتادت أن ترافقني عندما أذهب إلى النهر ، وتصحبني إلى الغابة، وكل مساء كنا نأوي إلى الفراش سوياً ، لم أعرف الملل قط وأنا بصحبة الشمس ، وقد اعتدت في تلك الأيام أن أنهض مبكراً وأناديها :

**ياشمس ياحمراء الوجه ،**
**ياذات الثوب الحريري الأحمر .**
**اخلعي ثوبك واخرجي ،**
**اخرجي وأشرقي لنا .**
**ابعثي الدفء في مياه الجداول ،**
**وأنضجي توت الأرض في البراري .**
**وأنبتي لنا البطيخ الناضج**
**والعقي جبين جدينا الصغير**

وما أنهي ندائي هذا للشمس حتى تشرق والبسمة تعلو وجهها ، وتقف مرفوعة الذراعين فوق غابة السنديان العتيقة ، وعلى هذا المنوال قضيت أيامي مع الشمس حتى كبرت ، لفحت جسدي كله بأشعتها ، ومازال قلبي الذي لفحته أيضاً لم يبرأ تماماً ، ويذكرني بين الحين والآخر بوخزاته كلما امتدت يد الزمن لتمحو الذكريات .

****

ما حدث ، هو أن فتاة جبلية من منطقة الأستين حلّت ضيفة في بيت جيراننا ، وعندما رأيتها للمرة الأولى خيل إلي أنها بشعرها المائل للحمرة ، والنمش الخفيف المزروع على وجهها ، فتاة لا تتمتع بجمال غير عادي ، وإلا لغلبني الحياء على أمري وما أقدمت على زيارة بيت الجيران بوجودها للسهر في الأمسيات ، ففي تلك الأيام ، مامن شيء كان يمكن أن أنثني أمامه سوى الجمال .

كنت قادراً على القفز في مياه نهرنا " أوروك " حتى في عزّ أيام فيضانه وقطعه سباحة ، وإذا تشاجرت مع أقراني ، كانوا ينهزمون أمامي باكين ،وما كان لأي صبي في قريتنا أن يغلبني في مصارعة ، وعندما دخلنا إلى المدرسة ، لم يستطع أحد أن يتقدم علي في الدراسة ، وهذا ماحصل أيضاً لما بدأت العمل في الحدادة بعد ذلك ، ورغم أنني فقدت الأب والأخ في سن مبكرة ، فقد استطعت القيام بأعباء البيت برجولة ، أما الشيء الوحيد الذي كنت أقف عاجزاً أمامه ، هو الجمال ، ففي طفولتي أيضاً ، وبعد أن بلغت سن الرشد ، كنت ما إن أقابل فتاة جميلة حتى تخونني أعضاء جسدي ، أفقد السيطرة على ذراعي أولا ، وتصبحان زائدتين لا أدري ماذا أصنع بهما ، ثم يغلبني الشعور بأن قدمي مكبلتان ،وتؤدّي بعد ذلك شفتاي ، ودون إرادتي ، حركات تشنجية لا أدري أهي مشروع ابتسامة أم شروع في بكاء ، ومن أجل كل هذا ، كنت لا أطيق مقابلة الفتيات الجميلات ، بل أخشاهن و أهابهن ، وكنت لا أحتمل فكرة أن تظن إحداهن أنني أصبحت أسير جمالها .

وهكذا ، لما قررت أن الفتاة الأسيتينية بشعرها المائل للحمرة والنمش الخفيف على وجهها ، ليست فائقة الجمال ، لم أجد حرجاً من التردُّد على بيت الجيران بوجودها ، بل ومن توثق عرى المعرفة بيننا .

ذات يوم ضاع عجلنا المدلل ولم يعد ليلاً ، فأيقظوني فجراً وذهبت أبحث عنه في البراري ، وفي طريق عودتي رأيت الفتاة الأسيتينية عند مطحنة المزرعة الجماعية القديمة على مشارف القرية جالسة القرفصاء وهي تجمع أزهاراً برية ، ماالذي أخرجها في هذا الصباح الباكر – قلت في نفسي متسائلاً ، ولما اقتربت منها رفعت نحوي رأسها المائل للحمرة ونظرت إلي وعلى ثغرها ابتسامة اهتز كياني كله وأنا أرى في وجه " آزه " قرص الشمس ، تحيط به هالة من شعرها الذي تطاير مع هبات النسيم القادمة مع نهر " أوروك " فبدت خيوط شعرها المائل للحمرة كأشعة الشمس الذهبية ودون أن تنتبه " آزه " للزلزال الذي يحدث في أعماقي أخذت ترفع صوبي باقة الأزهار البرية التي جمعتها ، كان في يدها الممدودة نحوي عشرات من " أطفال الشمس " أقراص صفراء ذهبية ، بأهدابها الناصعة البيضاء .

–خذ هذي " أطفال الشمس " – تقول الفتاة .

إذا كانت هذه " أطفال الشمس " فأنت الشمس الأم – يقول قلبي . نظرت في أعماق عيني " آزه " ، فإذا بهما ملَّونتان براقتان وكأنَّ في قاعهما مكمن لخيوط الذهب المجدولة لا قرار له ، أما أهدابها الطويلة فقد بدت لي كأهداب شمس الصباح التي عشقتها في رؤى طفولتي المبكرة..

تمردت شفتاي فجأة وتشنجتا بحركة لا أدري أهي مشروع ابتسامة أم مشروع بكاء ..ثم احترت بما أفعله بيدي اللتين أحسست أنهما أصبحتا زائدتين عن الحاجة ، وتبين لي بعد ذلك أن ساقيّ مكبلتان وخارج نطاق قدرتي على التحكم بهما ، ازدادت البسمة على ثغر " آزه " شروقاً ، أما أنا فقد جمدت في مكاني متلعثماً ..

**– 6 –**

.....تناولت فطوري وذهبت إلى محل الحدادة ، فوجدت رئيس مجموعة حاصدي الحشيش بانتظاري ليكلفني بصناعة سندان لتجليس وسن المناجل الطويلة لحاصدي الحشيش في السفوح الجبلية العليا .

وضعت قطعة جديدة في النار وقلت :

–انفخ !

فقال الرئيس معترضاً بحدة :

– يا أمة محمد ، أيمكن صناعة سندان من حديد طري؟

-!؟

هذه قطعة حديد طري ، ألا ترى بعينك ؟

وانبرى له أحد الحضور :

- لماذا تتدخل أنت في هذا الأمر ، أتظن أنه لا يعرف ، طالما اختارها بنفسه فلا ريب في أنه سيصنع لك شيئاً غير عادي .

انهمكت في عملي وكأن هذا الحوار الذي خيل إلي أنه آت من بعيد لا يعنيني في شيء..

تركت قطعة الحديد في النار حتى غدت بيضاء كالشمس ، ثم بدأت أطرقها ، وغمرتني السعادة وأنا أحسُّ أنها أصبحت طوع مطرقتي ،وتملكني شعور طاغٍ بأنني القادر على الفعل وأن قدرتي على الخلق غدت لا حدود لها ورحت أعمل فخوراً بطاقة الإنجاز الكامنة في ذراعي منتشياً بحدة الإبصار المتجلية في عيني . ولم يعد يخامرني أيُ شكٍّ في أن قطعة الحديد هذه أمامي ستتحول بين يدي إلى شيء خارق هاهي تتوهج كالشمس ، ولم يبق سوى أن أصنع لقرصها أهداباً حتى تغدو واحدة من أطفال الشمس التي وهبتها لي " آزه " ولكن يجب إنجاز كل شيء دون أن تسمح للبرودة بأن تتسلل إلى أوصالها ، وإلا غدت سوداء . وهل توجد شمس سوداء ؟ آه ليتني وجدت طريقة لإبقائها متوهجة أبداً .

-آزه شمس "آزه " قمر - تابعت مطرقتي أنشودتها المعدنية ، ياإلهي !! ألا توجد طريقة لإبقائها دائمة التوهج ؟ كيف ستبدو ياترى بعد بَردِها بمبرد ناعم ، أو ترصيع قرصها بحجارة براقة ؟

لا ، ، سيكون ذلك مجرد لمعان زائف بينما المطلوب هو أن تبقى متوهجة كالشمس الحقيقية .

لم تتوقف مطرقتي ولم تهدأ أو تتمهل ، ومن شدة وجدي بعملي يبدو أن سيلاً من مفردات تمائم سحرية طالما ردِّدها قدماء المعدِّنين الشركس جيلاً بعد جيل في مواقف مماثلة ، انبجست من أعماقي وأخذت أرددها بصوت عالٍ دون أن ألقي بالاً للحضور ، فسمعت صوتاً وكأنه قادمٌ من أعماق الأرض يقول :

- أخشى أن مسَّاً أصابه ، ماهذه الكلمات الغريبة التي يرددها؟

- والله إن ما يصنعه أيضاً غريب كالكلمات التي يرددها .

- ماهذا الذي تصنعه يامجنون ؟

- نعم ؟ - قلت كمن يفيق من حلم ونظرت إلى الحضور ، فإذا الرئيس يكاد يمزقني بنظراته الغاضبة ، بينما أخذ أحدهم يضحك .

-قلت لك مالذي تصنعه ؟ أداة زينة للنساء أم سنداناً للناس الذي ينتظرون في سفح الجبل!؟ مالذي تصنعه أنت الآن إذا لم تكن قد أصبت بمسٍّ في عقلك !!

وعنما عادت نظراتي إلى ما تمسكه يدي بالملقط رأيت " طفل الشمس " ، طفل شمس كتلك

التي قطفتها " آزه " صباح اليوم الباكر ،لقد صنعت زهرة بدل السندان ، فكيف حصل هذا ؟ مهما يكن الأمر فقد أوشكت على إنجازها ، ولكن أليس من الأفضل أن تصبح أوراقها أرقَّ وأكثر استطالة ؟

– تابع نفخ الكير !

رغم الإحتجاجات أمضيت نصف نهاري في صناعة " طفل الشمس " وحصل الرئيس بعد ذلك على ما أراد .

ودون أن أعرف شيئاً عن المتاعب التي تنتظرني من جراء ذلك ، حملت "طفل الشمس " مساءً وقدمته لـ " آزه " وبدأت تقلبه بين يديها وتنظر إليه مأخوذة ، وكلما أمعنت النظر فيه كان وجهها يزداد احمراراً ، انتبهت لذلك فاشتعلت في أعماقي نار أخذت تحرقني . ولاحظ أفراد العائلة تغير وجهينا وارتباكنا فبدؤوا يتبادلون النظرات ويتغامزون ويتهامسون .

كانت " آزه " أول من أفاقت فانطلقت هاربة من الغرفة ، ولما أدركت ما حصل غلبني الخجل والتردد فسألت دون أن أدري كيف ولماذا :

– في أي يوم نحن ؟

– الجمعة ، – أجاب أحدهم فانفجر الجميع ضاحكين ، أما أنا فقد تصببت عرقاً وخرجت متمهلاً وأنا أحس به بارداً لزجاً يسيل على ظهري .

بقيت الضيفة بعد ذلك شهراً كاملاً في بيت الجيران ولكني لم أجرؤ على العودة لزيارتهم ، أو على النظر إلى وجه الفتاة ثانية . خوض نار مشتعلة كان أسهل علي من فتح باب دارهم ودخوله ،وكان أشد ما يثقل علي هو تصوري أن جيراننا يتهامسون ساخرين : من يظن هذا الحداد الصغير نفسه حتى يفكر بضيفتنا؟

وتذوق.نفسي العذاب : " أليس هذا صحيحاً؟ من أنا بالفعل حتى أسمح لنفسي بالتمادي في حب " آزه " ؟ مجرد شاب أغبر ، حداد صغير قذر اليدين وخجول " ،وهكذا رحلت " آزه "دون أن نلتقي مرة أخرى ..

جاء الخريف حاملاً معه نبأ زواج " آزه " .

وقع النبأ عليَّ وقوع الصاعقة ، وفقدت الشمس هالتها الذهبية في ناظري ،ولم أعد أرى " أطفال الشمس " في البراري التي خيل إلي أنها غدت كالحة جدباء ،وكان أشدُّ ما يؤلمني هو إصرار ابنة الجيران على غرس سكين في قلبي :

– ألم تسمع بزواج " آزه " ؟

وكلما رأتني في دارهم أو في دارنا أو في الشارع أو في أيَّ مكان آخر كانت تمعن في تعذيبي :

–مارأيك بما فعلته " آزه " ؟

–وبعد زوال آثار الصدمة الأولى ، تركز اهتمامي كله على الإنتقام ، وهكذا عدت إلى المدرسة لمتابعة ما انقطع من دراستي ،وانصرفت للعمل المضني لتعويض مافاتني من أسباب العلم متخيلاً أن " آزه " ستندم أشد الندم إذا أصبحت " بروفيسوراً كبيراً " ، أو شاعراً مشهوراً يشار إليه بالبنان .

و أخذت أدرس بإصرار وغضب لتحقيق هذه الأمنية ، وكنت أرى في أحلامي " آزه " جالسة تقلب أحد دواويني الشعرية التي صدرت في طبعة أنيقة مزخرفة بماء الذهب ، وقد انهمرت دموعها مدراراً وهي تندب حظها العاثر : " ياإلهي ! لماذا تخليت عن مثل هذا الرجل ؟ لماذا لم أتزوج هذا الشاعر الكبير ؟

ولكن ماهو الذنب الذي كانت المسكينة قد اقترفته حتى أعذبها في أحلامي كل هذا العذاب !

لم أدرك هذا إلا في وقت متأخر ، لأنني في تلك السن كنت أعتبر " آزه " عدوة العمر كله ، وأنها اقترفت بحقي إثماً لا يمكن أن يغتفر ، لذلك تابعت دراستي بعزم وإصرار لا حدود لهما ، واصلاً الليل بالنهار ، عاقداً العزم كل العزم على المضي في خطة الانتقام حتى نهايتها .

وهكذا أنهيت دراستي الثانوية أنا وابنة الجيران سوياً ، وذهبنا معاً إلى الجامعة ، وأمضينا معاً ثلاثة أعوام دراسية لم تكفَّ خلالها عن تعذيبي بتذكيري بما فعلته بي " آزه " وكان أن ذهبنا في أمسية من أماسي السنة الرابعة إلى السينما وحدنا سوياً ، وفي طريق عودتنا وجدت نفسي أقبلها دون أن أدري كيف حدث ذلك فتغير مصيري كله وغرقت في بحر من السعادة ، كانت ابنة الجيران سمراء دافئة كالشمس تلعب بأهدابها الريح ، وأنجبت لنا أطفالاً ، شموساً سمراء صغيرة تشبهها .

دعيت إلى مدينة " أورجينيكيدزة " لحضور مؤتمر هام يعقده العلماء المتخصصون في " ملاحم نارت " حدث ذلك في العام الماضي ،وهناك أصرَّ زميلي العالم الأستيني الذي أمضيت عشرة أعوام في جدال ومماحكات علمية معه حول هذه الملاحم والأساطير دون أن نتوصل إلى قناعات مشتركة على اصطحابي إلى منزله وجرني معه جراً ، وفي الغرفة التي أدخلني إليها بانتظار عودة زوجته، رأيت طاولتَيْ مكتب ،ولما لاحظ دهشتي قال :

– لاتعجب ، أحد المكتبين لزوجتي فهي عالمة كبيرة ..

وفجأة جمدت عيناي على " طفل الشمس " الذي كنت قد صنعته ، والذي سبب لي ما سببه من آلام ومعاناة ،كان مستقراً هناك على طاولة المكتب ، مثبتاً فوق قطعة خشب سنديان أنيقة ، ولما رأى زميلي اهتمامي وانفعالي المفاجئ قال :

–حسبما يؤكد زملائي ومعارفي ، فإن " طفل الشمس " هذا لابد أن يكون من انتاج منطقة

القبرداي – ثم حمله وأخذ يتحدث عنه وهو يقلبه بين يديه بلهجة عالم في الحضارات .

وعادت ربة البيت في هذه الأثناء دخلت علينا " آزه " وكأنها تخرج من الماضي السحيق ، كان شعري أنا قد شاب كله ،وأحمل آلاماً مزمنة في كليتي وآلام المفاصل ،" الروماتيزم " لا تفارقني بينما وقفت " آزه " قبالتي شابة كعهدي السابق بها وكأنها فتاة لم تتزوج بعد .

وقلت في نفسي وأنا أناقش الأمر بموضوعية : " لابد أن زواجها ناجح ،وأن زوجهاعطوف ومتفهم " ثم أسمع صوت زميلي العالم السعيد متابعاً شرحه :

– أنا في الحقيقة لا أعرف شيئاً عن هذه القطعة ، إلا أن الجميع يسمونها " طفل الشمس " أيمكن أن تعرف شيئاً عنها باعتبار أنها صنعت في منطقتكم كما يؤكد البعض ؟..

نظرت إلي فاحمر وجهها ، وعندما رأيت وجه " آزه " الذي تغير لونه بدأ وجهي يحمر بدوره وأخذ زميلي يسأل في حيرة :

– مالذي حدث ؟

–نظرت إليه نظرة بلهاء ، ودون أن أدري كيف أو لماذا ، أجبته بسؤال آخر .. – في أي يوم نحن ؟ – ثم أدركت مدى حماقة السؤال وشعرت بالإرتباك ، وبالعرق يتصبب مني ..

–اليوم هوالجمعة ، ولكن لماذا تسأل ؟

وفي هذه اللحظة تسلل ظل شاحب وامتلأ ليحجب أشعة الشمس في يوم صاح ، كان ذلك بفعل شعاع انساب من أيام شبابي أيعرف العلماء ياترى أن أشعة الشمس تصبح شاحبة كالظل إذا عبرت أزمنة سحيقة ؟ أما شمسي الحقيقية فقد كانت تشرق الآن في مدينة أخرى ..

**من مجموعة " اللقلق الوحيد "**
**نالتشك 1981**

❑❑❑

# اللقلق الوحيد
# للكاتب الشركسي نالو زاور

■ ترجمة: عدنان قالمق ■

لولا الديك المتباهي الزاهي المتنقل في محل حدادة ، المزرعة التعاونية لغدا المكان خالياً وموحشاً كالمقبرة ، هذا الديك المدلل الجسور ، كثيراً ماكان يقترب من السندان الذي أقف خلفه ، ويمد رقبته محملقاً كأنه يريد أن يدرك سر ما أصنعه ..وتتعبني صيحاته الموزونة فأترك عملي و أطرده و أتوجه نحو كومة نشارة الخشب الرطبة الطرية ، لأتمدد وأرتاح قليلاً .

أهل القرية كلهم خارج دورهم منتشرون في الحقول ، فالقرية خالية من سكانها ، في أعلى شجرة التوت المزروعة في بيت بِيْشوُ هدهد ينادي المزارعين بلا ملل : " أو .. أو أو أو أو ووو.. أخرج يافلاح ، ارجع يا فلاح !! " ألا يمل هذا الهدهد أو يكل !! فإن صوته اللحوح يتعب الروح . خلال الشهر الذي يتوقف فيه العمل ، يغلق النجارون و الحدادون محلاتهم ويطرقون أبواب الرزق في الغابات لقطع الأشجار ، أو يتوجهون نحو بازار مدينة " تِرْكْ " للتجارة ، كل مكسبه حسب قدرته ، الحياة كلها في إطار السلام بعد الحرب المهلكة .. المزرعة التعاونية لها متاعبها والإحساس بالجوع يعم الجميع ، حتى الأبقار التي مااعتادت يوماً جر المحراث ، صارت تهاب رؤية رئيس المزرعة التعاونية الآمر بقسوة في تكدينهم .. الكل في البرية يشتغلون بدون استثناء .

يفلحون ، يحفرون ، يعشبون ...

من شجرة تفاح جارنا تنطلق شتى الأصوات المتداخلة كخلية نحل ولكن حينما يسمع الإنسان أزيز الذباب أو تصويت الدجاج بعد أن يبيض أو نداء الهدهد ، فالإحساس بالوحشة و الكآبة لابد أن يسيطر عليه .

...أنا في انتظار عكاشة الذي عرج للتعزية أثناء مجيئنا معاً ..

كل ما أريده الآن من هذه الدنيا ، هو أن أسبح في نهر ..وروخ "وهو في فيضانه الأهوج الآن . تقول نساء القرية أن نانامشوقا سمعت البارحة صياح عروس النهر : تعداد صغيراتي لم يكتمل بعد "وقد كررت نداءها ثلاث مرات .. قال أهل القرية : " عروس النهر تطلب القربان " عندما أسمع هذه الأقاويل ، يقف شعر رأسي فزعاً ومع ذلك أحب الغوص في أعمق أعماق النهر ، المتعلمون لا يصدقون تلك الأقاويل ، أما أنا فأحبذ تصديقها ، لماذا ؟ لا أعرف كثيراً ماتخيلت عروس النهر أثناء الفيضان بشعرها الطويل يغطي وجه الماء حتى اللانهاية ، و أسراب السمك الملون تنساب من بين ساقيها مندفعة نحو النبع على سفح الجبل البعيد .. الله أعلم بكل ما يجيش في قلب شاب في الرابعة عشر ..

عندما رجع عكاشة كان عابساً ، ماذا حدث ؟ هل سيفجر غضبه علي الآن؟ لكنه لم يرعد ولم

يزيد .. بل ظل يزرع ساحة المحل جيئة وذهاباً . هكذا طبعه – عندما لا يجد مايعمله تتكسف شمسه ويحس أن ساعديه عضوان ليسا في مكانهما الطبيعي .. جنى على نفسه ! لماذا لم يذهب إلى البازار كما فعل الجميع ؟ فلو ذهب لكان ذلك من صالحه ، ولكنت الآن أسبح في نهر " وروخ " مسروراً ، لكنه بدلاً من ذلك وقف في الصباح الباكر أمام باب دارنا منادياً :

–بلوط !.. بلوط ..!

–تفضل ، عكاشة!

– أي .. تفضل .. الآن يارجل ! اليوم يوم عمل !

– أستاذي يظهر مُعَلِميتُه .. يقولون أنه صاحب علم ، ولهذا أدعوه بأستاذي .. منذ نشأتي ، وعكاشة معلمي بالحدادة .. في الحقيقة لا يوجدفي قريتنا حداد ينافسه ،، لكن هذه الحقيقة لايعرفها هو ..

–ياعكاشة ! لا يوجد عمل في المحل يجب إنجازه فماذا نفعل هنا ؟

–أنت أعلم بما في المحل من عمل ! هيا ! .. هيا! .. الناس في البراري والعرق ينضح من أجسادهم و أنت قابع في البيت تحتسي الشاي كالأمير ! فعلاً كنت أشرب .. ولكن ماأشربه لم يكن شاياً بل هو منقوع بعض الحشائش البرية المجففة ، فمنذ أن بدأنا نكون البقرة ضمر ثديها ونسينا إحتساء الحليب – ... حسناً، لنفرض أن أحدهم طرق بابنا لكي يصلح معزقه فماذا تعمل ؟ ألا يخجلك هذا ؟

أجيبه بقحة جريئة على غير عادتي : – ولم الخجل ؟ يخجل غيرنا ..–ماذا أرى ! " ديكاً يصيح من البيضة .. أيصيح ديك من البيضة ! "

ها نحن الآن في المحل .. وقد دفعني الملل إلى امتطاء صهوة عجلة عربة ، وهو يبحث عن أي شئ يشغله .. هل هذا أفضل ؟ و هذا الهدهد اللعين مازال ينادي .. " أو .. أو.. أو أو أو أو .وو. أخرج يافلاح ارجع يافلاح ! " " متى كان المزارع يفلح في عز الصيف ياحمار ؟! لا طارق لإصلاح معزق أو فأس ، والنار في الموقد حالت إلى رماد بلا حياة .." انفخ يابلوط !" يناديني عكاشة عجباً ، ماذا يريد أن يصنع !؟ سوف يصنع ملقطاً أو أي شئ آخر .. الدواعي كثيرة لإزعاج الآخرين ،، لوكنت مديراً للمزرعة التعاونية لما دعوت الحدادين للعمل صيفاً ، ولكن هل يوجد مديرٌ طيب القلب يفكر هكذا ! .. يتملكني الغيظ لعدم قدرتي على الذهاب إلىنهر " وروخ " . بين يدي عكاشة قطعة حديد يتأملها ، وبعد أن تفحصها ملياً وضعها فوق النار بعد أن أججها و انفرجت أساريره ..

....عكاشة رجل أسمر ضخم الجثة ، بشاربين جميلين وخطهما الشيب عندما يلفت انتباهي بساعديه المفتولين ، أخالهما جذعا سنديانة ، الشرايين ناتئة على عضلاته .. أثقل مطرقة ترقص في

قبضته بخفة ورشاقة ومع أنه لم يمسك في حياته مسلاحاً غير المطرقة فقد كنت أشبهه بالعملاق النارتي سُو سْرْوقة .. هل ذلك لأنه أسمر حديدي ! أم لأن جسد سوسرقة الفولاذي سقي في محل آلة الحديد.." ليدش أحياناً كنت أرى في أحلامي : محل حدادة آلة الحديد لشب ،" !

وأنا بداخله واقف بجانب السندان الضخم ، ...وإذا بالعملاق النارتي سوسرقة على صهوة جواده وبين يديه رمحه ذو الرأس المزدوج واقف أمام الباب ونور الشمس يسطع كتاج فوق خوذته ، وعندمايرفع خوذته ، يظهر وجه عكاشة – لاسوسروقة .. عندما تراه يعمل يراودك إحساس بالسمو والرفعة ، فمطرقته ترقص وتغني على إيقاع دقيق رتيب ، يتعامل مع الحديد كما يتعامل الخباز مع العجين أو المثال بالطينة ، يقولبها كما يريد: تلك القطعة الحديدية التي كانت مهملة في إحدى الزوايا ما أن يتناولها حتى تتحول إلى قطعة حية ، فبقدرة خفية تتحول إلى حذوة حصان لها طبعتها على الأرض التي يدوسها الحصان ،وبعد أن يكتمل ماصنعه ويقلبه بين كفيه ، ترتسم على محياه بسمة النصر السعيدة ، ويشع نور الشمس فوق رأسه ، ويظهر بريق أسنانه البيضاء الناصعة في تجويف فمه المنفرج ، ثم يتوجه نحوي قائلاً : – بلوط : الحداد يعمل برأسه ، بعقله .. راقب طريقة العمل ، هذا يفيدك في المستقبل .

بعضهم يتصور أن عكاشة رجل عصبي المزاج سيءالخلق ، أما أنا فلم تفزعني نزواته ، فقد عرفته جيداً : إذا حدّقت ملياً في عينيه وهو في أوج غضبه تراه يلين ويهدأ ، ولكي يخفي ضعفه يهيج أولاً ، ثم يتراجع نادماً وتعود ملامح الطيبة ترتسم من جديد على وجهه ، ثم يبتسم قائلاً : " يالعين ! " ويدير ظهره في مثل هذه الحالة ، بإمكانك أن تطلب منه أي شيء ، فعنفوانه قد تحول إلى لينٍ وأصبح غير قادر على الرفض إطلاقاً ..

عندمايصنع عكاشة شيئاً مهماً يتحول إلى إنسان دقيق الحركات .. فالملقط الذي بيده اليسرى يمسك قطعة الحديد ، وباليمنى ملقط يلملم به الجمرات ، فلا شاردة منها ولا واردة ... عيناه الآن معلقتان بنار التنور تخترقهما وتلحظان سريان حرارة النار في الحديد .. وعندما يطرق الحديد في اللحظة المحددة يتناثر الشرر نجوماً في السماء ويتبعثر .. طالما راقبته ، وكثيراً ما حاولت معرفة مايريد صنعه ، لكني لم أتمكن من ذلك يوماً .. تلتمع عيناه ،وترتسم البسمة على شفتيه : –بلوط ! ..ما معنى هذا القول ؟ : " ياليتني كنت صبياً مرضعاً " وأتم جملة طويلة باللغة العربية الغريبة على سمعي ،كثيراً ما سمعته يتكلم بالعربية ،كان يجيب على سؤال أحد المسنين بالعربية ثم يفسرها له بالشركسية ... بعد أن فكرت قليلاً أجبته: – ماقلته قد يكون ذِكراً .. يجيبني : – ولماذا تظن أن كل مايقال بالعربية " ذِكر"!؟ وهل أفقه شيئاً بالعربية أنا ؟! .. أنا أعرف شاعرنا المحبوب علي شوجن تسك ،ليرمنتوف ،بوشكين ، جوتيه ، شيللر .

انبسطت أسارير عكاشة وغلبته الرغبة في المزاح ..

– إذاً أغمض عينيك واسمعني جيداً ويترجم ما قاله بالعربية إلى الشركسية ثم يسألني : هل سمعت مثل هذا القول سابقاً يابلوط ؟ .. لو عرفت أن حسناء سوف تقبلك إذا بكيت ، ألا تبكي يابلوط ؟

ويضحك عكاشة ... ماذا تقول ؟ مارأيك ؟ .. لوكانت تلك الروسية التي تسكن في بيت "

بيتروج " تحتضنك كلما بكيت ، لبكيت دون توقف يابلوط .. أليس كذلك ؟ احمرُّ وجهي ، وأطرقت برأسي خجلاً .. الحقيقة ، كلما رأيت " إيراً " كانت تجذبني وتلاحقها عيناي رغم كوني في الرابعة عشرة من عمري وإيرا فتاة ناضجة ، أيعلم عكاشة هذا ، أم أنه قد اكتشف أيضاً أن عيني " إيرا " الكرزيتين الغامقتين مغمستان في الشهد !؟

أدمدم لأخفي خجلي و أقول " وهل في القرآن مثل هذا القول ؟

–لا ، في القرآن لايوجد مثل هذه التلاعبات ، هذا شعر ، كالشعر الذي يكتبه لكم "علي شوجن تسك "

–ومن أين لك هذا العلم ؟

– إيه .. بلوط ، بوط ! قصتي مع العلم طويلة ... في البداية توجهت نحو منطقة " جلا خستني " لأدرس المنطق والجغرافيا وعلم النجوم على يدي الأستاذ فنزي مجيد ، الأستاذ فنزي مجيد كان عالماً فذاً ، لكنه في المدة الأخيرة ابتعد عن الدين والقرآن .. أثناء الدراسة كنا نحضر له الطعام بالتناوب ،وجاء دوري وجهزت له ماتيَّسر ، لكنه لم يأت .. انتظرته وطال انتظاري ، وشعرت بالملل وبدافع الفضول تناولت أحد كتبه .. كان عنده الكثير من الكتب في الكتاب الذي تناولته قرأت أقاويل لم يسبق أن سمعت بها عندمارجع فنزي رجوته أن يعيرني الكتاب " طبعاً ، سوف أعيرك الكتاب على أن تقرأه ثم تعيده إلي " .. كلما احتجت كتاباً خذه و اقرؤه ، سوف أكون مسروراً " .. الكتاب الذي أخذته كاد أن يسلب عقولنا نحن طلاب علوم الدين ، كل منا رمى ماكان بين يديه من تفسير ومنطق وغيره وانكب يلتهم الكتاب التهاماً .. قصتنا مع الكتاب دوت في آذان معلمي الديانة وهاجت ألسنتهم بالقال والقيل " و أداروا لنا ظهر المجن " واتهمونا بالكفر والحقيقة لو طالت صحبتنا مع مثل هذه الكتب لانقلبنا إلى ملحدين ... " الحياة العربية يابلوط ليست كلها قرآناً و فقهاً ، للعرب حضارة عريقة ، لديهم " ألف ليلة وليلة " ولديهم " كليلة و دمنة ولديهم الكثير الكثير ، أما الكتاب الذي جذبني أنادون غيره من الكتب فهو " مجنون ليلى "

–وماهو هذا ؟

– إيه .. إنه كتاب عجيب كله شعر ،وهو عن اللهو والصبا والشباب ، منذ عام و أكثر أعمل مع عكاشة ، لكن عكاشة اليوم غير الذي أعرفه ، كنت أنظر إليه مندهشاً ، عكاشة بين أصدقائه تراه يتحدث عن الرسول " صلى الله عليه وسلم " كأنه رجل دين ، ويتطرق إلى بعض العلوم بحذاقة وتراه يهتم بالزراعة ومستقبلها ، ويتناول أساطير النارتيين بعلمانية مدهشة ، لكن الموضوع الذي يتحدث عنه اليوم لم يتناوله أبداً بين أترابه ، مايتحدث عنه اليوم أمامي خلته كالذهب في الصندوق المخبأ بعيداً عن الأنظار ،محظوراً على الناس ، لم أر وجهه واضحاً هكذا وضوح الشمس مثل اليوم ، وقلبه مرآة وجهه بهذا الصفا، أبداً، عكاشة اليوم بعيد عن عكاشة الذي عرفته في السابق بعد

السماء عن الأرض..

– " مجنون ليلى " أعطاني إياه " حاج بارا " أفندي من قرية " قوغولقوي " – معلم المنطق..

– أهالي " قوغولقوي " مشهورون بالكذب ، فكيف يمكن أن يدرسكم المنطق واحدٌ منهم ؟

–ومن قال ذلك ؟ – سألني والابتسامة التي كانت على محياه قد غابت تماماً، وابتعدت حاجباه عن عينيه القلقتين ..

– " زوبجيل " أقسم لي بأنه لا يوجد أحد في هذه القرية لايكذب ..

صمت عكاشة عن الكلام ، إلا أن يديه تابعتا برتابة تفريق أو تجميع الحجرات الحمراء بملقطه الحديدي ،وقد غطت وجهه كآبة مريرة ، بعد صمته الهائج التمعت عيناه ببريق عجيب وسألني :

–ما تقصده ذاك الرجل الذي يعمل في المدرسة ؟.

–نعم ، هو .. زوبجيل ..

–أوليس هو أيضاً من قرية قوغولقوي؟

– نعم و أنا أستغرب كيف يتهم أبناء قريته بالكذب افتراءً ..

– أنت مخطئ يابلوط .. _ وتنفرج شفتاه من تحت شاربيه مبتسماً –

أنت تغالط نفسك ..

–وكيف ذلك ؟

– عندما تتهم أبناء قرية قوغولقوي بالكذب و أنت أيضاً واحد من سكان القرية فتلك مغالطة كبيرة ، ومن الخطأ تصديق المدعي – ويزورني عكاشة بإحدى عينيه ..

– ولماذا؟

– هل يدعي زوبجيل أن أهالي قرية قوغولقوي منافقون !– نعم

– إذاً فزوبجيل أيضاً منافق لأنه هو واحد من سكان القرية ، ولا يمكن تصديقه أليس كذلك ؟

.....لم أجد جواباً له ..وتابع عكاشة .. أما إذا كان أهالي القرية كلهم لايمكن صادقين فزوبجيل أيضاً صادق وزوبجيل إذا كان صادقاً فأهالي القرية كلهم لايمكن أن يكونوا منافقين لأن زوبيجل كونه صادقاً وهومن أهالي القرية تنفي التهمة القائلة بأن القرية كلها منافقون .. صحيح ؟ أنعتق من دهشتي و أجيبه : – كأنه صحيح .

– إذا كان سكان القرية صادقين فزوبجيل أيضاً صادق .. إذا كان زوبجيل صادقاً فسكان القرية يجب أن يكونوا منافقين ماقولك في هذا يا بلوط ..؟

–غريب !! تملكتني الحيرة وانغلقت صامتاً ، في مسيرة حياتي لم أسمع أعجب مما سمعته من عكاشة – صعوبة إدراك موقع الصدق والكذب عن الإنسان .. كنت واقفاً أحملق في وجهه ، وعينا عكاشة كانتا مثبتتين في نار الكير يؤججها ، و حالما حرك رأسه مثبتاً عينيه نحوي أدركت مدى انتباهه لآثار مداعباته في نفسي –عيناه الملونتان تتقدان وشفتاه تنفرجان : – مابالك ، بلوط ؟ هل وقعت في شباك حبائل الكلمات ؟ ثم يقهقه عالياً ويتابع : – بلوط كم شعرة يجب أن تسقط من

رأس الإنسان لكي يصبح أصلعاً ؟

– سبحان الله ماهذا المزاج ؟ الآن توضحَّ لي لماذا يقول الناس عن عكاشة أنه صاحب علم ، أيقنت الآن أن لعلم المنطق وعلم النجوم عند عكاشة نتائجها الباهرة ، لكن ما استغربه رغم هذا العلم ، لماذا يعمل عكاشة حداداً ولا يعمل معلماً مثل محمد سَرَحْ عندما فتحت فمي أريد أن أسأله ، توقفت فور سماعي صوت غليان الماء كان قد رمى قطعة الحديد في الماء البارد وانتشلها ثم رماها أمامي قائلاً : – خذ هذا يابلوط

القطعة الحديدية التي رنت أمامي دوت في عالمي كقذيفة مدفع. ماصنعه عكاشة لم يكن ملقطاً ولا فخاً ولا مسدساً ، ماصنعه .. كيف تصدقني ؟ إذا قلت لك أنه كان لقلقاً ؟ عندما كان يعمل لم يخطر ببالي أن أوجه انتباهي لما تصنعه يداه ، كنت منجذباً إلى حديثه المبهر .. مارماه أمامي لم يكن متوقعاً أبداً ...وانعقد لساني..الذي عقد لساني هو .... عكاشة ، رجل الدين القارئ القرآن ، يصنع لقلقاً حياً ويطير ، وأنا أعرف أن الإسلام يحرم التصوير – هكذا سمعتهم يقولون ، وها أنا أرى حامل العلم رجل الدين المحترم يصنع ماحرم الله صنعه ..– كيف هذا ؟ وكيف لم يخف من نار جهنم ؟ هو ذا عكاشة يلف سيكارة بكل هدوء و كأنما لم يقترف ذنباً ، و كأنما هو غير عالم بما اقترفت يداه من حرام ..

–مابالك يابلوط ... ألا يشبهه ؟

– ياعكاشة يقولون أن تصوير المخلوقات حرام ..

–لا تبال ، أنا أدرى بالحلال والحرام ..

بعد فترة ، ازداد انتباهي لجمال اللقلق الذي صنعه عكاشة ..كان اللقلق يرفرف بجناحيه في الهواء ،وساقاه ورقبته ممدودتان مداً ، الغريب أن رقبة اللقلق كانت طويلة ، طويلة بشكل غير عادي والساقان أيضاً ، والجناحان بالنسبة لحجم الجسم كبيران ومنفردان أيضاً . طريقة التواء الجناحين توهم الناظر أنهما يتحركان ... فكأنما اللقلق يسبح في الفضاء منساباً ، عندما أعدت الكرة و أعملت فكري ، اكتشفت أن اللقلق لو كان بحجمه الطبيعي .. لما أحسست أنه حي ويطير في الفضاء كيف هذا ؟ من أين لعكاشة علم نفخ الروح في الأجساد عكاشة الذي لم يرسم قط ، ولم ير رساماً ، لست متيقناً ..

إنني أستطيع أن أجيبكم على هذا السؤال ..

–هذا ما يقال عنه اللقلق الوحيد يا بلوط – قالها وهو يمد يده ليتناوله من بين يدي ، اللقلق في كف عكاشة الضخمة جاثم و كأنما قد مسه قلق مخيف ..

وهل يطير اللقلق وحيداً ؟ .. يطير اللقلق دائماً مع جماعته حبلاً طويلاً ..

– لوكان اللقلق يطير وحيداً ، لما قالوا " اللقلق الوحيد " يابلوط ..أتعرف ماذا يقول العلم

في هذا ؟ ..ويتأمل اللقلق الذي في كفه كأنه يبحث عن عذرٍ في خلقه ..

– ماذا يقول العلم ؟

– .. إذا رأيت اللقلق وحيداً فهو تائه "

عندها أدركت سبب قلق اللقلق الجاثم في كف عكاشة ..كنت قد حدثتك عن الضجة التي حصلت من جراء قراءاتنا للكتب غير الدينية – مجنون ليلى وغيره . في ذلك الحين أذكر ماقاله لنا مجيد " لا تستعجلواَ .. كل في أوانه المناسب جميل " وعندها سمعته يقول :" اللقلق الوحيد في الفضاء تائه ، والرجل في الوحدة كالطفل الصغير " ومنذ ذلك الحين علق هذا القول في رأسي ..

عكاشة يقلب اللقلق في راحة كفه وعلىمحياه مسحة من الكآبة يفكر : " هذا ما كنت أراه في أحلامي .. وحيداً في الفضاء ، أنادي رفاقي بلا مجيب ، الخوف يغلبني والقلق يأكلني كثيراً مارأيت هذا في أحلامي "

بعد أن أعطاني عكاشة اللقلق ، أخذته وعلقته فوق باب المحل كعلامة مميزة خاصة بالحدادين ، في اليوم التالي عندما وصلت محل الحدادة ، كانت الحركة غير عادية ، حيث أن كل الحدادين و النجارين كانوا مجتمعين في الحانوت يتجادلون في أمرٍ مهم ، ألقيت عليهم التحية ببشاشة وبساطة ، لكن ردهم لم يكن بالمثل بل اخترق الجمع النجار المربوع القامة وقال :

–هذامن صنع يديك يالعين ، لا غيرك ؟ أمثالك الفاسقون فقط يتجرؤون علىمخالفة أوامر الله!

– ماذا جرى ؟ ..ماذا فعلت ؟

– انظروا إلى هذا الفاسق ! .. من غيرك يستطيع أن يصور اللقلق ويعلقه على الباب كأنه يقول : " بلطوا البحر ! " ... من ؟

– هذا ليس له علاقة .. أنا الذي صنعت اللقلق ..

التفتت ، وإذا بعكاشة ورائي ، قال النجار المربوع القامة متوجهاً نحو عكاشة :

– ياإلهي ! .. وكيف هان هذا على روحك ؟

...تناول عكاشة اللقلق ، ووضعه على السندان ، وهوى عليه بمطرقته ضربات متلاحقة ثم رماه جانباً ، وأدار ظهره وخرج دون أن ينبس بكلمة .

***

منذ ذلك الحين تعاقبت سنوات عديدة ومع ذلك ، لم تُمح من ذاكرتي صورة لقلق عكاشة ، وكلما تذكرت حادثة القتل – تهشيم اللقلق –

انتابتني رعشة كأنما سكين يُقَطِّع أوصالي ، وقبل وفاة عكاشة بفترة قصيرة حينما رأيته صدفة في القرية ، ارتسمت على وجهه ابتسامته العريضة – " رحمه الله " –وعندما ذكرته بما كان يقوله لي " اللقلق الوحيد في الفضاء تائه ، والرجل في الوحدة كالطفل الصغير " رفع رأسه مثبتاً عينيه الغائرتين في وجهي وقال : أتذكر هذا إلى الآن يا بلوط ؟ .. وكانت ابتسامته المعتادة ترقص على شفتيه من تحت شاربيه الكثيفين الأشيبين .

**من مجموعة " اللقلق الوحيد " نالتشك 1981**

❑❑❑

# من مجموعة " دموع الرجال "
# نالتشك 1992
## تأليف: قارموقه محمد

■ ترجمة نذير شق ■

## المنتصر على أجله

لم يبق لـ (آبرَج ) إلا اسمه ، ذلك الذي لجأ إلى الغابة الكثيفة منذ سنين عديدة ، و أضحى واحداً من كائنات تلك البيئة .

كان أعداؤه يرهبونه ، وكان سنداً قوياً للضعفاء والأبرياء ، صارماً شديداً على المتجبرين ، كما كان مستعداً لبذل دمه وروحه في مقارعة الأمير ورغم كل المحاولات الفاشلة للقبض عليه فقد بقي يصول ويجول في الغابة بأنفةٍ وكبرياء .

وبعد محاولات كثيرة تمكن رجال الأمير من قتل حصان (آبرَج )وكذلك كلبه ، كما جُرح (آبرَج ) شخصياً ،وتمكن (آبرَج ) من الإفلات منهم بالرغم من جرحه البليغ الذي تفاقم أثره فصار بحاجةٍ ماسةٍ إلى ملاذٍ له في الوقت الذي شدّد فيه أعداؤه البحث عنه .

وكان طبيعياً أن يقبض على الرجل المثخن بجراحه عند أول إنسانٍ يلتقي به خارج الغابة وقيّدوا قدميه ويديه .

عولج (آبرَج ) من جراحه تميهداً لإعدامه ، ولقد بحث رجال الأمير في اختيار أبشع الطرق المطروحة لإعدامه ، منها :

الإعدام شنقاً ، أوحرقه بالنار ، أوتعليقه من قدميه حتى الموت والمهم في ذلك هو الإرضاء الأمثل للأمير .

وحينما استحال فيما بينهم الوصول إلى قرار رفعت القضية للأمير ، كان الجميع يعترفون بشجاعة (آبرَج ) و منهم الأعداء وفي مقدمتهم الأمير ، لذا حكم الأمير بإلقاء (آبرَج ) فوق تلك التلة المسيجّة وإطلاق أشرس النمور عليه بعد تجويعه ، ليفترسه النمر على مرأى ومسمع من الجميع بسرعة وبدون رحمة ، ولعل ذلك المنظر كان يبهج الأمير ويسليه بعض الوقت .

كان (آبرَج ) في السجن مقيداً بالأغلال حينما أُبلغ بأن الحكم عليه سينفذ غداً ... لكنه لم يُفاجأ بذلك ، وأمضى ليلته القاسية على السرير المكون من دفتين خشبيتين لا قوائم لهما .

واستطاع (آبرَج ) كسر إحدى الدفتين والحصول على قطعة خشبية قاسية لا يتجاوز طولها الشبر كثيراً ، وعمل على تدقيق طرفيها بالنحت ثم قام بإخفائها في كمّه ،كما وضع حفنةً من التراب في جيبه . في الساحة الكبيرة التي أحيطت بالناس ، اتخذ الأمير لنفسه مكاناً مرتفعاً وقد أحاط الحرس به من كل الجهات ، متعجباً من أمر الرجل الذي ينتظره الموت وهو لا يبالي بشيء ووجهه في اتجاه المكان الذي سينطلق منه النمر ، وقد استعد لملاقاة حتفه بجرأة وثبات .

أشار الأمير بيده ،فأُدخل النمر في الشّباك الحديدي حيث زأر بشدة وحدّق بعينيه في الذي سيصرعه . وصار النمر يمشي ببطءٍ وتوثبٍ تمهيداً للانقضاض .

استعرض (آبرَج ) حياته كلها بسنيه الأربعين في تلك اللحظة إنها المعاناة .. والعذاب .. والكفاح .. كل تلك الآلام تطارد (آبرَج ) يتقدم النمر ببطء شديد ، ولكن سبق أن تعرض (آبرَج ) لمخاطر الموت المحقق مرّات ..ومرات . حتى مع ملك الغابة .

لايعرف الحاضرون أن للغابة قوانين تجب مراعاتها . وقد كانت الشجاعة كفيلة بانتصار (آبرَج ) دوماً ، كما كان بارعاً في الرماية ، حتى أنه يصيب الطائر في الجو ، وبرصاصة واحدة فقط علىجبهة أقوى الوحوش في الغابة يوقعه صريعاً دون حراك .

توقف النمر وارتد إلىالخلف قليلاً وشد أطرافه مع تقويس ظهره مذعوراً ، رغم ضخامة وزن ذلك الوحش الهائل .

كان (آبرَج ) يعرف مايعنيه الوحش ، كل حركة من حركاته ..لذا كان ثابتاً في مكانه ينظر إلى النمر بحذر شديد .

استمر مرير النمر وصار يزأر زئيراً مدّوياً تمهيداً للانطلاق فالانقضاض على (آبرَج ) الذي يترقبه مدركاً ذلك ...

وثب النمر عالياً نحو غريمه المتأهِّب حيث ألقى (آبرَج ) بنفسه أرضاً فهوى النمر على أنفه أرضاً .. ثم تقابلا ثانية وجهاً لوجه ..وقد استنفذ النمر كثيراً من قوته بهذه العملية ، لذا فغر فاه الواسع وصار يزأر وكأنه يريد التهام ذلك المتحدي الصعب ، تصدى (آبرَج ) للنمر بمهارة ، فأدخل الخشبة المخبأة في كمّه في فم النمر ، فأراد النمر قضم يد (آبرَج ) الذي أوقف الخشبة القاسية ذات الطرفين المدببين في فم النمر ، وحينما حاول النمر إطباق فمه اخترق طرفا الخشبة فكي النمر وزاد صراخه ..

أمسك (آبرَج ) قاعدة لسان النمر تماماً ، وباليد الأخرى ذرّفي عيني النمر التراب الذي كان في جيبه ، ذُهِّل الجميع .. وقاد (آبرَج ) النمر إلى القرب من موقع الأمير المرتفع والمتميّز ، ودقَّ رأس النمر بقوة على صخرة قاسية كانت عنده ففارق النمر الحياة ، وألقى (آبرَج ) النمر المقتول أمام

الأمير .

سحب يده المضرجة بالدم من فم النمر ،ورفع رأسه مخاطباً الأمير : " أيها الأمير المبجل ، الآن وقد صرعتُ النمر ، عليك سلخ جلده وإهداؤه لأميرتك الحسناء . واسألها إن كان المحكوم عليه بالموت أقوى أم الذي كان سينفذ حكم الموت .

انبهر الأمير بشجاعة وقوة (آبرَج ) كمااغتاظ من التعليقات الخفية التي تُوَجَّه من بعض الحاضرين وصاح بأعلى صوته :

ياقوم ..مالي أراكم خائبين ؟ ..إن (آبرَج ) تمادى في عدوانيته عليكم .. أطلقوا عليه أشرس النمور ثانية . هنا صارت الاحتجاجات بادية على الحضور وتعالت عبارات تقول : الحكم يكون مرة واحدة ..والعقوبة نُفِّذت ..ولكن أمر الأمير كان هو الأقوى بالرغم من ظلمه الشديد ، حيث جال الظلم وعلا على الحق إرضاء للأمير في ذلك العهد.

وتمنى (آبرَج ) لو أنه احتفظ بالخشبة القاسية من فم النمر المصروع قبل قليل .

هنا تبدأ المفاجأة الكبرى الذاتية ..انقض النمر وتوقف فجأة وشمشم مزمجراً ، وضرب بذيله بعنف جنبيه ، وصارت عيناه بارقتين تنظران شيئاً ما .. وفغر فاه بشدة بين الحين والآخر متلمظاً ريقه وفجأة بدأ النمر بحك رأسه على جنبي (آبرَج) وكأنما يدعوه ويرجوه للسِّلم ، ثم نظر في وجه (آبرَج ) الحائر من تصرفات النمر ، رفع النمر رجله اليمنى ولوّح بها .

ذُهل المتفرجون ، وخيم الصمت عليهم مما يرون ، حتى الأمير حار بين ما يراه ومايجب أن يقوله أو يتصرف به ..

وهكذا تنقشع السحب الثلجية الباردة لتظهر بينها الشمس الدافئة بأشعتها الذهبية التي تداعب أديم الأرض .

إن بعض الأمور تكون حقيقية وإن بدت كالأساطير ، ويتذكر (آبرَج ) حكاية من تلك الأشياء التي صادفته حينما كان في الغابة :

"بينما كان رجل يجتازالغابة ماشياً بحذر شديد وخاصة من النمر الذي تتسَّمر كائنات الغابة حينما يزأر ، ظهر أمام ذلك الرجل نمر ذو أقدام غليظة ، ولم يعد هناك مجال للتراجع أو اللجوء لبندقيته المعلقة علىكتفه ، وفي هذه الأثناء لاحظ أن إحدى يدي النمر متورمة كثيراً نتيجة شوكة قاسية استقرت فيها ولربما كانت ملوثةوانحبس القيح في تلك اليد ، ولاحظ الرجل كآبة في عيني النمر ، فسحب الرجل سكينه من جنبه وجرح يد النمر بحذر وصار القيح ينزف واستمر الرجل في سيره دونما خوف .." لاشك أن الإنسان والوحش قد تفاهما روحياً .

في هذه الأثناء ارتفع صوت الأمير صارخاً : أطلقوا أشد النمور شراسة ..

وهنا لم يعد الأمير يستطيع مواجهة الجمهور الكبير الذي برَّأ (آبرَج ) . لذا اضطر الأمير لإطلاق سراحه .

وأهديت الأميرة جلد النمر ، ورويت لها كل الأخبار عن النمر فطلبت بإلحاح إحضار (آبرَج ) لمشاهدة ذلك الرجل الشجاع الفذ ، لكن الأمير عارض ذلك .

وبعد فترة من الزمن ، سافر الأمير إلى بلادٍ بعيدةٍ ، وضاق صدر الأميرة ، وتذكرت قصة (آبرَج ) ، وأصرت علىمقابلة ذلك الرجل الأسطوري .

ويحكى أن الأميرة أخرجت من صندوقها الخاص بالحلي والجواهر خاتم الزواج المرصع بالجواهر الثمينة وقدمته هديةً للفارس (آبرَج ) .

❑❑❑

# الممر الجبلي
## تأليف :سفر بي حه

■ ترجمة : روزا قرموقة ■

الطرق الجبلية تلك التي يسلكها المشاة ليست كغيرها الموجودة في المدن الكبيرة ، فطرق المدينة مستوية تأخذ لونها الأسود من الإسفلت المغطاة به والذي يسارع إلى إصلاحه و ترميمه مباشرة إذا أصابه أي ضرر كما وأنه يعتني بنظافتها وجاهزيتها تماماً ، أما طرقنا الجبلية فليست معبدة ولا مدعمة بالبيتون فهي شبيهة بوجوهنا النقية بدون زينة ، وهي منثورة في الطبيعة تسير في الوديان و الجبال وعبر الغابات و المستنقعات ، و تزحف في السهل و الدغل و تقودك من الأرض الجرداء تحت الشمس الحارقة إلى الغابة تحت الأشجار حيث تقيك حر أشعتها و تضطر أحياناً أن تحني رأسك أمام أغصان أشجارها المتدلية على جانبيها ثم ترجعك إلى الأحجار الساخنة من حر الصيف أوتمررك تحت شلالات الماء حيث تضطر لرفع ثوبك حتى لا تغوص فيها أحياناً أخرى ، وطريقنا هذه تتمايل و تتلوى حسب الطبيعة العذراء لجبالنا لكنها توصلك أخيراً إلى هدفك، إلى حيث يعيش أحباؤك و أهلك وأقرباؤك ، فهي طريق الخير واللقاء السعيد و المتعة .

وبالمقابل فإن هذه الطرق الصغيرة الضيقة الحنونة توصلك إلى الطرقات الجديدة العريضة المعبدة اللامعة تحت ضوء الشمس إلى عوالم أخرى وبلدان أخرى من هذا العالم الرحب الوسيع ، لكن ليست كل الأماكن التي توصلك إليها متشابهة كما أنه ليس كل الذين يصلون ويسيرون على هذه الطرقات متشابهين فكثيرون هم الذين لا يستطيعون أن يحافظوا على واقعهم و أصالتهم و طبيعتهم البريئة في تلك البلاد البعيدة و بين الأقوام الغريبة ، و هناك مئات الآلاف من المسافرين ركبوا هذه الطرقات العريضة و منهم منذ سنتين فقط ركبت هذا الطريق صبية صغيرة جميلة ذات ضفيرتين سوداوين وعينين لامعتين سافرت إلى مكان بعيد .

وبقيت هذه الصبية في خاطر وتفكير الطريق تسأل يومياً أيمكن ألا تعود لأن كثيراً ممن ركبوا هذه الطريق لم يعودوا أبداً معتقدين أن وطنهم هو المكان حيث يجدون مايقتاتون به ناسين أهلهم وقومهم ووطنهم وممراتهم الجبلية الحنونة تلك التي قادتهم إلى الطرق العريضة ناسين ما قدمته لهم من المحبة والخير والسعادة لهم ولأجدادهم ولازالت تقدم لأهلهم وقومهم .

وهناك بعض العائدين إلى قراهم و أرضهم كزوار مغيرين زيهم و طبائعهم جالبين معهم نوعاً من الغرور والتكبر على أصلهم وقريتهم ، ولكن سريعاً ما يعودون من حيث أتوا لأنهم يشعرون بالغربة في وطنهم، لأنهم ليسوا هم من خرج من قشرة البيضة هذه ، إنما هم من غير لغته وطبعه وزيه و عادته ، وطرقنا الجبلية كانت ستقول لهم أشياء كثيرة عن واقعهم وحقيقتهم لكنها تعمل صامتة لا تريد الكلام ، ولا تعرفه لقناعتها بأن من يتقنون فن الكلام المنمق ويتاجرون به هم أنفسهم سبب

المشاكل وليس سببها من يعمل بصمت ويتقن عمله ويجيده ، وأنهم ينظرون للوطن كما ينظر الطفل للعبته ، يلعب بها متى يشاء ، ثم يهمشها .

لكن طرقنا الجبلية الضيقة غير يائسة وغير حزينة لأنها تعلم أنه ليس كل من أوصلته إلى الطريق المستوي العريض مثل أولئك الناسين قوميتهم ووطنهم ولغتهم بل فيهم الكثير ممن درس وتعلم و أصبح عالماً كبيراً أومتقلداً مناصب رفيعة وبقي على طبيعته ولم ينس طريقه الجبلية الضيقة أو قريته أو أصله بل ازداد أصالة وتعقلاً ونبلاً .

وطريقنا الجبلية الضيقة ، تعرف القادم من المسافرين من النظرة الأولى من مشيته ولباسه وكلامه هل نجح أم فشل وتتمنى لو أن جميع الخارجين نجحوا ولم يمت بعضهم رغم استمراره في الحياة ، ولكانت عندها قد اعتبرت نفسها قدّمت ولاقت .

وذات يوم عادت الصبية الصغيرة الجميلة التي بقيت في بال طريقنا الضيق منذ أن أوصلها إلى الطريق الكبير وللأسف لم يتمكن من التعرف عليها رغم شوقه لها ولمعرفة أخبارها .

عرفها صبية صغيرة يشع النور من وجهها المدور الأبيض بعينين سوداوين تلعبان كطائر سنونو في الفضاء ، وهي تحمل حذاءها الصغير بيدها حين وقفت حافية علىالحد بين طريقنا الجبلي والطريق العريض الجديد وقالت يا صديقي يا طريق الأجيال لا أجمل ولا أحب منك ياطريقنا الصغير الضيق فقال طريقنا: ستنسيني عندما تقابلين غيري ياإلهي الكبير ! أي حياة عشت ومع أي بشر تعاملت من خَطَّفَ بريق عينيك ومن امتص رحيق جمال جسدك البض وأي مأساة مرت بحياتك القصيرة .

تألم الطريق الجبلي وتشنج ، وجعلت العصافير تغني للعائدة الغريبة خائرة القوى فاقدة الجمال. وتساءل هل فقدت جمال الجسد فقط أم فقدت جمال الروح أيضاً .وحاولت القادمة أن تبتسم فظهرت أسنانها المرممة وقالت : ألم تعرفني أنا الصبية الجميلة التي غادرتك قبل خريفين فقط .

هنا عرفها طريقنا الجبلي إنها الفتاة التي كان بانتظارها ، الفتاة الجميلة اليافعة لكنها كانت كمن عصرت في ماكينة للغسيل .

وسيبقى طريقنا الجبلي على عادته خيراً معطاءً وسيوصل من يريد من أبنائه إلى الطرق العريضة ويودعهم داعياً لهم بالتوفيق وراجياً ألا ينسوه يوماً وألا ينسوا أصلهم ووطنهم وقومهم ويقولوا هنا خلقنا وهنا حبونا وهنا قلنا نانا([4]) وعلىهذه الطريق سرنا ووصلنا إلى حيث نريد .

---

[4] ـ نانا بالشركسية ماما

❑❑❑

# مختارات من الأدب القباردي الشركسي المعاصر

## مـــن ديـــوان " رقصـــة الغجـــر " نالتشـــك 1985

شعر : ورزاي أفليك

■ ترجمة : ممدوح قوموق ■

## تـاريـخ

***" حفنة سوناتات "***

الريح الغاضبة تطرق نافذتي
وتفتح بابي بغضب
هاقد أصبحت غرفتي مركزاً للعبور
وبدأ رذاذ الأزمنة الغابرة يتساقط

***

لا أستطيع أن أوقد مصباحي
مع أن النوم قد جفاني
وأسمع صوتاً يناديني تهتزُّ له الغرفة،
أعدوٌّ هو من ينادي أم صديق؟!

***

الزمان لا يحمل ديناً لأحد ، إنه يمضي
يمضي و ينقضي دون أن يداري أحداً .
لقد سقطت حبات الكرز قبل نضجها عن الشجرة
وهاهو جذعها يذرف الدموع سراً ..

***

و من بعيد يصل صدى غناء شجي متواصل
يعيد إلى الذاكرة ماغرق في بحور النسيان

***

أسمع أغنية من بعيد ، أسمعها متواصلة
و أجلس خائفاً ، مطرقاً برأسي
وفي الرأس تدور آلاف الأفكار
دون أن تترك لي لحظة للنعاس

***

كلما نظرت عبر دروب التاريخ
التي قطعها شعبي أزداد يقيناً من شيء واحد :
يا شعبي لست أنت من يُشَبَّهُ بالفولاذ،
إنما الفولاذ هو ما يمكن أن يشبَّه بك
إذا صدئ الفولاذ يمكن إعادة البريق إليه
أما إذا اسودَّ ، وجه الإنسان فلا يمكن تنظيفه أبداً .
أيتها الريح لم كلُّ هذا الضجيج الذي
يراكم الأفكار السوداء على صفحة الروح.؟

***

تلّبدي ما شئت أيتها الغيوم السوداء فوقي
فمن سمائي يطلُّ هلال مضيء

***

يطلُّ هلالٌ مضيء من سمائي
وتزدحم غرفتي بمائة قرن .
أحدها يحصد سنابل القمح بمنجل
ويصوِّب آخر نحوه بندقية

***

لماذا يحدث مثل ذلك فوق الكرة الأرضية
على رقعة ضيقة من هذه الأرض الواسعة ؟
لماذا يأكل الجشع قلب الإنسان؟
مع أن حياته قصيرة بهذا الشكل الفاجع ؟!

***

أيحدث ذلك من قلة الحب ، الدفء ،
الكلمات العذبة ، الإنسانية ، الشجاعة على هذه الأرض ..؟
لماذا يشعل الإنسان الحرائق على الأرض
لماذا يحاول أن يطفئ ضوء النجوم؟!
تهوي من السماء وهي تحرق ظلمات الليل
دون أن يستطيع أحد الإمساك بها

***

أشرقت شمس الصباح بحنان
وهي تحرق ظلمات الليل بأشعتها

وكانت الذكريات قيداً تحرَّرت منها
ونهضت أستقبل نهاراً وليداً
أجوب براريك ، ضفاف أنهارك يا وطني
وينصت القلب لأغنيات الفرح التي تردِّدها،
وبعد أن اغتسلت عطورك بندى الصباح
أخذت تنشر رائحتها بسخاء
***
والقمم التي كانت صامتة منذ الأزل
بدأت تجلو أصواتها بترداد الصدى
وارتفعت اللقالق في السماء وكأن حبلاً يشدّها ،
تقطع أشعة الشمس تارةً ، و أخرى تعيد وصلها .
***
لوكان لي جناحا لقلق
لارتفعت هونا وحلّقت في السماء
***
كنت ارتفعت هوناً وحلقت في السماء
لو عرفت أن الريح تقبل بي فارساً مرافقاً
وكنت جبت فيافي السماء المشدودة
و أنا أبحث عن الطرق الضائعة
***
أبحث عن معاقل الأبطال الذين لم يعرف الخوف
طريقه إلى قلوبهم حتى في مواجهة الموت.
يا أبناء شعبي ، من الذي غدر بكم و طعنكم من الخلف ،
دون شفقة ، عند مفارق طرق الحياة؟!
***
إن ظلالكم مازلت تتأرجح فوق هاوية الجبال الشاهقة ،
ومن الوديان السحيقة تنطلق أصوات صراخ .
إن أمجاد أولئك الذين قاتلوا من أجل ضوء الحياة
ستزيِّن بيارق مستقبلي إلى الأبد
***
لو عرفت أنني أستطيع أن أعيد إليكم شبابكم
لحلَّقت بعيداً ، بعيداً ، بهذا الأمل وحده
***

لحلّقت بعيداً بهذا الأمل وحده ،
بحثاً عن بدايات حياة الإنسان
فليس بين القرون من لا يعرفني ،
وليس بينها من لا يستطيع أن يقدِّم لي المشورة
***
لكن الضباب ، الضباب المنتشر في كل مكان ،
هذا الضباب ينوخ بثقله بدلال فوق صفحات التاريخ
وتشرق الشمس فَيْنَاً شاحبة ،
وفي صفحتها يرتسم قلق كبير
***
ويخيَّل إليَّ أنها تقول لنا : " حان الوقت "
أيُّها الناس ،
لأن تعقلوا و تلقوا بأسلحتكم ،
فأية مصائب هي التي تبحثون عنها
دون أن تجدوا وقتاً لزراعة الحبوب؟"
***
و أزداد عجباً من هذه الشمس التي تشرق منذ الأزل ،
أية روح جميلة ، و أية طفولة استطاعت أن تحملها إلى اليوم.
***
أية روح جميلة ، وأية طفولة يتمتع بها إلى اليوم ،
عمي الذي انقصف عمره في الحرب الأخيرة .
ضاع قبل الأوان ، قبل أن تتحقّق أحلامه
ضاع في الحرب ولا أحد يعرف مثواه
***
كم من الناس يرقدون تحت الأرض متجاورين
بالرغم من أن قروناً طويلة تفصل بينهم ،
و أقف مطرقاً مجفلاً من هذه الفكرة
و تجمد الدمعة التي تجمَّعت على صفحة العين
صامتة هي السماء ، الأرض ، وتقف شاهدة القبر
حارساً فوق قبوركم دون أن تذرف دمعة .
وتنبت الكروم حولكم في الفيافي ،
والعين التي تفجَّرت هناك ماؤها سلسبيل
***
ولأن ماء العين السلسبيل هدية منكم
فإن بطولاتكم ستكون شواهد لي وعلامات للطريق
***
إن بطولاتكم علامات تضيء دربي

ومن سخاء نفوسكم تغتدي روحي ،
و كلما قصفت الرعود و أضاءت البروق
أحسُّ أن الكون لا يذرف دموعه إلا من أجلكم

أنا لم أخض حرباً ، وطوال عمري
لم أصوبِّ بندقية صوب إنسان
ولكنني أفكر في الخفاء أنني
ضحية حرب لم تعرف معنى الرحمة
***
سيكتسي العريان يوماً ،
ولا محالة من يومٍ يأتي ، يشبع فيه الجائع .
أما إذا وقع شعب بأكمله عند السفوح
فإن آلام الجراح تدوم قرناً كاملاً
***
كم كنت أبياً يا شعبي .. ولكن ،
رصاص العدو أصابك غدراً فهويت.
***
أصابك رصاص العدو غدراً فهويت
ومع أنك لم تكن تريد الأذى لأحد
فما أكثر الذين كانوا يبحثون عن أذاك ،
مصِّرين على إراقة دمائك على أديم الأرض
***
سيأتي يوم تزول فيه الأسلحة عن الأرض
وستحرق نار البشرية كل أنواع الظلم
ولابد أن تأفل شمس أولئك الذين ،
لم يعرفوا معنى حب الإنسان للإنسان
***
ستزهر الأشجار عندها دون أن تخشى الأدخنة السوداء
وستبقى ثلوج الشتاء بيضاء نظيفة حتى تذوب في الربيع
ولن تضيع آثار أقدامكم من درب التبان
ولابد من يومٍ نقطع فيه هذا الدرب معاً
***
عندها لن يستطيع أحدُ منكم أن يقول

أنني لم أعش معكم في تلك الأيام

***

لم أكن أعيش على الأرض في تلك الأيام
ولم أكن حاضراً عندما جردتم السيوف .
الجبال التي رأت كل ذلك صامتة
مع أن صوركم هي التي جمدت على جدرانها

***

أنظر إليك أيتها الجبال ، فتنظرين أنت نحو السماء
و أنظر إليك ثانية فأراك مطرقة تنظرين إلى الأرض ..
انطقي أيتها الجبال وقولي لي أين كنت ،
عندما وقع كل هذا الظلم بشعبي؟!

**

جبالنا العالية صامتة ، أنظر نحوها من جديد ،
فلا أرى على جدرانها سوى آثار طعنات التاريخ .
إذا كثرت الطعنات على إهاب الجبال
فقد تتفجَّر براكين في يوم من الأيام
يُخَّيل إلي أن السفن بانتظاري منذ زمان بعيد
وهاهي الأمواج تتقاذف زورقي
ومن أعماق البحر يتردّد صدى أُغنية
مفعمة بالحب و العنفوان :

" سترتاح أرواحنا أكثر إذا رقدنا هنا ،
في هذا البحر الذي ترفده أنهار الوطن ،
لن تعتب علينا الأجيال القادمة ، فحياتنا الحافلة
أنهيناها هنا بعد أن فعلنا ما قدرنا عليه "

يخَّيل إليَّ أن كلماتكم الأخيرة ، كانت من هذا القبيل ،
و أنكم لم تتعلقوا بالوهم عندما سدّت الطرق في وجوهكم.
وكان ذلك جزءاً من شجاعتكم اللامتناهية
وكان ذلك آخر ما يستطيع أن يدافع به الإنسان البريء عن كيانه وحبه..
وها أن الآن أجوب في أنحاء البحر
من أجل أن أعيد إليكم اعتباركم

**

من أجل أن أعيد إليكم اعتباركم
أبدأ رحلتي أيها الجنود المجهولون .
فمن أجلكم أنتم الذين لم تخفضوا رأساً للعدو ،
مازال ينبض قلب الوطن ..

أتمشَّى في أرض الوطن  على شارع الربيع العريض ،
كل شيء يضحك ، وهاقد أزهرت أشجار الكرز .
وهاهو طفلٌ تفجرت ضحكاته ،
وهو يناغي على صدر أُمه

الريح تضرب مرة أخرى نافذتي
وتفتح باب الدار تناديني للرحيل
***
الريح المتعبة تفتح بابي ، تناديني للرحيل ،
من يدري ،ربما كانت تعدو دون أن تترجل
عبر القرون وعبر السنين
وقد وصلت إلينا للتو تحمل شيئاً من أخباركم

عندما تصفِّر الريح بعنفوان عبر الأسلاك المغلفة بالجليد ،
و المشدودة إلى أعمدة الطرقات،
فإنها إنما تخاطبنا نحن بكل جدية ،
أنصتوا ، ألا يشبه صوت الأسلاك صليل السيوف !

تتلاحق أصوت دوّي القطارات
وَتصَغر الكرة الأرضية عندما تنطلق الطائرات .
ومع ذلك فإنني أحسُّ أن هذه الأرض لا تهتز ..
إلا من أصوات سنابك الخيل

إنّ جراح الأرض مازالت مترعة بالملح
ومازالت تؤلم صفحات تاريخنا .
**
التاريخ نخب بطولة بالنسبة لنا، ولكن الزمان
كم غصناً قصف من صفحات تاريخنا؟
وكل غصنٍ كالفولاذ المسقي كان بطلاً لاتلين له قناة
ولكن من الذي استطاع أن يروِّض الزمان

لم يستطع أحدٌ أن يروِّض الزمان

ولكن عجوزاً شركسياً قال منذ سنوات طويلة :
"عاقل من يستطيع أن يساير عصره"
و أصبحت كلمات جباغ مضرب الأمثال إلى اليوم .
بمثل هذه الطريقة كان يفكر الأجداد.
ولو لم يسرج أولئك الأجداد خيولهم،
ولولم يبذروا النجوم في درب التبان
هل كان بإمكان الطائرات اليوم أن تخترق الغيوم ؟

وتضرب الريح الغاضبة نافذتي بقوة،
وهي تذكّرني بكل هذه الأشياء دفعة واحدة

**

غاضبة تضرب الريح نافذتي بقوة
و أسمع صوت غناء متواصل لا ينقطع
ومن سمائي يطل هلالٌ مضيء ،
يحرق بنوره الفضي ظلمات الليل .

كنت سأنطلق الهوينا محلقاً في الفضاء ،
بهذا الأمل الوحيد الذي يقوم مقام الجناحين
مازالت بطولاتكم شواهد الطريق على دربي
وهي ملء العين وملء الأسماع وفي نقاء الطفولة

عندما انهمر رصاص الأعداء عليكم يُجندلكم
لم أكن أنا على الأرض في تلك الأيام
وها أنا الآن أبحث عنكم في قاع البحر (5)
محاولاً ما استطعت ، أن أعيد اعتباركم

ويفتح تاريخنا البوابة ، يناديني للطريق
إن التاريخ بالنسبة إلينا نخب بطولة

**

مازالت قصيدتي لم تكتمل بعد
ومازالت أغنيتي بدون لحن
الأمل هو رفيق دربي الوحيد
وهو وحده لباسي وهندامي
وإذا لم أستطع أن أضع السرج إلى الآن

[5] - يقصد الشاعر البحر الأسود الذي غرق به آلاف المهاجرين

على هذا الأمل ، الحصان الجامح .
فأنا لاألوم الحصان الأصيل " الألب " .
لأن القدرة على ركوب الخيل منوطة بالرجال .

# صخرة الدموع

## شعر : غوبجوقة ليوان

## من ديوان " ألحان العصر " نالتشك 1980

■ ترجمة : ممدوح قوموق ■

**من ديوان " ألحان العصر "**
**نالتشك 1980**

**في الشمال من مدينة طوابسة ، وعلى شاطئ البحر الأسود ، تنتصب صخرة عالية اسمها " صخرة الدموع " وبها يرتبط الكثير من ذكريات التاريخ الشركسي .**

كم من القرون عبرت وأنت تنتصبين هناك
شاهداً على تاريخ شعبي ؟!
وكم من مرة ارتطمت بك الأمواج
غاضبة ، صاخبة تحاول النيل منك
" يا صخرة الدموع "
" يا صخرة الدموع "

ويقولون أن الدموع التي تنساب منك باستمرار
هي دموع امرأة شركسية
ومهما بلغت حدة أشعة الشمس المسلّطة عليك
لا تستطيع أن تجفِّف منها دمعة واحدة
" يا صخرة الدموع "
" يا صخرة الدموع "

يخيل إليَّ تارة أنك مرآة للبحر الأسود
و أخرى يخال إليَّ أنك ترس لشاطئ البحر
أيتها الصخرة التي لا تكف سياط الأمواج الغاضبة عن النيل منها،
هل سأراك يوماً وقد توقَّفت عن البكاء ؟!
" يا صخرة الدموع "

" يا صخرة الدموع " ؟

كم من السفن تساقطت ظلال أعلامها السوداء
على مرآة جبينك المشرق
وكم من الليالي سهرت وأنت تعصرين قلبي
وتذرفين الدموع يا صخرة الدموع
" يا صخرة الدموع "
" يا صخرة الدموع "

عند ضفة شابس
أيها النهر الجبلي الصغير
ياغزالاً سريع الجريان
متمرداً كحصان شركسي لم يعرف القيود بعد ،
ماالذي جعلك بهذه الحال التي لا أستطيع معها
أن أعرف ما إذا كنت تضحك أم تبكي

يخيل إليّ أنك إنما تنبع من صدر الأم ،
فما الفرق بينك وبين حليب الصدر ؟
هل أعطاك أجدادنا هذا الإسم
بعد أن سقوا خيولهم من نمير مائك

ثم قدّموا لك غابة السنديان هدية
لقاء الاسم الذي منحوك إياه
إنها تذكار من الأجداد لا أملَّ منه ،
وعندما تتلاعب الريح بأغصانها
يُخيل إليّ؟ إنها إنما تتناجى بلغتنا الشركسية

أيُراودك الحنين أيُّها النهر
للفرسان الشراكسة الذين كانوا يرتاحون عند ضفافك
أو للشركسيات اللواتي كنّ يأتين للانتهال من مياهك

وهنّ يتهادين بشعورهن التي تصل إلى الأرض ؟
يُخَيَّل إليّ أيُّها النهر أنك مازلت تجري وراءهم
وأنت تصهل كمهر فقد أمه
ويخيّل إليّ أيُّها النهر أن أحزانك ،
تصبح بلا نهاية عندما
لا تجد أحداً منهم في طريقك

وعندما يلقي البحر الأسود بأمواجه العالية عليك
كحبال مجدولة لتقييدك وكبح جماحك .
تتوقف عن البحث عن الفرسان في أسى
وتعض على أحزانك في صمت

❑❑❑

# دروب التاريخ
## / مقتطفات من القصيدة /
## للشاعر باتي بالقز

■ ترجمة : فيصل جلاحج ■

كانت الأمواج تتقاذف السفن الهرِمة
وهي تئن مترنحة.
وينشد البْجَدو غ6 مراثي حزينة،
تُقطّع الأوصال.
يُردِّد الوبيخ[7] والشابسيغ[8]
كلمات المرثاة ،
ودموع النساء المرَّة
تزيد الأغاني مرارة.
يلقي الشراكسة على القفقاس
نظرة الوداع الأخير بحزن عميق،
ودموع الرحلين
تذرف بلا توقف.

تلمع صفوف (الحَزِر )[9] ، نجوماً حمراءَ
على صدور الأردية المتناسقة
وتُمنطقِ الذوائبُ الخصورَ النحيلة
بسيوف ماضية.

[6] - قبائل شركسية. والبيخ من القبائل التي تم فناؤها بالكامل.
[7] - قبائل شركسية. والبيخ من القبائل التي تم فناؤها بالكامل.
[8] - قبائل شركسية. والبيخ من القبائل التي تم فناؤها بالكامل.
[9] - الحزر : عبارة شركسية ، يُدلُّ بها على عبوات صغيرة للبارود، لها غطاء فضيّ ، تُثبَّت متراصفة داخل جيوب خاصة بها على صدر رداء المحارب.

تعدو الخيول الأصيلة مضطربة قُبالة الشاطيء،
تناجي الشعب المهاجر بصهيلها
فكأنها أدركت هول المأساة
وأدمت من الفمِّ قلوبها.
يتلوى.. البحر الجامح،
ينتفض نحو السماء ثم يرتمي بضراوة.
وآثار الفواجع
تدفنها الأمواج.
يلعق اليمُّ أصوات النحيب
كأنها دموع اليتامى
وما يبتلعه البحر من السفن
تتخاطفه الأغوار السحقية.
أولئك الذين جعلوا لك
من السفن الزائفة ومن السفن المثَقَّبة صهوة،
أولئك الطامعون بأرضك
كانوا يتعجلون موتك.
الضَّفة المقابلة – مصير أليم.
زرائب الأتراك الحقيرة في الانتظار
والموت جوعاً للآلاف هناك
طريقة قتل هادئة.
لا، لا تقولوا بأن الشراكسة
افتقاراً للشجاعة قُهروا !
أو تخلّوا عن الوطن الغالي
وبمحض اختيارهم رحلوا.
إن كثيراً من الأمراء، زعماء القبائل ، ظنوا
أنهم على درب الصواب.
وأوامر الشيب دوماً نافذة ،
لا تقبل الاعتراض– كما لا تعود الرصاصة بعد انطلاقها.
لقد اقسموا بالله أنهم
ينقذون البشر من موت محقق.
وللأمانة – كانوا بصدقٍ حريصين.
على إنقاذ نسلهم من الفناء.

# في بلاد الأتراك

إيه يا " غربة"
بمرارة أحتسيها
إلى يومنا هذا ،
كلما ولجتُ بابها.
أيا تركية المترامية الأطراف!
حتى وإن لم تسطع في سماكِ شمس الوطن،
ولا كان صدرك
كصدر الأمِ للشركس دافئاً،
حتى وإن عاش على ثَراكِ إخوة لي،
يتلهفون للغة الأم شوقاً
فلكِ مني التقدير
لأن أبناء أمتي كُثُر لديك.
سواء بعيداً عن البحار أم بجوارها،
حيثما يعيش الشركس في العالم أشتاتاً
لكم من القلب التحية يامن
غدوتم لأبناء جلدتي بصدقٍ أهلاً.
عجلة التاريخ تدور،
والعالم يتبدل
أبناء الشركس إلى وطنهم
تباعاً يعودون .
لو أنَّ حياته توحَّدت
شعب النارتيين[10] ، العريق،
وعادت لأجياله
سهوب القفقاس،
لا يمكن البتَّة، نحن الإخوة ، أن ننسى
جميلاً أسدي إلينا.

---

10 - النارتيون: قدماء الشراكسة

دأبنا دوماً ، نحن الشركس، أن نساوي
الخبز والملح بحليب أمنا.
ألا فلنشيّد لكم، يا بلدان العالم الصديقة
جسور أخوَّة أبدية
ولكم منا تقدير ، يليق بكم
عرفاناً صادقاً بالجميل

❑❑❑

# البحث عن السعادة
## للشاعر : بوريس أو طيج
## من ديوان حبيبتي داكنا غوه - نالتشيك 1987

■ ترجمة : فيصل جلاحج ■

هادئة.
ليلة شتائية هادئة.
لكأَنَّ العالم غارق في سبات عميق،
وكأن عباءة الثلوج الناصعة
تلُفُّ جسد الأرض المقرورة.
يطقطق الحطب في الموقد الشركشي.
رائحة الدجاج المشوي تملأ أرجاء الغرفة.
تنهمك أمي بطهي الطعام.
وعيناها المفعمتان بالبركة تغمرهما البهجة...
السعادة تملأ البيت!...
لكني
سأمضي غداً ، باحثاً عن السعادة...
تلك هي طبيعتنا نحن البشر:
نغفل عن السعادة التي تكتنفنا
ونجوب العالم بحثا عنها.
لكننا ، في يوم ما،
وقد بلغنا من العمر عتيا،
وأنهكتنا السنون،
ونال منا الندم،
نعود أدراجنا،
دون أن نجد ماكنا نحلم به؟!

ونلقى:
الموقد الشركسي وقد خبت ناره،
ورحلت الأم الغالية من الحجرة الدافئة ،
وغدا كل شيء بارداً ، مملاً ، شاحباً،
وسرق الزمن سعادتنا...
غداً، سأمضي باحثاً عن السعادة.

❑

# مراث

رياح باردة . ضباب . طين خريفّي.
حُجرة مقفرة. ضجر لا متناهٍ...
إلى ما وراء بوابة الدار تقفز عيناي،
باحثة عن العالم الذي ضاع مني.....
لقد رحلت من كانت ترحب بي متلهفة ،
لم تعد في هذه الدار.. أمي.
بيتنا ، الذي كان في وقت ما
نشوان في أرجوحة السعادة
يغمره الحزن الآن.
تروي عتبتنا مَرثاة حزينة،
وتذرف النوافذ المظلمة الدموع.
تزمجر العاصفة في الموقد ،
وتُمزِّق الجدران المتجلِّدة نفسها..
تُرى .. من يكون بحاجة لأحزاني،_
إنها لي وحدي ، فلتبق لي.
ودون أن يحس بي أحد
أسترجع لحظات السعادة الغابرة:
مثل عش بلابل جميل،تلوحُ الآن أسرتنا أمام ناظري.
يظهر والدي في قلب الضباب ، محلقاً كغرنوق عملاق،
وتجلس أمي ، كحسون بديع،
تحدثني بالكثير.

وأخي الذي، بأسىً عميق ، ارتحل عنا
يرجع مثل سنونوة.
وكحمامتين ناصعتي البياض تبزغ شقيقتاي،
وقد عادتا إلى ريعان الصبا.
لكن – وفجأة ، يختفي عالم الذكريات الرحب في ضباب المساء؟!
تُرى .. من ذا بحاجة لأحزان قلبي؟
إنها لي وحدي ، فلتبق لي.
ودون أن يشعر بي أحد
أدفن السعادة الغابرة..
ريح باردة . ضباب .طين خريفيّ
حُجرة مقفرة . ضجر لا متناهٍ...
العين لا تتخطى البوابة:
فهناك ينتهي هذا العالم.

❑❑❑

# الحسناء والربيع

للشاعر : زُبير تحه غَزيت

من ديوان " الأعمال الكاملة" - نالتشيك1994

■ ترجمة : فيصل جلاحج ■

ينساب الهواء عليلاً
وتتجلي زرقة السماء.
تظهر في سهوب الربيع
حسناء في عمر الزهور،
استيقظت
مع بواكير الضياء
تَرى الحسناُء
صورتها
في جمال الربيع.
يرى الربيع
حُسنه
في جمالها.
يطير الربيع الفَتّي فَرَحاً
فتناجيه الحسناءُ ابتساماً.
تُلاطف النُسيماتُ وجنتيها
فتردُّ،
بلا كلماتٍ
على المداعبة بمثلها.
تنظر الحسناء
إلى السماء اللازوردية:
" ياه ، ما أعلاها!"
تُطلُّ السماءُ
على الحسناء الشهلاء:
" يالصفاء عينيها!"
تُحدقُ الحسناء في الجبال
المتوَّجه بالثلوج:
" ما أنصع بياضها!"
تتفرس القمم الشاهقة
في وجه الحسناء
" ما أبدع نقاءه!"
تُمعن الحسناء النظر
في البراري
المجدولة بوشاح من الورود:
" يالروعتها !"
يتأمل الربيع
ثوب الحسناء
المطَّرز كالعنقود:
" يالفتنته!"
تُغنّي الحسناء
" يا أرقط العينين"–
الأغنية التي أسرت قلبها.
يردد الربيع
لحن الأغنية
بأصوات الطيور الشادية

## ■ الحسناء والربيع ■

تغمر السعادةُ
الحسناء
لاحتفاء الطبيعة بها.
تُهلِّل بالفرحة
المروجُ – الأم
لافتتان الحسناء بسحرها.
يتبادل الربيع والحسناء
نشوة الفرح
يتفاخران في أوجه الخير لديهما.
يتباريان في الحُسن ،
دون أن يحسد
أحدهما الآخر.
وأنا أرنو
وأُسائل نفسي:" أيهما أحلى؟"
" مَن الربيع منهما،
وأيتهما الحسناء؟"
يختلط عليَّ الأمر في كل مرَّة...

❑❑❑

# للشاعرة : فوست قبردي
# من ديوان : القمَّة التي لم تُقهر - نالتشك 1994

■ ترجمة : فيصل جلاحج ■

## شكوى المال

يقولون – " إنك، أيها المال أصل كل بلاء"!
لكن من أوجد مصائب الدنيا
هو أنت ، أيها الإنسان ، – فاسمعني!:
بداية للويلات خلقتني،
وأسميتني " مالاً"،
وسيأن ذهباً كنت ، أم فضة ، أم أوراقاً نقدية
فأنا من يزلزل حدود هذا الكون!
إنني الشقاء لكثيرين!
من لا يملكني يضنيه الفمّ،
ومن يمتلكني يجفوه النوم!
فَقَدَ الخيرُ والجمالُ وماءُ الوجه
مكانه في حياتهم، وغدوتُ محطَّ أنظارهم الوحيد!...
لا، أنا لست حراً–
السيادة لك أيها الإنسان،
فأنت من أوجدني !
لكني سأخبرك الحقيقة الآن،
مادمت قد استدعيتني!..

كم يُسعدني
أن يضمني إلى صدره
إنسان شهم قوي
فرحٌ، مرحٌ
نالني لقاء كدِّه
اخالُ أن هناك بلاداً
أناسها متآخون،
وحياتهم رغيدة،
وهم لا يسرقونني..
تأمَّلْ إنساناً في الحقل!
ينهض مع أذان الفجرْ ،
يفلح الأرض ويزرعها،–
ويستنبت من الغابة الدُّرر...
وذاك من قعر المنجمْ
معفراً بالغبار ، ينبش الفحمْ
وآخر يغزو الفضاء ،
ومن يمتطي البحرَ،
ومن يشحذ الفكرَ،
ومن يقهر الصخرَ،
ومن يخترق عَنان السماء..

في أكفِّ هؤلاء
أُوضح أنا أجراً لكدحهم.
وتعبيراً عن فرحهم بي
يفيضون بالخير،
ويمنحونني للفقراء،
ويتعافى المرضى،
ويعيشون في سعادة
بعيداً عن المكائد والشرور
ولكن ،
في أماكن عديدة
يتجبرَّ الثريّ بقوتي!
وينزوي من لست بحوزته
في بيت خاو ، تعبث في ثناياه الريح
لأولئك المستبدين
أشحذ أنا أسناني:
لمن بآلاف الملايين يكدسونني،
وفي الصناديق الحديدية ذهباً يملأونني.
يكسبونني ثمناً لدماء البشر،
للأنفس التي تقتل بلا رحمة.
وكلما أسرفوا في صناعة السلاح
أزهقوا مزيداً من الأرواح.
أيها البَطرون التعساء،
ستدمركم شهوتكم لي!
ستفرغون العالم من الوجود،
وتختفي الأعراس من حياتكم!
وإن لم تبيدوا أكداس القنابل،
فأنتم معها بائدون !
يامعشر البشر ، بالله عليكم،
حكِّموا ، حكِّموا عقولكم!
وإن شئتم أن تعيشوا بسلام
فعودوا لإنسانيتكم !–
اصنعوا من حديد القنابل محارِثَ،
وزعوها على بُناة الأرض!
ومن سبائك الذهب
صوغوا لفتياتكم حُلياً من الذهب!
تحروا من سديم المال،
ودعوا الشمس تلفحكم بحرية !
اجعلوا عالمكم موطِئ سلام
وعيشوا حياة لايُشبع منها!..
فإن لم يحدث..
فأنت ، أيها الكائن البائس ،
من سيكابد الويل،–
وأنت من سيفنى !...
ويبقى العالم الرحب رماداً ،
خالياً من كل حياة!

❑❑❑

# الشاعر القبرديني
# علي أسعد شوجن سكو
# حياته - وأشعاره -

■ ترجمة: نديم ميرزا ■

إن الأدب القبرديني الذي شهد ميلاداً جديداً في بداية القرن العشرين ،ونبت بجذوره الضاربة في أعمق أعماق الأرض وكذلك من ضمير الشعب ووجدانه بدأ ينمو في هذه الحقبة ، منطلقاً من الثقافة الشعبية والوعي القومي الذي أعطى للأدب زخماً وغنىً و تطوراً ، والأديب الشاعر الذي أبدع في عطائه الأدبي ونتاجه الشعري والذي كان من رواد النهضة الأدبية القومية هو ( علي شوجن الصغير ) الذي يعرفه شعبه جيداً ، حيث عشق أمته التي أنجبته بكل جوارحه دون تصنع أو رياء ، من هنا كان نتاجه الشعري الثر خالداً لا يعرف الموت ، وتدرك عمقه ومعانيه الخالدة كل شعوب الإتحاد السوفيتي سابقاً .

إنه الشاعر الكبير الذي يعتز به الشعب الشركسي بأسره حيث ينبض بالحب والإنسانية ويبرز أفكاراً عظيمة عن الحرية ، ناضل بشعره مع الكادحين والمقهورين من أبناء الطبقة المسحوقة وكانت كل كلمة من قصائده الشعرية تمتلك قدرة كبيرة على التأثير في القلوب والعقول معاً حيث تصدر عن روحه الصادقة الطيبة وقلبه الدافئ الكبير بكل صدق وعفوية .

ومن خلال سبر أغوار شعره تراه مشحوناً بالقلق والتوتر والإحساس المرهف العميق بالواقع وبالمعاناة المريرة منه .

على أن عمر الشاعر علي شوجن لم يكن طويلاً ، لكنه أعطى لشعبه شعراً غنياً مفعماً بالوفاء وتفانى في إبداعه وعطائه من أجل وطنه القومي .

لقد بث الروح القومية القبردينية في الأدب و أرسى له قواعده الأصيلة وغرس جذوره وشق له الطريق القويم وبذلك اعتبر من الرواد الأوائل للأدب القومي القبرديني ، حيث نظم القصائد بلغة شعبه المعذب الصغير وبألفاظ موحية و معبرة استطاعت أن تعبر عن أفكاره القومية بصدق ووضوح وأن تؤثر في اتجاهات الجماهير من أبناء أمته .

إن نتاجه الأدبي الرائع المكدس لوطنه ومستقبل شعبه هو الذي جعل مجلس الشعب القبرديني يمنحه وسام التقدير من الدرجة الممتازة لأنه وضع حجر الأساس للأدب القومي الكلاسيكي القبرديني .

وكان واقع الحياة الشعبية هو مصدر عطائه مع الإستعانة بالتاريخ حيث يمزج دوماً بين الماضي والحاضر ليسلط الضوء على المستقبل ، وليس من السهل أبداً أن يستحوذ المرء على حب

الشعب ، ولكنه حين يفتح قلبه لك فإنه سيكون مخلصاً في حبه وسيخلدك في ضميره إلى الأبد وهذا ما حدث بين شاعرنا الكبير وشعبه حيث تبادلا الوفاء ، وليس من نصيب كل أديب هذا ، ولكن علي شوجن من الشعراء القلائل الذين خطوا بهذه الميزة وهذا الحب الخالد من شعبه الوفي ، ومازال يعيش في فؤاد شعبه الدافئ حتى يومنا هذا وسيبقى هكذا إلى أمد طويل .

وبالطبع إن موقعه الذي احتله في صدر شعبه يماثل موقع أي شاعر وطني هامَ بحب أرضه وتراث أجداده وعاش مع آلام قومه وآمالهم فاستحق بذلك كل الحب والتقدير .

ولد الشاعر علي شوجن الصغير بن أسعد عام 1900 م في قرية ( جمكة كوشمز قوي ) القبردينية .

وبولادته في أسرة فلاحية كبيرة ازداد فم جديد يبتغي الطعام ونما الصغير وأبوه وإخوته الكبار يعلمونه أعمال الفلاحة حيث الحقول تنتظره بشغف ، ولكن الطفل الصغير النبيه يحظى بمن يشرف عليه ويقوم على تنشئته وتوعيته وتوجيهه، حيث شاء القدر له بذلك أن يتجه باتجاه الأدب والشعر بدل الزراعة ، عندما اكتشف جده العجوز ببصيرته النافذة وخبرته الواسعة موهبة حفيده وملكته الشعرية، انتقاه من بين إخوته ليعنى به ملقناً إياه اللغة و الأدب والحكمة ، مما هيأ للطفل فرصة التعمق في الأدب القديم آخذاً بيده وهو يشرح له المعاني والأفكار ويطلعه على أخبار الشعراء القدامى والأغاني الشعبية ومبادئ اللغة .

ويدخله جده الكتاب الذي كان يقتصر على تعليم الكتابة والقراءة فحسب ، وبعد أن أنهى الصغير تعليمه أراد جده أن يكمل هذا الطفل الذكي تعليمه عام 1914 م في المدرسة الوطنية الوحيدة في بلاد القبردي و الكائنة في عاصمتها نالتشك ، لكن هذه المدرسة التي كانت قد افتتحت لأولاد النبلاء وذوي الدماء البيضاء النقية أوصدت أبوابها في وجه ابن الفلاح الفقير فعاد خائباً إلى القرية .

ولكي لا يحرم من إتمام تعليمه يدخله جده المدرسة الدينية الإسلامية التي افتتحت في مدينة باخسان المجاورة ليعده فقيهاً وإماماً للقرية .

لكن الطريقة التقليدية المتبعة في التعليم وجهله باللغة التركية حالت بينه وبين الحصول على العلوم التي يود الحصول عليها ، لكن التلاميذ في هذه المدرسة كان أملهم الوحيد هو المعلم ( نوري ساغوة ) الذي كان رائداً لهم يسرون إليه بخفاياهم ويذكرون له معاناتهم فأحبهم وأحبوه وهذا هو الذي غرس فيهم محبة اللغة القومية ومن بينهم شاعرنا علي شوجن الذي أصبح قريباً من معلمه ملازماً له في المدرسة والبيت. وبفضل هذا المعلم يتعمق علي شوجن باللغة القبردينية القومية والتاريخ والأساطير الشركسية القديمة .وتعود تذوق أدب قومه وصار يدرك معنى الأمة و تاريخها وأمجادها

ولغتها وأدبها وعلومها من خلال ارتشافه مناهل العلم والمعرفة على يد هذا المعلم الوفي والمربي الكبير .

ويزداد إلمامه في هذه الفترة باللغة التركية أيضاً وينتقل بعد ذلك إلى المدرسة الدينية التي افتتحت في بلاد الداغستان عام 1915م ويتخرج منها عام 1916ويوفد إلى دار المعلمين ببلاد القرم ويتابع تحصيله العلمي فيها ويتوسع في علوم اللغات والآداب وتقوم الثورة في روسيا عام 1917 ولم تعطه الثورة شيئاً في البداية رغم ما توقع أبناء الكادحين من منجزات إثر إنتصاراتها ، حيث الحرب الأهلية استمرت والحرية بقيت أملاً ، فخاب أمل علي بالثورة لأن البورجوازية كانت قد بدأت تسيطر عليها وتغير مسارها والدم والجوع كانا يزدادان يوماً بعد يوم ، ولم يستطع علي أن يعود إلى وطنه القبردي لأن الطريق إليها لم تكن آمنة حيث نار الحرب الأهلية تأكل الأخضر واليابس .

وفي هذا الوقت الصعب وهو في بلاد القرم يغرر بالصبي اليافع علي ويرحل بالباخرة عبر البحر الأسود إلى تركيا ليلحق بإخوته المهجرين لعله يجد هناك الملاذ الآمن ليكمل تحصيله العلمي الذي يسعى من أجله دون كلال .

وهناك في الدولة العثمانية يكابد الفتى الغريب آلام البعد عن الأهل والوطن وهو بين أنياب الزمن القاسي حيث الجوع والعسر الشديد وقسوة الحياة – ورغم ماكابده من أسى فإنه لم يترك دراسته التي سافر من أجلها ، فينتسب إلى المدرسة حيث يعمل أعمالاً شاقة في الليل ليكسب قوته ويدرس في النهار ، ويتعمق في اللغة التركية وآدابها وكذلك يصبح ضليعاً باللغة الفرنسية .

وبعد مدة يتعرف على بعض المثقفين والمتعلمين من الشراكسة المهاجرين إلى الدولة العثمانية ويطلع على مؤلفاتهم وآرائهم ويقدمون له العون من أجل متابعة تحصيله . ويبدأ علي شوجن سكو بنظم الشعر أثناء وجوده في تركيا ،حيث تتفتح قريحته وتتضح تجربته ويختمر وعيه أثناء معاناته لمحنة الفقر والغربة فرأت باكورة قصائده الشعرية النور في تلك الفترة الحرجة من حياته .

بالطبع إن قسوة حياته في تركيا ومعاناته المريرة وخبراته القاسية التي اكتسبها طبعت شعره بطابع الألم وأغنت تجربته بالكثير من الأحاسيس والمشاعر الإنسانية وتفتقت موهبته الشعرية في تلك البيئة التي ينطق فيها الصخر والجماد ..

رغم حنينه لوطنه الأم كاباردينا فإنه يمكث في تركيا ويجمع حوله عدداً من الشبان الشراكسة المهتمين بلغة آبائهم وأجدادهم ويصدرون صحيفة الشرارة باللغة الشركسية.

نشروا فيها مواضيع عن التاريخ والأدب والأساطير الشركسية القديمة ، وقد لعبت هذه الصحيفة دوراً بارزاً في ربط مشاعر وأفكار القفقاسيين الجبليين المهجرين إلى الدولة العثمانية بالوطن الأم ، وقد ناضل الشارع الكبير علي شوجن سكو من أجل غرس حب الأمة ولغة الأجداد والوطن الأم في نفوس الشراكسة بتركيا .

ويستمد الشاعر القوة في نضاله ممن حوله من الباحثين والمهتمين بالمواضيع التي طرحها عليهم هناك ويتابع منهجه في سبيل اليقظة القومية وعودة الشعب الشركسي المشرد إلى وطنه .ويعبر

الشاعر علي شوجن بأشعاره التي نظمها في ذلك الوقت عن واقعه الذي عايشه بكل جلاء ليكون نتاجه الأدبي شاهداً حياً على معاناته ومعاناة شعبه المشرد في أرجاء الدولة العثمانية .

وقد أدرك تماماً أن الحياة القاسية والمحن التي يعيشها القفقاسيون الشماليون الجبليون المهجرون إلى تركيا هي بداية نهايتهم حيث تهدم كيانهم وشخصيتهم حالة التشرد والضياع خارج وطنهم .

وقد أورث الشاعر هذا الواقع الأليم إحساساً عميقاً بالمرارة والأسى حيث كانت قصائده مصبوغة بألوان الحزن والقتامة المعبرة ، كان يرى بأم عينه كيف يسير شعبه نحو الفناء بضياع لغته وهجران عاداته وتقاليده وقيمه وانصهار تراثه وثقافته وتغير مجرى حياته وأنماط تفكيره وزوال هويته القومية ووعيه شيئاً فشيئاً مع الزمن .

وكان الشاعر يعود باللائمة في ذلك كله على السلطة العثمانية الحاكمة البغيضة آنذاك حيث كانت تسعى إلى إبادتهم بتوطينهم في أرجاء الدولة العثمانية مبعثرين هنا وهناك ومنع المدارس باللغة القومية عنهم والاستبداد بمصيرهم وحرمانهم من الحرية والعدالة والمساواة .

فتألم الشاعر من هذا الوضع ألماً شديداً وهو يرى مصير شعبه المحتوم وهو يسحق بأيدي السلطات العثمانية بقسوة ووحشية دون رحمة في إطار سياسة التتريك الجائرة التي اتبعتها إزاءهم .

إن الظلم الذي لحق بشعب هذا الشاعر جعله شقياً بائساً وأورثه هماً دفيناً صارهاجسه في كل أشعاره التي نظمها في تلك المرحلة من حياته .

ويبرز الشاعر ألمه ومعاناته القاسية حين كان في استانبول من خلال قصيدة له بعنوان ( في الحديقة التركية ) إذ يقول فيها :

**في أمسية صيفية حارة**
**كنت أجوب أنحاء الحديقة التركية في استانبول**
**واضعاً رأسي المثقل بالهموم بين يدي**
**وأنا أفكر ملياً بمصير شعبي الشركسي الضائع**
**هنا في بلاد الغربة .**
**أصادف أمامي جماعة من الصبايا الملاح**
**سابحات في الحديقة كثعابين البحر**
**أثرن فضولي ، فتابعتهن لأتعرف عليهن**
**فإذا بهن أخواتي الشركسيات : ستناي ،**
**وجان خوت ونفن .**

**أقترب منهن بشوق وأنادي**

**أختي ستناي - يانور عيني**

**وأحييها بالشركسية مفضياً إليها بسري**

**فترد على لغتي الشركسية الدافئة**

**بلغة العثمانيين الأتراك**

**حينئذ تشعرني بالغربة والإحباط**

إن هذا الموقف الصغير أثار في نفس الشاعر مشاعر سلبية كثيرة وعزا السبب إلى النظام العثماني الذي يمارس الضغط والقهر والإذلال على المهجرين الشراكسة إلى جانب عدم التزام القفقاسيين الجبليين بالحفاظ على عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم وطباعهم بشكل حازم وقوي .

وطالبهم بأن يبذلوا قصارى جهدهم بإرادة قوية من أجل الحفاظ على شخصيتهم المهددة بالزوال حيث صاروا على شفا حفرة من الفناء إن بقيت حالتهم كذلك .إنه اعتبر ستناي وجان ونفن وأمثالهن رمزاً لهذه الشخصية الشركسية المهددة بالتهدم ابتداء من زوال اللغة القومية عن الألسن لذا فهو يوبخهن على ذلك ويوجه اللوم والتقريع إلى سلوكهن اللامبالي واللاقومي حين قال لهن :

**أخواتنا الحوريات الجميلات**

**أشعر بالمذلة وأنتن لا مباليات**

**أشعر بالمهانة**

**وقد أهملتن لغة الآباء والأجداد**

**وأنتن في أحضان العثمانيين الأوغاد**

**وتقبلن بأن تجري فيكم دماء الغرباء**

**جالبات العار لأمتكن**

**أتذكر اليوم أجدادنا وشبابنا في القفقاس**

**الذين عرفوا بالأنفة والكبرياء**

**الذين ستنفطر أكبادهم ألماً على ماحل بكن**

**لذا فإني سأبقى حانقاً على مابدر منكن**

ويتذكر الشاعر هنا الماضي و الوطن ويعتز بشعبه الممزق الصغير الشجاع الذي يرفض الرضوخ للغزاة المارقين قائلاً :

**إن العلم الأسود لجنكيز خان**

**لن يكون يوماً ظلاً حانياً للشراكسة**

**وإن شمس تيمورلنك الحارقة**

**لن تذيب الثلج الدائم على قمة جبل**

**أواشحه ماكوه**

وقد عاش الشاعر بنفسه مجمل المشكلات التي كان يعيشها الشراكسة في الدولة العثمانية كالفقر والمرض والجهل والقهر والإذلال ، وكان حنينهم المشبوب إلى وطنهم الذين اضطروا إلى تركه يستعر بين حنايا ضلوعهم وأشواقهم إلى ديارهم التي نزحوا عنها لاهبة تحرق أفئدتهم ، إنهم يعيشون حياة العذاب والحرمان والاضطهاد في بلاد الغربة ، وفي قصيدة له بعنوان ( أمي ) يبين الأسى الذي يكابده الشركسي من خلال حياته في العهد العثماني والحنين إلى الأم التي ترمز إلى الوطن البعيد إذ يقول :

**أمي الغالية ، آه لوتدرين بما حلَّ بولدك الصغير**
**في بلاد الغربة البعيدة**
**إنه واقف على شط البحر مطرقاً لا حول له ولا قوة**
**واقف على أرض الغربة بلا أب ولا أم**
**وهو يلقي بروحه المتلهفة إليك على متن**
**الأمواج المتلاطمة**
**ليعود إلى حضنك الدافئ**
**أمي لا يوجد أحد هنا اليوم يستطيع**
**أن يريني قمة جبل أواشحه ماكوه**
**أمي ، لاتوجد هنا أم واحدة مثلك**
**تمسح على رأسي بدفء وحنان**

ثم يصف الشاعر حياته في مدينة استانبول التي تمثل حياة كل شركسي شريد ومهجر حيث يقول :

**مدينة صاخبة تطل على البحر الخضم**
**والسفن العملاقة تزحف للشط كالحيتان**
**والحمالون يفرغون حمولتها وهم يمسحون جباههم**
**المتعرقة بطرابيشهم المتسخة**
**أمي ، هؤلاء الحمالون هم الذين يمنحونني اليوم**
**الأمل والحنان**
**حين يمسحون بأيديهم الخشنة على رأسي**
**قائلين : مسكين هذا اليتيم الغريب الشريد**
**أمي : رغم أن أيدي هؤلاء الحمالين**

**خشنة جداً ، فإنها تصبح ناعمة طرية**

**حين تمر على رأسي**

**ورغم أن يدي بعيدة عن صدرك الدافئ يا أمي**

**فإنهم يفرجون عني الهم والضيق**

وماذا يفعل الشاعر أمام المحنة ، وأمام هذه الغربة القاتلة وهو بعيد عن الأهل والوطن لا حيلة له سوى أن يتضرع ويتمنى قائلاً :

**أمي : ليتك لم تلديني**

**ولم أجعلك بائسة بين أنياب الفراق**

**ليتني مت ولم أعش هكذا تتقاذفني صروف الدهر هنا وهناك**

**ويتوجه بالأنين والشكوى إلى وطنه الذي يرمز إليه بالأم قائلاً :**

**ماذا أفعل يا أمي**

**لا أحد هنا يفهمني**

**لا أحد هنا في استانبول يحس بما أعاني**

**أنام بين القمامات على رصيف الميناء جائعاً**

**ويسخر مني المارة من المتخمين حين يرونني**

**وأنا في هذه الحالة المزرية**

ورغم المحنة الشديدة وآلام الغربة والضياع فإن الشاعر لا يفقد الأمل بالعودة إلى الوطن الأم ، بل إنه مصر على العودة واللقاء بأرض الأجداد حيث يقول :

**أمي الحبيبة لا تجزعي ، أنت ذخري في حياتي**

**سوف تصنع اللطمات من ابنك رجلاً قوياً .**

**وسيعود إلى حضنك الدافئ عزيزاً**

**لينعم بدفء شمس الوطن**

**ليعيش قرير العين في ربوع قبردينا الغالية**

وبعد عذاب طويل يحقق الشاعر حلمه الذي ترقبه كثيراً ، ويعود إلى قبردينا وطنه الحبيب الذي أحبه حباً شديداً عام 1919 ، وينضم إلى صفوف الكادحين من أبناء شعبه في بناء الوطن ،وينتسب إلى الكلية السياسية في مدينة باكو بأذربيجان ، وبعد تخرجه منها يعمل في الداغستان ،ثم يصاب بمرض خطير يعود إثره إلى قبردينا ، ويشفى ثم ينتسب إلى دار المعلمين في العاصمة نالتشك حيث يتخرج منها بامتياز ويعمل معلماً في مدرسة قريته حيث يحقق أمنيته في أن يكون مربياً مخلصاً لأبناء وطنه الغالي حيث كان يقول دوماً : ليس أعظم وأجل من أن تبني الإنسان ، وتصنع به المستقبل .

إن الشاعر علي شوجن كان من أسعد الناس وهو يرى وطنه المتعطش للحرية وقد نالها

وعادت له حقوقه المغتصبة ، وهاهوذا يحث شعبه الجريح على مزيد من النضال في سبيل إتمام مسيرته المظفرة نحو الحرية ، إذ يقول مخاطباً شعبه في قصيدة بعنوان ( الحرية ):

**شعبي الأديغة ، قم وانتفض فقد قدِم النهار**

**قم واحتضن حرية الوطن الحبيب بلا انتظار**

**بوركت ياشعبي فأنت لحن الخلود**

**دم عزيزاً في ديارك مثلما عاش الجدود**

ويتوجه الشاعر إلى المعلم صانع الأجيال الذي يحمل بيده شعلة العلم ونور الفضيلة علىطريق المستقبل المشرق المنشود وهو قدوة للأجيال الصاعدة فيحييه قائلاً :

**عش خالداً أيها المعلم**

**يامن رفعت شأن هذا الجيل**

**بالعلم المنير**

**يامن وهبت النور للأجيال**

**بالجهد الكبير**

**يا من تبدد ظلام الجهل المخيم على جبهة الشمس**

**بالعلم والصدق والحق**

**دمت لنا ذخراً للوطن**

ويغضب الشاعر من المتشدقين الذي يكثرون الكلام دون عمل ويحمل بشدة على ذوي الشعارات الجوفاء دون تطبيق ويمجد العمل الجاد من أجل تحقيق المبادئ السامية فيقول :

**ما رأى أحد أن الكلام المعسول**

**دون عمل قد بنى وطناً**

**ما رأى أحد أن الشعارات الجوفاء**

**قد منحت أي شعب مكسبا**

**فقليل من الكلام وكثير من العمل**

**سوف يزيد المكرمات ، سيزيد المنجزات**

**فهل أحب الفلاح يوماً أصوات الرعود**

**المدوية في السماء دون مطر**

والشاعر علي يستشرف لشعبه آفاق المستقبل ويدرك بحسه المتميز ماذا سيحدث غداً .

فتوقع النصر على الفاشية المعتدية حيث يستحيل علىالغزاة أن يهزموا شعوباً قد اتحدت من

أجل الحرية والحق والعدالة ويبين كل ذلك في قصيدته بعنوان ( بيارق النصر ) التي نظمها أثناء الحرب الكونية العظمى التي شارك فيها مقاوماً في صفوف الأنصار ضد جحافل هتلر النازية إذ يقول :

**أيتها الحيتان ، لن تسع بطونكم مهما كبرت**
**مياه البحار والمحيطات الكبيرة**
**ولن تستطيعوا أن تفنوا الأمواج المتلاطمة**
**فيها مهما حاولتم**
**خيالكم العدواني ينسج لكم أحلاماً**
**خيوطها أوهى من خيوط العنكبوت**
**إنكم تحفرون قبوركم بأيديكم**
**لتدفنوا فيها أجسادكم السمينة**

ويحلم الشاعر بزمن الحرية لشعبه ووطنه قبردينا بعد الحرب ، حيث يأتي النور من الظلمة وينبثق الفرج من الضيق فيقول :

**إن الشعوب التي عاشت مكبلة**
**بقيود الغزاة**
**تحررت اليوم وصعدت بسلمّ العزة للسماء**
**وبدأت تقطف النجوم وتمسك الرعود**
**فهل سيكون شعبي الصغير منها ياترى**
**وهو يناضل من أجل المجد والحرية**

ويبحث الشاعر عن قائد مخلص شجاع يقود وطنه قباردينا إلى الحرية والمستقبل العزيز فيقول :

**ليس شعبي عقيماً**
**سينجب قريباً هذا القائد المرتقب**
**لا أريده نظيراً للإقطاعي الجائر مخاشوقة**
**سنبحث عن ابن الشعب البار**
**الذي سيكون مع شعبه المكافح ( القبردي )**
**وسنتوسل إليه أن يقودنا إلى النصر والحرية**

ويغيب النجم الكبير من سماء قبردينا في أواخر عام 1941 /حيث يستشهد الشاعر العظيم علي أسعد شوجن وهو يؤدي رسالته حاملاً قلمه بيد والبندقية بيد مصدقاً ماعاهد عليه الوطن الذي منحه العقل والقلب والجسد بعد أن أرسى بنيان الأدب القومي القبرديني الكلاسيكي الملتزم بقضايا شعبه الصغير العادلة في كفاحه من أجل الحرية والكرامة .

❑❑❑

# من ديوان " ضوء القمر"
## للشاعر قجر بيتر
## نالتشك 1984

■ ترجمة : نذير شق ■

إني أسمع..
الأمطار تهطل
بل.. تنهمر بغزارة...
إني أسمع ..
القطارات تروح وتجيء..
والأرض تموج بالحركة...
الكلُّ في عَجَل
تندفع كشهب منطلقة
لست أدري ، إلى أين؟!
لِمَ لا تهدأ هذه الأشياء؟
أرجو ألاّ يكون ..
شيبُ شاربيَّ المبكِّر
سبب ذلك...!

## أنشـــودتي

الله يخلق......
كثيراً من البشر....
الدنيا تتسع...
مزيداً من البشر...
البعض يئنّ من أيامه..
والبعض يغنّي طرباً لها..
المغنّي من أعماقه...
يُعرف من حلاوة كلماته.
تتناغم عذوبة الكلمات
وتعاهدني دوماً...
في السير معاً على درب الحياة...
ليتني كنت صاحب الكلمات...
دون أن يُعرف صاحبُها.
الأنشودة الحلوة لك....
لا أطمع بها أبداً..
جُلّ ما أبتغيه .. بقاء الكلمات
لأَجْلِكِ يا أنشودتي أعيش
أنشودة الحياة الصادقة.

❑❑❑

# الشيخوخة

## شعر باشأة بكمرزة
## الأعمال الكاملة - نالتشك 1963

■ ترجمة أحمد كاتو ■

لا تبك على مافات
واعمل ليومك
وإن فاتك العمر
لم يفت حظك
وإن تكلم الناي بأجمل الألحان
لن يحس به من مات
هكذا هي الحياة
الكبار يخلفون صغاراً
لاتيأس وإن شابت لحيتك
اعمل للأجيال القادمة
اعمل للغد الآتي
وكن بين صفوف الشباب
وإن كان ذلك صعباً
ادع إلى الخير معهم
شجعهم على العمل
لأن ذلك فضل لك

* * *

اعلم أنه لفخر كبير
إن لم يكن
في قريتك فقير

الجدول المتدفق
إلى الوراء لا يعود
مجدوا الشيخوخة
بغطاء جديد
وإن طال عمرنا
وأخذنا حظنا
ورغم ذلك
أتوق إلى النور القادم

* * *

**(27)**

إن ساد الذي لا يستحق السيادة
فأيامه معدودة
وإن لم يسد المستحق السيادة
فإنه يصافح باحترام

**(28)**

المديح كالندى
يعفن الرطب
ويرطب اليابس

**(31)**

الظالم يخاف من خياله
والجبان يتلفت خلفه دائماً
– إذا ضحك الكسول
ظن أنه قد أنجز عملاً
– إن كنت تهوى الإهانة
فأطلق لسانك
فتكثر عيوبك
وتموت رخيصاً

❑❑❑

# إلى ذكرى الشهيد العميد ممدوح أباظة.

شعر: تحزبل حسن - نالتشك آذار 1996

■ ترجمة : ممدوح قوموق ■

أنت القلب وأنت الروح
سورية ياوطني الغالي .
من أجلك تتفتح أزهار الحب.
ولك توهب أفراح الروح.

في مهدك أمضيت عذوبة الطفولة
وعلى رباك قضيت أيام الشباب
أنت من سدّد خطاي على الدرب
ولم أنقطع يوماً عن لامتناهي كرمك.

وحين دعا الواجب لم أتردّد
ولم أتوان عن سماع النداء لحظة واحدة.
يا وطناً يُفدى بالروح، إذا كان نجمي قد هوى،
فإن روحي مازالت تحوم في سمائك.
يا هضاب الجولان عبثاً تبحثين عني.
عبثاً تلوبين عني يا ربى قريتي" موقسيتي"الجميلة.
لن تجديني في مكان محدّد فأنا ،
قد نذرت نفسي لكل الوطن.

سورية ياتوأم الروح
ياحبي الذي لا يموت

من أجلك مازالت تتفتح أزهار قلبي
ولك وحدك كل أفراح الروح.

# طائر الفينيق

هيا ، تعال، أقبل إليّ يا طائر الفينيق
فأنا أتوق للطيران معك عبر العالم.
تدور الكرة الأرضية تحت سماء سوداء.
كحجر رحىً في طاحونة قديمة. إن كلمات اللغة لا تكفي .
حتى أحكي لك كل ما أودُّ قوله.
وكل الكلمات التي أعرفها
لا تكلفي لواحدة من أغنياتك:
" ناموا أيها الناس، ناموا نوماً عميقاً"!

سأريك شفتي الحب الناعمتين.
قبلة الشباب الدافئة،
عبر أدخنة الحرب التي تتلاعب بها الريح.

سأريك يا طائر الفينيق رجال الحرب
وهم يُحدَّقون من وراء الصخور وعبر الغابات.
متربِّصين كنمور جائعة"
على وشك الانقضاض لالتهام فرائسها البشرية .
وعندما يصوِّب السفاحون أسلحتهم ،
لقتل الأبرياء وإشعال الحرائق في أي مكان.
غنِّ لهم يا طائر الفينيق والْعَنْهُمْ:
" ناموا أيها الجنود، بأيديكم الملوثة بالدماء.
ناموا بلا يقظة ، أيها المتعطشون للدماء
ناموا أيها الجنود ، عليك اللعنة،

ناموا بلا يقظة...
إنني أصبُّ لعناتي عليكم
وأنا أغني لكم أغنية الموت"..

# إلى رحمي توما

تتلاطم أمواج البحر وتندفع ،
بأقصى قواها نحو كتف الجبل.
ويخترق صوت مرتجف أوصالي ، غير صوت التسبيح
الذي يردِّده عجوز شركسي فوق كتف الجبل.

يبحث الجد بعينيه عبر الأمواج،
وهو يحرِّك شفتيه بالأدعية والتسبيح.
ويُعييه البحث وترتدُّ عيناه حسيرتين
دون أن يجد مصدر الصوت

فتاتي الريح متعبة عبر البحر
ثم ترتاح على كتف الجبل
وهي تغني أغنية حزينة
تروي حكاية الدرب الطويل الذي قطعته
على طريق التهجير.

يضع العجوز سبحته في حجره،
ويصمت وهو يصغي إلى أغنية الريح.
وكلما ازدادت أغنية الريح حزناً
تثاقلت أنفاس العجوز.

تردِّد الريح أنين الفرقى في قاع البحر

وتتمرَّدُ الأمواج متلاطمة من جديد.
فيخنق الماء أصوات النشيج مرة أخرى .

وفي أعماق العجوز يستفيق صوت التسبيح من جديد.

## وصية أب

لست أدري
إن كان أبي
قد تحوّل إلى تراب
لكن الأعشاب
نبتت على قبره
منذ أزمنة طويلة .
لو كنت تستطيع ياأبي
أن تسمع كلماتي
لفرحت فرحة الأطفال
كنت سأمدّ يدي
إليك اليوم
بقدحٍ من أشعة الشمس
كنت قدَّمت إليك اليوم
قدحاً من نسيم
ولكن ما الفائدة ؟!
فالشواهد تنتصب وحيدة
صامته وكأنها
جمدت في برك من رصاص
تقف كأنها تنتظر قدومي
وأنت تقف اليوم وحيداً
بين أولئك الذين لم يعودوا ينتظرون أحداً.
لا أدري يا أبي

إن كنت قد تحوّلت إلى حديد
وإن كنت كذلك فلاشك
أنك قد غدوت سيفاً
فالأرض غاضبة
والجراح لم تلتئم بعد
وأحسن هدية تقدمها سلاحاً
لابنك هو قلبك الذي
كأن مليئاً بالحماس

❑❑❑

# مختارات من الأصوات النسائية الشعرية الشابة

شعر قانوقا زارينا
■ ترجمة سهام شوكان ■

## غروب

تسجد الشمس عند حافة السماء لتصلي،
ويلامس صوت الآذان أعماق المساء .
ويمسني أنا أيضاً ، ويتركني الصوت في حيرة ،
ولا أجرؤ على الوقوف فوق سجادة الصلاة ،
عندما تتوضأ قريتي بأشعة الشمس الغاربة ،
تتراكم كلمات العربية التي لا أعرفها على شفتي ،
كنت سأستجديها شيئاً ، ولكني أجد حرجاً ،
فأنا لا أجرؤ بعد على الوقوف فوق سجادة الصلاة .
هاهي الجدة تنحني و تسجد وقد اعتادت ذلك ..
وبإمكانك أن تلتقط ما تفهمه من كلمات العربية التي تهمس بها ،
مع أن من يود الصلاة الآن يصلي علنا ،
فأنا لا أجرؤ بعد على الوقوف فوق سجادة الصلاة .
لست ملحدة ، أؤمن بوجوده ..
وهاهي الشمس تحرق جنبات المساء ، فتلتمع النجوم .

***

كل شئ أراه مرسوماً على صفحة النهر ..
صورتك وماضي مجرد هراء
عند نقطة العبور السهلة
التي وجدتها تتكئ روحي وترتاح
لأن الأغاني الجديدة بحاجة إلى هواء نقي ،
أعيد تشكيل عالمي من الداخل ،
وقد أسرتني لحظة الحقيقة ..
التي ولدتها كذبة مكشوفة ،
ستلحق بي مهما حاولت الإفلات منها
ماقلته لي وما لم يحصل أبداً سيان ..
فأنا لم أعد أخاف الماء كما كنت أفعل من قبل ..
ولم أعد أخفي حقيقتي عنه أبداً ،
ها أنا أتغير ، ويتفجر الفرح من داخلي
وتتمطّى روحي وتبكي في الخفاء
وترتفع أصداء الأغنية التي عدت بها
من النهر حيث تركت آثار أقدامي

***

أيتها القرية الشركسية ، أيها الحي الشركسي ،
كلما تدفق نبع ، امتدت جذورك بعيداً في الأرض
أشجار الحور العتيقة التي جفاها النوم في جنباتك ،
مازالت أنظارها مصوبة نحو شاطئ البحر البعيد ..
ها أنت تنظرين إلى الواقع المر بأسى
ما أقل عدد الذين بقوا في جنباتك ،
وهل العائدون أغراب
تتنهد السماء وهي تخفي نجومها ..
شواهد القبور المخلوعة لم يبق فيها أثر للحياة ..
تتقارب الأرواح في بحثها سعياً عن مكان ظليل ،
وتلتصق بسماء الليل وكأنها قطع من الأرض العذراء ..
وتروي بعض أحلامها سراً فتتهاوى ،
تحت أشجار الحور العتيقة التي لا تنام،
وترفض الجدة أن تشرب شيئاً ،
حتى تترسب الأحزان في قاع البئر ..
ويستيقظ الجد قبل طلوع الفجر .
أيتها القرية الشركسية ، احذري الضياع

# سراً أكتب أشعاري باللغة الشركسية

## *شعر بلاغة لوبا*
## *ترجمة سهام شوكان*

بالرغم من كل الأقاويل عن حلول نهايتي ،
وعن استهلاكي لنفسي وضياع هويتي،
فأنا أكتب أشعاري سراً باللغة الشركسية ،
أخلقها ، و أهدهدها في أرجوحة الروح الشركسية ..

بالرغم من كل الأقاويل عن فنائي ،
وعن أنني بعت روحي وكل ما يمكن بيعه ،
فأنا أكتب أشعاري سراً باللغة الشركسية ،
أخلقها ، و أهدهدها في مهد الروح الشركسية

بالرغم من أنهم أهملوني و ألقوا بي في وديان النسيان ،
وأقاموا نصباً على قبري قبل وفاتي ،
فأنا أكتب أشعاري سراً باللغة الشركسية
أخلقها وأهدهدها في أرجوحة الروح الشركسية .

سراً أكتب أشعاري باللغة الشركسية
أخلقها و أهدهدها في أرجوحة الروح الشركسية

***

لم يطلع النهار على حلمي ،
ولم أستطع أن أفعل شيئاً ، أي شيء ،
في تلك الليلة الوحيدة .. وقد انقضت حتى آخرها،
لم نستطع أن نلتقي أنا و أنت .

ما كنت قد اخترت أحداً غيرك ،
سراً كان حبي ، لم أستطع البوح به ،
هاقد أضاع أحدنا الآخر ، إن الحياة قصيرة

فلماذا بقينا فرادى في بيداء القلب .

هاقد طلع النهار على حلمي ،
ولأني كنت قد تهت في ضياء الليلة المقمرة
فإنك لم تستطع أن تلاقيني ، حتى انقضى الليل .
ألم يصلك صوتي عبر النجوم !

كنت أسعى جاهدة حتى أصبح أسيرتك
وكنت سأسلمك طائعة يد الحب
لكن الكلمات لم تخرج من فمي
ولم يستطع قلبك سماع صوت الروح

مالا أستطيع تحمله شيء واحد ،
فأنت أيضاً تحلم بي في الليالي ،
ولا تثق أيضاً بأحد مثلي
بالرغم من أن ضوء النهار يطلع دوماً على حلمك الوحيد
لكنك لم تعد تقصد أبداً
المكان الذي كنا نلتقي فيه دوماً ، و أنا أيضاً
لم أستطع الوصول إليه ،مع أنني نويت الذهاب ..
ويطلع النهار على حلمي المستعجل ..

***

# التهجير

*شعر أبروقة بيللا*
*ترجمة سهام شوكان*

على طرق التهجير كان يكتب المراثي،
بالأمس البعيد شعبي البريء
وكانت المراثي تقطع الدروب إلى استامبول ،
بالأمس البعيد وكنت نائمة .
والكائنات اليائسة كانت تقطع دروباً ،
مشدودة كالحبال عبر القفار .
وقد هد الحيف قواها وتجمدت
من الظلم أهداب روح القوم

هل تبللت عيناي وامتلأتا دمعا لأنني ،
رأيت صور تلك الدروب في أحلامي
أم ندت مني صيحة دون أن أدري ياترى
لأن قطرة من دماء الضحايا عبرت عروقي

مأساة التهجير مازالت حية في حاضري
ودروب التهجير مازالت ماثلة للعيان ،
ومازالت أطيافهم إلى اليوم حائرة
مترعة الروح ، مترعة القلب بالغربة

***

من دنياي تفوح الأزهار
فأنا أعيش في حضن وطن الأجداد
لكن أهداب الأمل تكاد تجف من روحي
لأن أخي البعيد يعيش في الغربة

من دنياي تنطلق موجات الألحان ،
وروحي مترعة بألحان موسيقى الشعب
سأطلق ألحاني بعيداً ، ولابد أن تصل إليه
فأنا أحمي مشاعر الأخوة في سويداء القلب

من دنياي تتلاشى رائحة الخمرة ،
والقلب يتألم لمشاعر الأخ البعيد .
ليته جاء يوماً ولو كما يأتي الغريب
حتى أتخلص من مشاعر التقصير تجاه الأخوة

❑❑❑

# مختارات من كتاب : الأقوال الشركسية المأثورة
# تأليف غوكموخ أبو بكر ، قاردن غوش زراموك

■ ترجمة : نذير شق ■

* مُت شجاعاً ، فالمرء لا يموت مرتين .
* حتى العصفور .. سيّد عشه .
* تجَّول حول العالم ..ولكن عُدْ إلى وطنك .
* مهما أطعمت الذئب .. فعيناه نحو الغابة .
* لا تخف ممن يهرول إليك وقد استلَّ سيفه ، واحذر ممن يتخفى في الزاوية .
* من يرعب جيش العدو فهو جيش بذاته .
* سيف في المعركة لا يستعار .
* لا اعتبار لجيش قائده جبان ،
* إن سلّمت عدوك حياتك فلا تطلعه على أسرارك ،
* موت في وطني خير من سعادة في الغربة .
* لاتكن البادئ بالضرب ، ولا ترحم من ضربك .
* كثير الأفعال لا كثير الأقوال .
* الصغير يكبر ، الكبير لا يصغر .
* لا تصارع الدب معتمداً على رفيقك .
* سكوت الديك لا يمنع طلوع الفجر .
* مالك العقل مالك كل شيء .
* الشوكة تُزال بالشوكة .
* الطائر يسمو بجناحيه ، والإنسان يسمو بعقله .
* من له مهد ، له لحد .
* من يملك أكداس الحديد قد يحتاج لإبرة من حديد ..

❑❑❑

# شعر : ورزاي أفليك

## من ديوان / رقصة الغجر / نالتشك 1985

■ ترجمة : ممدوح قوموق ■

**" في القرن التاسع عشر لقيت جموع ضخمة من المهجرين الشراكسة حتفها غرقاً في البحر الأسود وهي في طريق التهجير إلى تركيا**

المطر يطرق زجاج النافذة
ياجدتي
وتترك حبة المطر خطاً متطاولاً
وهي تتداعى إلى الأسفل
فأوقدي النار
في مدفأة البيت ، ياجدتي
فأنا أرتعد من البرد
النار تتأجج في المدفأة ،
وفي الخارج تئنُّ الريح التي هبطت من الجبال
وأنا أرتعد برداً تارة
وتارة أخرى
أتوهّج كجمرة متّقدة.
مأأثقل وطأة هذه الليلة
ياجدتي
فالريح تئنّ في أعماق البحر
أتعرفين أولئك الذين يرقدون هناك
دون أن ينساهم الزمان أبداً؟
أوقدي النار بعزم
في مدفأة البيت
ياجدتي
أترين حبات الماء التي تطرق النافذة ؟
والتي استمعت إلى صدى طرقاتها
وقوفاً طوال الليل
دون أن يطاوعني قلبي على النوم
إنها رسل ياجدتي
تحمل إلينا خبر الفاجعة
قدمت إلينا من أقاصي البحر الأسود
بعد أن قطعت المسافات
وقمم الجبال
وانتظرت ضوء النهار كل يوم
على الطريق سنوات طويلة
إنها تقول أنها تعرفنا
و أنها في يوم من الأيام
كانت بشراً مثلنا
همُّها العيش
و أنها كانت هنا
تحرث الأرض و تزرع
أتعرفين ما يقولونه
ياجدتي
إن مياه البحر صارت مالحة
بعد أن جبلت ببحر دموعهم
جدتي
أتعرفين كيف يفكر
اولئك الذين فقدوا الوطن في تلك الأيام؟

باردة قمة " أواشحة ماكوة "
وفي باطن الجبل المقدس يغلي البركان
والأيدي ممدودة نحو البرودة
ونحو الدفء
ونداء القلب الأبدي
هو وطن الأجداد
جدتي
أرجوك ، أوقدي النار في المدفأة
الغرفة الباردة ساكنة
والطفل نائم
وقد خرجت الجدة من البيت
وهاهي تضع دلواً بالقرب من النافذة .

❑❑❑

# الأغاني الشركسية القديمة

## شعر : ورزاي أفليك

## من ديوان " رقصة الفجر " - نالتشك 1985

■ ترجمة : ممدوح قوموق ■

امتد اللحن كوتر مشدود ،
و أزاح عن كاهله غبار السنين
ارتفع اللحن وهو يقطِّع نياط القلب ،
وانفجرت الأغنية ،
تروي آلام جرح مفتوح أبداً
تذوب فيه قطعة ملح ..

هاهم يدلفون عبر الباب ،
ويدخلون من النافذة ،
وتعجُّ غرفتي بفرسان ،
مثخنين جراحاً تنزُّ دماؤهم
معفرين بالغبار
ويخيلُ إليّ أنهم يبحثون عني

يجلسون صامتين يمسحون أسلحتهم
يجلون سيوفهم
وتختلط رائحة البارود برائحة " الباسقة".

وفي أرض الدار
تحاصر أصوات نباح الكلاب
همهمة خيولهم المطهمة

– أتسمعون نباح الكلاب ؟
لاداعي للعجلة ، ارتاحوا ،
فأنتم في بيتي على الرحب والسعة
– طبعاً نسمعها
إن خيولنا الأصيلة والشاغدي "
تصدر همهماتها ، تعلمنا بوجودها
وقد ملّت الانتظار

يغادر الفرسان غرفتي
وينغرز الفرسان أغنية شركسية
في غياهب الأزمنة السحيقة ..
وفي فسحة دارنا الكبيرة
يتراكض الكلب وهو ينبح مذعوراً
وكأن مجهولين قد أرعبوه

## ■ Contents:■

❑❑❑

# الهاوية
## شعر ورزاي أفليك
## من ديوان "وجه " - ( نالتشك ) 1985

■ ترجمة ممدوح قوموق ■

عندما وصلت روحي إلى حافة الهاوية
هبَّت الريح من فم الوادي
ومن القمة البيضاء التي عصرها المساء،
تساقطت قبضات مشدودة ..

التصق ظهري بالقمة
وعبثت الريح بصدري
و أخذت أيام حياتي التي عشتها
تلتمع أمامي كأوراق الشجر

الغيوم تلعق أضلاع القمة
والقمر بلسانه الخشن يسحب الغيوم
والشلال الجبلي يصفِّر بكبرياء
متباهياً بقدرته على القفز

و أنا لا أستطيع حراكاً ..
فالنهر الجبلي التهم الجسر الوحيد
والتصق ظهري بالقمة العارية
وها أنا أصارع للبقاء ، بقلب متعب

القمة المتكبرة لا تسمع صوت قلبي
والممر الذي أقف عليه لا يتسع سوى لقدمي

و أنظر إلى الأسفل فأرى الهاوية المرعبة
وأنا حرٌّ في أن أبقى منتصباً فقط

قلت لك ياروحي ، دعينا نعود أدراجنا
عندما أتيت بي مساء إلى الجبال
هيا – انطفئي – الآن و أريحي
جسدي هذا ، المنكمش من الذعر

قلت لك ياروحي ، دعينا ننام
أو نخفِّف خطانا ، إذا جفانا النوم
وها أنت الآن ، تقفين متقطِّعة الأنفاس
ككلب مذعور ،وأنت تنظرين إلى الهاوية

الأعالي جميلة – لكنها سحيقة
عميقة مشاعر القلق التي تسببها
هيا تكلمي الآن بلطف إذا شئت أو أطلقي خواراً
فلا أحد يدري من تكونين أوما تكونين
رحبة – هي السماء ذات النظرات الخشنة
مؤقتة – هي حياة الإنسان التي تمضي سريعاً
كنت ستصرخين صرخة جمل هدّه العطش
لأنك منتصبة في الأعالي

جميلة – هي الأعالي ، والقمة مرتفعة
والله وحده هو الذي يعرف لغة القمم
وها أنت منتصبة بكبرياء رغم قربك أيتها القمة ،
وقد فكَّ الحزن عقدة لسانك

هاهي النجوم تقترب أيها الوادي
وعند الضرورة يمكن الاستضاءة بأنوارها
وارتجفت شجيرة انتصبت كشعر رأس وقف ذعراً ،

وهاهي تخز النسيم بأشواكها

وكلما استضاء المكان بالأنوار الطليقة ،
يغدو العالم أكثر وضوحاً
ومادمت تعيش على هذه الكرة الأرضية
فستزداد الأنوار المحبوسة في أعماقك اضطراباً

فيك شيء من طباع هذا النور
وربما كان النور أهلك الذين ولدوك
وإلا لماذا تنبعث فيك الرغبة في البكاء
كلما ازدادت غزارة الضوء

الأعالي جميلة والممر بعرض شبر
ورغم ضيق الوادي فإن تلك السماء طليقة
وعند جدار القمة تتعصرين ياروحي ،
وأنت تدغدغين الأماني في القلب

ألم أقل لك ياروحي ، دعينا نعود أدراجنا
فلا داعي للتوجُّه إلى الجبال في وقت متأخِّر
انظري الآن إلى الأعلى ، إلى الأسفل
صححي الوضع ، ولا تحمليني أخطاءك

على الممر الوحيد أمامك كان هنالك جسر
فالتهمته التيارات الجبلية
لا تأملي في العودة القهقرى
إذا لم تستطيعي مواصلة السير قدماً

على جدار القمة يضيع الطريق
ويختفي في حناياه الممر الذي تسيرين عليه
وتردِّد الجبال صدى همومك

وهي تعرض أمام ناظريك السماء الفارغة

على جدار القمة الباردة تقف منتصباً بعزم
خطوة أخرى – وتهوي في أعماق الهاوية –
ويقف القمر وسنان فوق رأسك
وهو يغمرك برفق بنوره الشاحب

ماهي الإساءة التي بدرت مني تجاه القمر في حياتي ؟
وبماذا أسأت لهذه السماء العارية ؟
لماذا إذن جعلا مئات الأسئلة القلقة
تتراقص على ظهري الذي التصق بجدار القمة البارد !

أيام عمرك كلها كانت حافلة بالشجاعة
ومع ذلك فإن الشجاعة بحاجة إلى موطئ قدم
أما الطريق الذي سلكته في المساء
فما أوصلك إلا إلى هاوية فاغرة الفاه

رغم ضيق الوادي فالسماء رحبة
اشحذ قواك التي كانت طوع إرادتك يوماً
فأنا أتأملك منتظراً
أن تستعيد القدرة على النظر نحوهما ثانية

هل ستسقط من أعلى القمة كصخرة ؟
أم ستبقى واقفاً على الممر جامداً كتمثال خشبي ؟
أنت إنسان ومادمت حياً
دع السماء ترى مالذي يستطيع الإنسان أن يفعله
هاهو الدفء يعود إلى نخاع عظمة ساقي
ويلمس الدفء بأصابعه عظمة لوح الكتف
وها أنت تنهضين مصممة على شيء
مذكِّرة إياي بأيام الشباب

إذا كان الوادي ضيقاً ، هل السماء عمياءْ ؟
فبأيَّ ذنب وصلت أنتِ إلى الهاوية ؟
أية روحٍ لا تسرح بالأماني
طالما كانت قادرة على ذلك !

كنت تشتهين القمر ، وكانت السماء طليقة ،
والقمة نظيفة ، وكنت تتوقين إليها
وهاأنت تقفين الآن عند حافة الهاوية
تستجمعين القوى وأنت وحيدة
هل كنت قوة ما ؟
أم كان الصراع يمزِّقك ؟
من الذي عاش على هذه الأرض ،
ولم يمت في طريقه إلى ما كان يصارع من أجله ؟

هذه الأرض تدور منذ الأزل
وحيدة ، دون أن تنظر إلى الخلف
وماتراه أمامك هو إحدى غاباتها ،
غابات أرضنا التي تمزِّقها الآلام

هيِّن أمر الهاوية التي تقفين عندها ،
ومع ذلك ، فأنت روح
تصهل الغابة أمامك وتلمس القمة الباردة
كتفك بأصابع من حجارة

الهاوية سحيقة ، والقمة طليقة
هاقد وصلت – وازدادت البرودة
تقفين وظهرك إلى جدار القمة البيضاء
وليس لك من ترسٍ تحتمين به سوى ذلك القمر المضيء

الريح تعبث بذلك الترس
وتجرِّح الأشواك إهاب ذلك الترس
ومع ذلك ترتفع أمانيك ابتهالات للإله
مع كل نفسٍ من أنفاسك

الوادي جميل والغابة كثيفة
وشلالات الجبل تنوح في أسفل الوادي
وتصفِّر داخل الكهوف الملأى بالأنين ،
وكأنها تتعلم كيف تكون متوحشة

كنت قد قلت لك دعينا ياروحي نعود أدراجنا
ولاحاجة بنا للسفر في الأماسي
فأعيدي الآن ترتيب الأشياء
وشدي الحزام وكفِّي عن النحيب

ويعيد غضبك القوة إلى جسدي
فينتفض الوريد في عنقي
هل نفذ صبرك – هيا انتحري إذن
ولاحاجة للتلاشي وأنت تنظرين إلى الوراء

سهلة روحه من صراطه مستقيم
ومن لا يملك القوة – فليس لديه إلا القليل
رغم أنك وحيد ، فأنت انسان
فلا داعي للتطلع إلى غضب مستعار ، كإهاب النمر

دقِّق النظر ، فالجدار الجبلي يتحرك
ويبدو أن به حياة ، وأنه بدأ يفهم
فإن لم يفسح لك الممر – اقتل الجبل
و إن أخذ يتراخى فلا داعي لإلحاق الأذى به

## ■ Contents:■

من غضبك يتطاير الشرر و الجمر
فتتساقط أمام عيني في حضن الجبل
فينظر قمرك نحوك ، وتنظر نجومك إليك
ساخرة من الجبل الذي بدأ يشعر بالخوف

أيتها الروح ، ياروحي ، هيا لملمي قواك
لملمي القوى بدءاً من أصابع القدم ،
اجمعي واستنفري كل مالديك من قوة
وادفعي القمة التي بدأت تتمايل

لقد تأثرت القمة – وازدادت القوة إمعاناً
وها أنا قد بدأت أتوهج ، وأخذ القمر
ينظر بقلق إلى القمة التي بدأت ترتجف
و أخذت النجوم تهرب لا تلوي على شيء

عندما اشتعلت وتعالى لهيبي
تساقطت بقاياي وهي تلتمع ،على القمة المتصدعة
وماعانيته من وميض البرق الذي انطلق مني
تصاعد إلى الفضاء مع البريق

❑❑❑

# بيت في الهواء
# للكاتب الشركسي أتسقان روسلان

■ ترجمة : عدنان قالمق ■

يحتفل الفنان بعيد ميلاده بتواضع ، ونحن المدعوون أصدقاؤه نشاركه المناسبة ، كلمات المديح والإطراء تنساب بدون حساب من خلال الأنخاب كنت جالساً أقرأ وجوه الحضور ، أميز مدى عمق صداقتهم للفنان ، أنخابهم كانت مرآة صادقة تعكس مافي قلوبهم ، وكنت أرى ذلك في أعينهم أو في إيماءاتهم العفوية .. وتتعلق عيناي بوجه تلك المرأة اللطيفة القسمات ،ويتملكني انطباع بأنني أعرفها : لوحة معبرة لكبرياء طلعتها ، الرأس المرفوع المتوج بالشعر الفضي ، لا تبدر منه إنحناءة حتى عندما ترفع اللقمةإلى فمها ، يداها لطيفتان كجناحي لقلق يسبح في الهواء ، والجيد أهيف طويل كالمرمر ، مرغم حيالها على ذكر الخالق مصورها : " سبحان الله " على هذا التناغم العجيب في قسماتها ، وأمابصمات الحياة التي تركها العمر على تقاسيم وجهها فماهي إلا محاولات لطيفة لرسم خطى السنين الثقيلة على محياها بحظ جميل ، وللفتاتها مقاييسها الموزونة ، ولكلماتها النادرة آثارها المطبوعة في النفس ، ولست أدري كيف ولماذا تعلقت صورتها في خيالي على هيئة الطيور السابحة في السماء ، ويلاحظ صديقي الذي يجلس بجانبي تعلق نظراتي بها ويقول : ليست هنالك امرأة شركسية قاست من العذاب والآلام ما قاسته ..هذه الصديقة ومع ذلك تراها قد حافظت على عزتها – النبالة تجري في عروقها ، وهذا ما أنقذها من كل المحن ، للأصالة قواعدها المتينة يا أخي.. "

وامتدت أحاديث صديقي عن الأصالة طوال السهرة .. وانتظرت النهاية ليتسنى لي الإستفسار عن قصتها المثيرة ، وفرحت عندما حان دور مضيفنا لرفع النخب لأن هذا يعني نهاية الحفلة وموعد الإنصراف ، لكنه خيب أملي ، فقد قام ليحضر السمك المجفف الذي وعدنا به ، وكانت هذه حجة لإطالة بقاء المدعوين عنده لا أكثر : " عندي سمك مجفف لذيذ لذيذ "ويضع على الطاولة سمكة كبيرة ، و تمتد بعض الأيدي بشراهة و كأنما كانوا صياماً ، و ألاحظ تصلب شفتي المرأة ، وصفرة خريفية تعلو وجهها ، مالذي حزَّ في نفسها وجعلها تتغير هكذا فجأة ؟ تعتذر وتنهض ترجو السماح لها بالإنصراف ، ولكونها امرأة لم يشددوا إلحاحهم عليها لمتابعة السهرة ، ويخرج معها صديقي لكي يوصلها إلى منزلها ، ويضيع أملي في التعرف على حكاية هذه المرأة الجذابة .

في اليوم التالي التقيت بصديقي الذي حدثني عن تلك المرأة وكنت تواقاً لمعرفة التفاصيل : "

## ■ Contents:■

لوحدثتك هي بنفسها لكان ذلك رائعاً ، لكنها لا تتحدث عن نفسها ، وإذا حدث ذلك – ونادراً ما يحدث – فإن إحساساً بالضعة و الهوان يتملكها .. القليل الذي أعرفه عنهاسوف أقوله لك ، وماأعرفه عنها هو مااستطعت استخلاصه من " كواشنا " نفسها على مدى سنين طويلة وذلك بحكم القرابة أيضاً"

... الأرض الصحراوية قليلة الخضرة تحت الشمس ، حارة ومضجرة ورائحة العرق خانقة ، والبحر قريب ، ومحاولة الإقتراب من البحر ولو بضع خطوات قد تكلفك حياتك ، وثمن حياة السجين عند الحرس طلقة واحدة لا غير ..

كواشفه في ذلك القطار الخشبي الطويل الذي حولوه إلى سجن ، وهي تحتل الطابق الثاني من الأسرة المتراصة فوق بعضها البعض ، تلك الفتاة ذات العشرين ربيعاً والبالغة الحسن ، تجتذب عيون النساء المعتقلات اللاتي يعانين من الجوع القاتل ، وتذكرهن بالجمال ، تكتب بيديها الرقيقتين في الهواء بدون توقف ، وفي الهواء أنين ونواح ، وهي صماء لا تسمع كل ذلك ، وفي عينيها بريق وبشفتيها تتحدث بدون صوت .الشيء الوحيد الذي كان يزعج الفتاة و يخرجها عن طورها هو القمل .. القمل الذي صار معروفاً لكل الأيادي – أحمر كبير . أشيب أو أسود وقد يكون أبيض .. ومن أين كل هذا ؟

يرتعش جسد الفتاة عندما تحس وطأ أقدام القمل الثقيلة فوق جلدها الناعم و تحس بالأسر ، وأنها سوف تتقيأ مفرغة كل مافي معدتها ، وتحس بالدوار ، فتتناول آخر سمكة بقيت في حوزتها وتتدلى من سريرها إلى سرير جارتها لكي تعطيها السمكة ، المرأة التي حظيت بالسمكة ، تبدأ بالتقاط حشرات القمل من شعرها الذهبي واحدة بعد أخرى ، وبعناية تقتلها ، تعفسها بأناملها و أظافرها ، الجوع كافر..

السمك المجفف الذي يرمى للسجناء طعاماً لا تتناوله " كواشنا " بل تعطيها لجارتها أجرة تنظيف شعرها من القمل الذي يدب فيه ، فإذا أكلته سوف تعطش ، ومقدار الماء اليومي المخصص لكل سجين معدود بالجرعات – فلماذا تجلب الضرر لنفسها ، الجوع أفضل من العطش ، سكان القطار الخشبي الطويل كلهم يتهافتون على السمك المجفف المالح ويتناولونه اتقاء الموت جوعاً ، فهم لا يعرفون مدى قدرة الإنسان على البقاء بدون طعام .

كواشنا ، تتسلق سريرها ، وتتقوقع على نفسهاغارقة في كآبة مظلمة مدة طويلة : إنهاتحس بالندامة والخجل من فعلتها – إذلال إنسان من أجل لقمة ، ولكن ، هل تترك القمل يعشعش في جسدها ؟ ولكي تَنْعَتِق من الخجل الدبق الغليظ ، تبدأ بالرسم في الهواء بيديها ، منذ أشهر عديدة بدأت مشروع بناء بيت في الهواء ، ولم تصل إلى السقف حتى الآن .. يجب أن يكون البناء متيناً وجميلاً ، نوافذ غرفة نومها يجب أن تكون شرقية ، لكي تستقبل أكبر كمية من أشعة الشمس ، النهوض من النوم عندما تدغدغ أشعة الشمس وجهها ،هو حلمها منذ زمن بعيد رسمت النوافذ بمقاييس كبيرة ، طولاً وعرضاً وارتفاعاً – ليس هنالك أغلى من النور لديها ، وبنت الجدار عالياً فهي

تكره السقف الواطئ ، يراودها إحساس بأنها ستندهس تحته ، أجمل البيوت هو البيت الذي ولدت فيه ، لكنها لا تريد أن تبني مايشبهه ثانية ، فقد رأت فيه أحزاناً كثيرة وكرهته : اقتيد والدها من البيت ولم يرجع ، بعده ماتت أمها حزناً ..

... كواشنا تبني بيتاً ، بيتاً يطفح سعادة ، بيتاً يلعب فيه أطفال كثيرون .. كل ما يحيط بها مشبع بالأنين ، بالنواح ، بالكباء ، والفاقدون الأمل بالحياة حولها بالمئات ، وينتظرون الموت بكل هدوء وسكينة . كواشنا تبني بيتاً ، ويجب أن تنتهي من بنائه .

الليل أثقل من كل شيء .. رائحة العرق البشري ، تشخير ، تنهدات و أشياء أخرى مخجلة ، طاقة احتمال الإنسان بلا ندم محدودة ، ولذلك كانت كواشنا تسترق الغفوات عنوة ، فزعيق الحرس الآمرين بالخروج من جوف الموت الجاثم في الصحراء سوف يوقظهم من نومهم ..من موتهم بعد زمن أقرب من القريب ، ما ينتظر كواشنا عندها حساب أرَّقها طويلاً – يتقيأ القطار مافي جوفه من أجساد بشرية متورمة منزلقة على السلم الخشبي الذي يوصلهم إلى الأرض ، و البعض يطأها زاحفاً ، وجهة الجميع ، ذلك الهيكل الخشبي الجاثم في الساحة والذي سوف يستوعبهم ليتركوا كل فضلاتهم في جوفه ، هذا مرحاض ، كل المعتقلين يساقون إليه صفاً طويلاً يدخلونه الواحد تلو الآخر ، تنفيذ هذه العملية على مرأى من الأعين البشرية شيء مؤرق فعلاً ، ولكن مالعمل ؟

... ويساق السجناء من المرحاض إلى جوف القطار البارد ثانية ليتناولوا السمك المالح المجفف إفطاراً ، كواشنا تأخذ السمكة وتضعها تحت وسادتها ثم تعود من جديد لإتمام عملية بناء البيت . وهكذا تمر الساعات والأيام والأشهر ثقيلة مريرة .

...وفي أحد الأيام يساق السجناء باتجاه البحر – الهياكل العظمية بخطواتها المنفرجة تتمايل في مشيتها ، ومن يقع منهم أرضاً يبقى في مكانه مقتولاً برصاص الحرس . أو ترى اثنين يجران وراءهما جسداً يترك آثار الدم وراءه ، الباخرة الجاثمة عند ساحل البحر على بعد خطوات منهم ، لكنها بعيدة جداً ، وكواشنا بينهم تجر نفسها ، وتوازن بين مابقي لديها من قوة وعدد الخطوات الباقية إلى الباخرة فإذا توقفت قتلت في الحال .. هذه خطوة .. اثنتان ، ثلاثة .. يجب أن تنهي بناء البيت ، وتدق آخر مسمار .. لابد من سور للبيت ، وتسوره بيديها .. و أين الورود ؟

لابد من حديقة للزهور .. ووجدت موقعاً مناسباً في باحة الدار ...غداً سوف تتفتح براعمها الرطبة وتنشر في الهواء روائحها وتجذب أسراب النحل لتمتص رحيقها .. الرحيق ، كواشنا على ظهر الباخرة الآن، وتنتظر ما تخبئ الأقدار لها من مجهول .

الباخرة تعج بسكانها كخلية نحل .. ويصمت محدثي ..

ثم ماذا ؟ أسأله وقد نفذ صبري ، وتابع .. وبعد ذلك أودعوهم في سجن آخر في قلب مدينة – نسيت اسمها .

وبعد مدة غير طويلة أطلقوا سراحها بحكم البراءة وذلك بمجهود أحد محبي الخير ، لكنها لم

تنعم بالحرية طويلاً ، فبعد بضعة سنوات اتهمت ثانية وأودعت السجن ، كانت صادقة صريحة وجريئة في مواقفها أمام المحاكم وهذا ما جلب لها التعاسة ،يضاف إلى ذلك سوء بعض الناس الممتلئين حقداً وقذارة ..

كان معتقلها هذه المرة في الشمال البعيد من سيبيريا وظلت هناك تعمل في قطع أشجار الغابات طيلة ثماني سنوات من يعرف ماتخبئه الأقدار له ياصديقي ، الله وحده يعرف ذلك ، أن يحافظ الإنسان على فطرته الإنسانية وعلى حبه للحياة والناس مثل كواشنا بعد كل هذا العذاب والآلام والمعاملات الوحشية فإن ذلك يحتاج إلى شجاعة ما بعدها شجاعة .

محدثي يمد يده ويصافحني وينصرف معتذراً لتأخره عن موعد – " هل أنهت بناء البيت ؟ سألته بعد أن أدار ظهره وابتعد ، لكنه وقف واستدار نحوي وأجابني : " عند كواشنا ببغاء جميل يتكلم الشركسية ! "

كان جواباً لم أتوقعه أبداً ..

**من كتاب الأشعار والقصص**

**نالتشك 1993**

❑❑❑

***Foreign Literature Quarterly. No. 91 Summer 1997. Twenty Third year A Special Issue about the literature of the caucasians.***

## ■ Contents:■



❑

الآداب الأجنبية، العدد 91/ صيف 1997، السنة الثالثة والعشرون
عدد خاص بأدب قباردا- بلقاريا.

# المـحـتـويــات:

14- "مختارات من الأدب القباردي الشركسي المعاصر، ت. ممدوح قوموق.
15- "صخرة الدموع" شعر غوبجوقه ليوان، ت. ممدوح قوموق.
16- "دروب التاريخ" شعر باتي بالقز- ت. فيصل جلاحج.
17- "البحث عن السعادة" شعر بوريس أو طيج- ت. فيصل جلاحج.
18- "الحسناء والربيع" شعر زبيرتحه غزيت. ت. فيصل جلاحج.
19- "نالتشك 1994" شعر فوست قبردي. ت. فيصل جلاحج.
20- الشاعر القبرديني علي أسعد شوجن سكو "حياته وأشعاره ترجمة/ نديم ميرزا.
21- "نالتشك 1984"، للشاعر قجربيتر. ت. نذير شق.
22- "نالتشك 1963"، شعر باشأة بكمرزه- ت. أحمد كاتو.
23- "إلى ذكرى الشهيد العميد ممدوح أباظة" شعر تحزبل حسن-ت. ممدوح قوموق.
24- "غروب" مختارات من الأصوات النسائية الشعرية الشابة، شعر قانونا زارينا ت. سهام شوكان.
25- مختارات من كتاب:"الأقوال الشركسية المأثورة، تأليف غوكموخ أبو بكر.ت. نذير شق.
26- شعر ورزاي أفليك- ت. ممدوح قوموق.
27- الأغاني الشركسية القديمة، شعر ورزاي أفليك-ت. ممدوح قوموق.
28- "الهاوية" شعر ورزاي أفليك" ت. ممدوح قوموق.
29- "بيت في الهواء" للكاتب الشركسي أتسقان روسلان، ت. عدنا قالمق.

❑❑